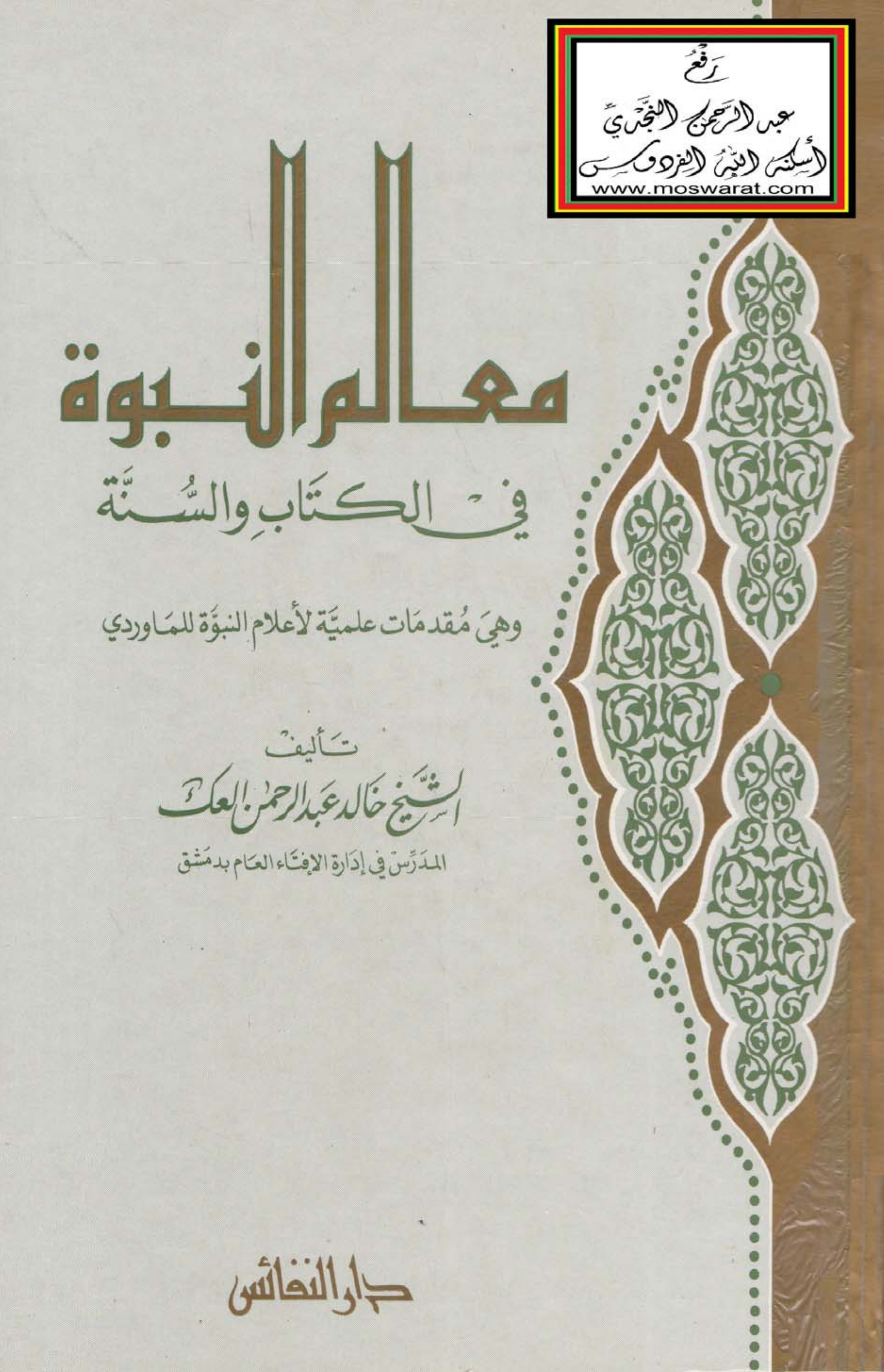


معالم النبوة

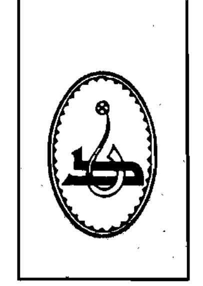
في الكتاب والسُّنَّة

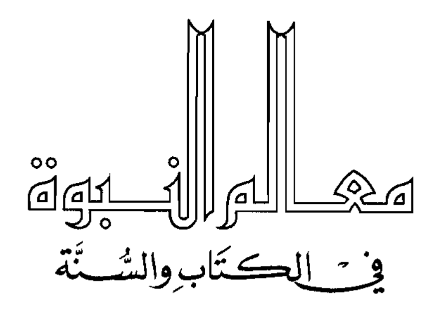
وهي مُقدمات علميّة لأعلام النبوّة للماوردي

تأليف
الشيخ خالد عبد الرحمن العك
المدرِّس في إدارة الإفتاء العام بدمشق

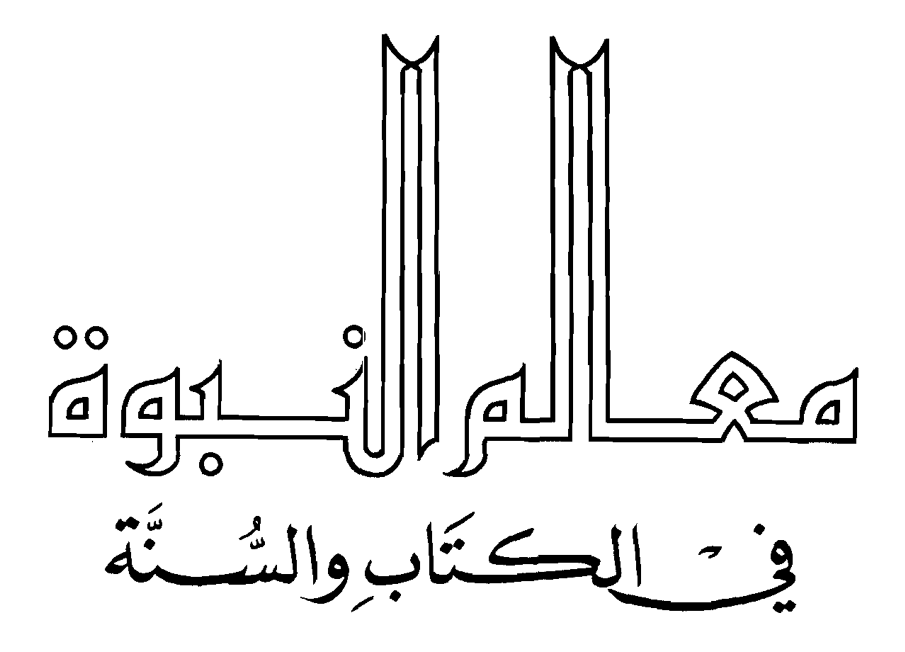
دار النفائس






معالم النبوة
في الكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم



وهيَ مُقدمات علميّة لأعلام النبوّة للماوردي

تأليف

الشيخ خالد عبد الرحمن العك
المدرِّس في إدارة الإفتاء العام بدمشق

دار النفائس



للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب ١٤/٥١٥٢
فاكس: ٨٦١٣٦٧ - هاتف: ٨٠٣١٥٢
أو ٨١٠١٩٤ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

بسم الله توكلتُ على الله

الافْتِتَاحُ

﴿مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ﴾ ﷺ

هو المعلِّمُ الصّادقُ! والقائدُ النّاصحُ! وهو المَفْزَعُ عندَ الخِصَامِ! والقدوةُ لجميعِ الأنَامِ!!

لم ينطقْ إلاَّ عن عِصمةٍ! ولم يتكلَّم إلاَّ عن حكمةٍ! لم تسقطْ له كلمةٌ! ولا زلَّتْ بهِ قَدمٌ! ولا بَارتْ لهُ حُجَّةٌ!!.

ولم يسمعِ المؤمنونَ بعدَ كلام الله تعالى بكلام قطُّ أعمَّ نفعاً، ولا أصدقَ لفظاً، ولا أعدلَ وَزْناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهلَ مخرجاً، ولا أفصحَ معنىً، ولا أبْيَنَ فحوىً، ولا أقوى بُرْهَاناً؛ مِنْ كَلامِ رَسُولِ الله ﷺ!!!.

كلّما زِدْتَ كلامَهُ ﷺ فكراً زَادَكَ معنىً!! ألقَى الله تعالى عليهِ المَهَابَةَ!! وغشَّاهُ بالقَبُولِ!! وأحَاطَهُ بالمحبَّةِ!! وجمعَ الله تعالى لهُ فيهِ بينَ الجَلالةِ والحَلاوةِ!!!.

مَنْ صدَّقَهُ أفلحَ وفازَ!! ومن اتَّبعَهُ هُدِي إلى السِّرَاطِ المُسْتَقِيم!!!.

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدِّين، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.



بسم الله الرحمٰن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنَا وسيِّئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِيَ لهُ.

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا الله حقَّ تُقَاتهِ ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلِمُون﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٠٢]، ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الَّذي خلقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتَّقُوا الله الَّذي تَسَاءَلُونَ بهِ والأرحَامَ، إنَّ الله كانَ عليكُمْ رقيباً﴾ [سورة النساء، الآية ١]، ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قولاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لكُمْ أعمالَكُمْ، ويغفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ومَنْ يُطِعِ الله ورسولَهُ فقدْ فَازَ فوزاً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ ـ ٧١].

أمَّا بَعْدُ: فإنّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ محدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالَةٌ، وكلَّ ضلالَةٍ في النَّارِ.

هذا الكتاب:

يتميَّزُ هذا الكتابُ بأبحاثهِ القيِّمةِ التي تكشفُ عن «معالم النُّبوَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ»، وكذا يتميَّزُ بالمنهج الذي سارتْ عليه هذهِ الأبحَاثُ، التي تتمثَّلُ بالطَّريقةِ القرآنيةِ في إثباتِ النُّبوَّةِ وتوثيقِ الرِّسالة؛ فإنَّ الله تباركَ وتعالى

قد أَيَّدَ رسولَهُ بآياتِهِ البيِّناتِ، وبدلائلهِ السَّاطعاتِ، وبحججهِ القاطعاتِ؛ على صدقِ نُبوَّتهِ وصحَّةِ رسالتهِ، بما لا يدعُ ريبةً لمرتابٍ، ولا مغمزاً لعيَّابٍ، كما أنَّه سبحانه قد عصمَهُ بحفظهِ وطهَّرَهُ بقُدْسِهِ؛ ليكونَ الأُسوَةِ الحسنةَ لعبادهِ، والمثَلَ الأعلىٰ لخلقِهِ، في الدِّينِ والعقيدةِ والشَّريعةِ والأخلاقِ والآداب، فكان ﷺ بذلك «آيَةَ الله العُظْمىٰ» و«حجَّتَهُ الكبرى» بعدَ القرآنِ العظيمِ!!!...

فهذا هو النَّبيُّ الكريم الَّذي أرسلَهُ ربُّ العالمين لهدايةِ النَّاسِ أجمعين؛ ليخرجَهُمْ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ، فآتَاهم الله تعالى ببركةِ رسالتهِ ويُمْنِ سِفَارتهِ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ، وكانَ ﷺ من ربِّهِ عزَّ وجلَّ بالمنزلةِ العُليَا التي تقَاصَرتِ العُقُولُ والألْسِنَةُ عن معرفتِها وإدراك كُنهها!!

إنَّه رسولُ الله وخليلُهُ وصفيُّهُ وخيرُ خلقهِ في الدُّنيا والآخرةِ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم!!..

وقد تقاصرتْ هِمَمُ المتكلمين في بيان مقام النُّبوَّة ومنزلة الرسالة حين اعتمدوا منطق اللسان وصنعة الكلام لإظهار دلائل النُّبوَّة، وما للنبي ﷺ من معالم الرسالة، فأصبحوا يثبتون القطعيَّاتِ بالمظنونات، واليقينيَّاتِ بالمنطقيَّات، فجرُّوا على نفسِهم الوَيلاتِ، وجعلوا الأعداءَ يتطاولون على النُّبوَّة بفاحشِ المعتقداتِ؛ فاقْتَضَاني ذلك أن أبحثَ عن «مَعَالم النُّبوَّةِ» بحجج «الكتابِ والسُّنَّة» بعيداً عن مَسَالِكِ المتكلِّمينَ وطرائقِ المنطقيِّينَ؛ لأنَّ حقائقَ النُّبوَّةِ وقطعيَّاتِ الرِّسالةِ غنيَّةٌ عن حججِ المتكلِّمين ومقدِّماتِ الفلاسفةِ ونتائجِ المنطقيِّين، فإنَّ من طريقتهم إيرادَ الشُّبهاتِ ثم التكلُّفَ في دفعِها بشتَّى المقَالاَتِ، فربَّما تضعفُ مقَالاَتُهم وتتقَاصَرُ مقَامَاتُهم في إبطالِها ودحضِها، فتكونَ فتنةً لأصحابِ الأهَواءِ والآرَاءِ.

وقد أيَّدَ الله تباركَ وتعالى نبيَّهُ المجتبىٰ ورسولَهُ المصطفىٰ بآلافِ الآياتِ والدَّلاَئلِ على نُبوَّتهِ، وبمئاتِ المعجزاتِ الدَّالَّة على صدقِ رسالتِه؛ وهي تبلغُ أقصىٰ مراتبِ الوُضُوحِ، وأعلى مقاماتِ الحُجَجِ، ما بينَ آيةٍ قرآنيَّةَ، ونُصُوصٍ نبويَّةٍ، وآدابٍ ساميةٍ، وأخلاقٍ كريمةٍ، وسجَايَا فاضلةٍ، وعلوم جامعةٍ، وطريقةٍ رشيدةٍ، وتوجيهاتٍ سديدةٍ، ووَصَايا قيِّمةٍ، وفوقَ كلِّ ذلك العقيدةُ الصَّحيحةُ، والإيمانُ الكاملُ، والشَّريعةُ السَّمحةُ، وما وراءَ ذلك من أحكامِ

العبادَاتِ، وقضَايا الحلالِ والحرام، وأحكامِ المعاملاتِ، وغيرِ ذلك ممَّا امتلأتْ به الدنيا نوراً وعلماً، وثقافَةً وفِقْهاً، ممَّا شغَلَ عقولَ الملايين من العلماءِ والحفَّاظِ والفقهاء والمحدِّثين والمفسِّرين والمفكِّرين والمصلحين والمرشدين والمربِّين والمعلِّمين، والخلفاءِ والأمراءِ، والقادةِ والسَّادةِ، والأغنياءِ والفقراءِ، والآباءِ والأمَّهاتِ، والتُّجَّارِ والحرفيين، والعمالِ والفلاحين، والطُّلاَّب والدَّارسين، والمكتشفين والمخترعين؛ على طول التَّاريخ ومدىٰ الحياةِ، ما من واحدٍ منهم إلاَّ ويجدُ فيما جاءَ بِهِ رسولُ الله ﷺ منَ العلمِ والهدىٰ ما يُشبعُ عقلَهُ ويُنيرُ تفكيرَهُ، ويفتحُ له آفاق المعرفةِ الواسعةِ في خيرَيْ الدُّنيا والآخرةِ!!! . . . وليس ما ذكرتُهُ مبالغةً في الوصفِ، ولا تقوُّلاً في الادِّعاءِ، وإنَّما هي الحقائقُ المؤيَّدةُ بالوقائع، والمعَالمُ الثَّابتةُ بالحُجَج على صفحاتِ هذا الوجود ـ منظورةً كانت أم مقروءةً ـ لا يُنكِرُها إلاَّ كافرٌ جَاحدٌ، أو مُعَاندٌ مُكَابرٌ، أو فاسقٌ فاجرٌ، أو ظالمٌ جائرٌ!!! . . .

والله تعالى بعثَ رسولَهُ محمَّداً ﷺ هدىً ورحمةً للعَالمين، فإنَّه سبحانه كما أرسلَهُ بالعلم والهُدَى والبراهين العقليةِ والسّمعيّةِ، فإنَّه تعالى أرسلَهُ بالإحسانِ والرَّحمةِ إلى النَّاس، بلا عِوَضٍ!! وبالصَّبرِ على أذاهم وبالحِلم على هُدَاهم؛ فبعثَهُ بالعلم والكرمِ والإحسانِ والحِلم، فكان ﷺ عليماً هَادياً، وكريماً محسناً، وحليَماً صفُوحاً، فهو يُعلِّمُ ويهدِي ويُرشدُ ويُصلحُ القلوبَ ويدلُّها على صلاحِها في الدُّنيا والآخرةِ بلاَ عِوَضٍ!! وهذا نعتُ الأنبياءِ والمرسلين!! . .

وكانتْ رسالتُهُ ضَرُوريَّةً للعبادِ لا بُدَّ لهم منها، وحاجتُهم إليها فوقَ حاجتِهم إلى كلِّ شيءٍ، والرسالةُ النَّبويةُ روحُ العَالَمِ ونورُهُ وحياتُهُ، فأيُّ صلاحٍ للعَالَمِ إذا عُدِمَ الروحَ والحياةَ والنُّور؟! . . .

ولقد كان رسولُ الله ﷺ الأمانَ الأكبرَ لهذه الأمة من كلِّ شقاءٍ أو هَوانٍ في الدنيا والآخرة! ظهرَ ذلك في سيرتهِ ﷺ ودعوتهِ وشريعتِه، وفي أمَّته من لدن أصحابه إلى وقتنا هذا وإلى يوم القيامة!! . .

وسيرةُ الرسول ﷺ من آياته!! وأخلاقُهُ وأقوالُهُ وأفعالُهُ وهديُهُ من آياتِه!! وأُمَّتُهُ من آياتهِ!! وعلمُ أُمَّته وعقيدتُها ودينُها من آياته!! وكراماتُ صالحِ أُمَّتهِ

من آياته!! وذلك يظهر بتدبُّر سيرته من حينَ ولادتهِ إلى حين بعثَهُ الله تعالى رسولاً، ومن حينَ بُعثَ إلى أن توفَّاهُ الله تعالى!! وكذا تدبُّرُ نسبهِ الشريفِ وأصلهِ الكريمِ وبلدهِ الأمينِ؛ فإنَّه كان من أشرف أهل الأرض نسباً وسلالةً وفرعاً!! إنّه من صميم سلالة «إبراهيم» عليه السلام!! الذي جعل الله تعالى في ذرِّيتهِ النُّبوَّة والكتاب؛ فلم يأتِ نبيٌّ من بعد إبراهيم أكرمَ على الله تعالى منه!! فكان خيرَ بني إسماعيل، ذكرَهُ الله تعالى في التَّوراة، وبشَّرَ به في الإنجيل!!..

وكان ﷺ من أكمل النَّاس تربيةً ونشأةً، ولم يزل معروفاً بالصِّدق والبرِّ والعدل، ومكارم الأخلاق، وكان مشهوداً له بذلك عند جميع من عرفه قبل النُّبوَّة، وممَّن آمن به أو ممَّن كفرَ بعد النُّبوَّة؛ لا يُعرف له شيءٌ يُعَابُ به، لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا في آدابه!! ولا جرتْ على لسانه كذبةٌ قط، ولا كان منه ظلمٌ قط، ولا سُوءٌ قط!! وكان خَلْقُهُ وصوتُهُ من أكملِ الصُّور وأتمِّها وأجمعِها للمحاسنِ الدَّالَّةِ على كمالِهِ!! وكان خلقُهُ من أكملِ الأخلاقِ وأجمعِهِ لمحاسنِ الفضائل وشريف الخصال!!.

وكان ﷺ أُمّياً من قوم أمِّيين، لا يُعْرَف هو ولا هم، ولم يعرفْ أهلَ الكتاب قبل البعثة ولا يعرفونَه، فلم يقرأ شيئاً عن علومهم ولا جالسهم، ولم يكن يَدْرِي ما النُّبوَّة ولا الكتاب؛ إلى أن بعثه الله تعالى نبيّاً، ثم بعثه رسولاً بعد أن أكملَ الله تعالى له أربعين سنة، فأتى برسالة من أعظم الأمورِ وأجلِّها، وبكلام لم يسمع الأوَّلون والآخِرون بنظيره، وأخبرَ قومَهُ وعشيرتَهُ بأمورٍ لم يعرفوا مثلها لا من قبله ولا من بعده، لا في بلده ولا في مصرٍ من أمصار البلاد ولا في عصر من الأعصار، ولم يأتِ أحدٌ بمثل ما أتى به، ولم يظهَرْ أحدٌ كظهوره، ولم يكن في الأرض دينٌ أكملَ من دينه، ولا عقيدةٌ أصحَّ من عقيدته، ولا شريعةٌ أطهرَ من شريعته ﷺ!!!.

ثم إنَّه اتَّبعَهُ أتباعُ الأنبياء، وهم ضعفاءُ النَّاس، وكذَّبه أهلُ الرياسةِ وعادَوْهُ، وسَعَوْا في هلاكِه وهلاكِ من اتَّبعَهُ بكلِّ طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم.

والذين اتَّبعوه لم يتَّبعُوه لرغبة أو لرهبة، فإنَّه لم يكن عنده مالٌ يُعطيهم،

ولا جهاتٌ يولِّيهم إيَّاها، ولا كان له سيف يحسم مَنْ عادَاهُ طيلةَ عهدِهِ في مكَّةَ، بل كان السيفُ والمالُ والجَاهُ مع أعدائِهِ.

وقد آذَوْا أتباعَهُ بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدُّون عن دينهم لِما خالطَ قلوبَهُمْ من حلاوةِ الإيمانِ والإسلامِ!!.

وكانت مكَّة يحجُّها العربُ من عهد إبراهيم عليه السلام، فتجتمعُ في الموسم قبائلُ العرب، فيخرجُ إليهم ﷺ يُبلِّغهم الرسالةَ، ويدعوهم إلى الله تعالى صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذِّبين، وجفاء الجافين، وإعراض المعرضين، وهو غيرُ مكترثٍ بآلام ذلك، إلى أن اجتمعَ برهطٍ من أهل يثرب، وكانوا جيران اليهود، وقد سمعوا أخبارَهُ منهم، وعرفوهُ بوصفهِ الذي في توراتِهم، فلمَّا دعاهم علمُوا أنَّه النَّبيُّ المنتظر، الذي تخبرهم عنه اليهودُ، فآمنُوا بهِ وتابعوهُ وطلبُوا منه أن يهاجر إليهم، لينصرُوهُ ويحملوا معه الدعوةَ إلى الله تعالى ومع الذين اتَّبعوه من المهاجرين، فهاجر إليهم بعد هجرة أصحابه إلى المدينة، فكانوا أنصاره، فجاهدوا معه ونصروهُ وبذلوا في سبيل ذلك دماءَهم وأبناءَهم وأموالَهُمْ، دونَ أن يكونَ لهم أيُّ رغبةٍ في غنيمةٍ أو غايةٍ دنيويَّةٍ، حتى ظهرتْ دعوتُهُ وعلتْ كلمتُهُ وسادتْ عقيدتُهُ وحكمتْ شريعتُهُ، فكانوا، هم والمهاجرون من بعدهِ، رُسُلَ رسالتهِ، فحملُوها وبلَّغُوها إلى النَّاس، وخاضُوا غمارَ الحربِ مع الروم والفرس إلى أن فتحوا البلادَ أمامَ دعوةِ التَّوحيد، فدخلتِ الشعوبُ والأممُ في دين الله أفواجاً أفواجاً حُبّاً في الإسلام وشوقاً إلى الإيمان، حتى ظهرتِ الدعوةُ في أصقاع الأرض التي كانت مملوءة من عبادةِ غير الله تعالى، من الطَّواغيتِ والكُهَّانِ والأوثانِ والصُّلبان، وطاعةِ المخلوق في الكفر بالخالق سبحانه، وسفكِ الدِّماء المحرَّمة، وقطيعة الأرحام، لا يخافُون الله تعالى ولا يرجُونَ ثوابَهُ، ولا يعرفون آخرةً ولا معاداً؛ فصارَ أصحابُهُ والتَّابعُون أعلمَ أهلِ الأرضِ وأدينَهُمْ وأعدلَهُمْ وأفضلَهُمْ، وكانَ النَّاسُ بهم من خيرِ الأمم شرقاً وغرباً، وتلك آثارُ علمِهم وعملِهم في البلادِ والعباد!!!.

وكان رسولُ الله ﷺ، في كلِّ وقتٍ من حياةِ رسالتهِ، يظهرُ على يديهِ من عظيم الآيات وعجائبِ المعجزاتِ ما يطولُ وصفُهُ، وكان يخبرهم بخبر ما كان

وما يكون، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكرِ، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ ويُحرِّمُ عليهم الخبائث، ويشرِّعُ الشريعةَ شيئاً بعدَ شيءٍ، حتى أكملَ الله تعالى دينَهُ الذي أوحَاهُ إليه وبعثَهُ بِهِ، فجاءتْ شريعتُهُ أكملَ شريعةٍ، لم يبقَ معروفٌ تعرف العقولُ أنَّه معروف إلاَّ أمرَ بِهِ، ولا منكرٌ تعرفُ العقولُ أنَّه منكرٌ إلاَّ نهى عنه، ولم يأمُرْ بشيءٍ فقيلَ له: ليتَهُ لم يأمْر بِهِ، ولا نهى عن شيءٍ فقيلَ: ليتَهُ لم يَنْهَ عنه، وأحلَّ الطَّيِّباتِ ولم يُحرِّم شيئاً منها كما حُرِّم في شرع غيره، وحرَّمَ الخبائثَ لم يُحِلَّ منها شيئاً كما استحله غيرُهُ، وجمعَ محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذكرُ في كتبهم من التَّوراةِ والزَّبورِ والإنجيلِ، نوعُ خيرٍ عن الله تعالى وملائكته ورسله وعن اليوم الآخر إلاّ وقد جاء به على أكملِ وجهٍ وأبْيَنِهِ وأفصحِهِ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب!! فليس في هذه الكتب إيجابٌ لعدلٍ، وقضاءٌ بفضلٍ، وندبٌ إلى الفضائل، وترغيبٌ في البرِّ، وتكثيرٌ في الحسناتِ؛ إلاَّ وقد جاءَ بِهِ وبما هو أحسنُ منه وأكملُ وأجمع!!!.

وإذا نظرَ اللَّبيبُ في العبادات التي شرعها بفرائضها وسننها وآدابها، وعباداتِ غيرهِ من الأمم، ظهرَ فضلُها ورجحانُها وسموُّها ومنافعُها، وكذلك في الأحكام والحدود وسائر الشرائع!!.

وأُمَّتُهُ ﷺ أكملُ الأمم في كلِّ فضيلةٍ، وأعدلُهم في كلِّ قضيةٍ، فإذا قيسَ علمهم بعلم سائر الأمم ظهرَ فضلُ علمهم، وإن قيسَ دينُهم وعبادتُهم وطاعتُهم للّهِ بغيرِهم، ظهرَ أنَّهم أدْيَنُ من غيرِهم وأتقَى وأخشَى لله سبحانه وتعالى!!.

وإذا قيسَ جهادُهم في سبيل الله تعالى وشجاعتُهم فيه، وصبرُهم على المكارهِ في ذاتِ الله تعالى، ظهرَ أنَّهم أعظمُ جهاداً وأشجعُ قلوباً وأقوى عزيمةً!! وإذا قيسَ سخاؤهم وبذلُهم وسماحةُ أنفسِهم بغيرهم من الأمم؛ تبيَّن أنَّهم أسخى عطاءً، وأكرمُ بَذْلاً، وأجودُ إنفاقاً من غيرهم!!.

وهذه الفضائلُ به ﷺ نالُوها، ومنه ﷺ تعلَّمُوها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا من قبلهِ متَّصفين بها ولا متخلِّقين بها، فهو ﷺ منبعُ كلِّ فضيلةٍ وأصلُ كلِّ حميدةٍ!!!.

وأُمّتُه ﷺ لا يستحلُّون أن يأخذوا شيئاً من الدِّين من غيرِ ما جاءَ بهِ ﷺ، ولا يبتدعُون بدعةً ما أنزلَ الله بها من سلطان، ولا يُشرِّعونَ من الدِّين ما لم يأذن بهِ الله، فدينُها الاتباعُ والاقتداءُ بكتاب الله تعالى وبسنَّة رسوله ﷺ!! وهذا ما كان عليه الأئمةُ المتَّبَعُون.

ومَنِ ابتدعَ أو غيَّرَ في دين الله تعالى شيئاً فقد ضلَّ وألحدَ، وكانَ من الضَّالِّين؛ لا يُتَّبَعُ ولا يُقتدَى به، وهو خارجٌ عن أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وكان عندَهُمْ مذمُوماً مدحُوراً، ومن أدخلَ في علومِهم من أقوالِ متفلسفةِ الهندِ والفرسِ أو اليونانِ أو غيرِهم، كان عندهم مبتدعاً ملحداً.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ هم أتباعُ سُننِهِ والمتمسِّكُون بطريقتهِ ﷺ، وعلى رأسِهم في مقدِّمتِهم أهلُ الحديثِ والأثرِ، وهم المقدَّمُون لِما يحملون من علوم النُّبوَّةِ وهدي الرِّسالة، وهم الظَّاهرون المنصورون إلى قيامِ السَّاعةِ الذينَ قالَ فيهم رسولُ الله ﷺ: (لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم مَنْ خالَفَهم ولا مَنْ خذَلَهم حتى تقومَ السَّاعةُ). وقد تنازعَ بعضُ المسلمين مع اتفاقِهم على هذا الأصل الذي هو دينُ الله تعالى «القرآن والسّنّة»، فمَنْ وَافقَهُمَا قُبِلَ، ومَنْ خالفهما أو خالفَ أحدَهما رُدَّ ورُفض.

والله تباركَ وتعالى أرسلَ رسولَهُ بالعلمِ النَّافعِ والعملِ الصَّالحِ، فمن اتَّبعَهُ هُدِيَ إلى الصِّراط المستقيم، وحصلَ على سعادة الدنيا والآخرة. ومَنْ خالف سنَّتَهُ أو أطاعَ غيرَهُ فقد قصَّرَ في اتِّباعه ﷺ علماً وعملاً، فكلُّ حقٍّ في العقيدةِ والشَّريعة، وكلُّ صلاحٍ في القولِ والعمل، قد أكمله الله تعالى على لسانِ رسول ﷺ كتاباً وسنَّةً، ولهذا كان أهل السُّنَّة والجماعة أكمل الأمم في جميع الفضائلِ العلميَّةِ والعمليَّة!!.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ كمالٍ في الفَرْع المُتَعَلِّم، فهو من الأصلِ المُعَلِّم، وهذا يقتضي أنه ﷺ كان أكمل الخلق علماً وديناً وعملاً وأخلاقاً، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنَّه ﷺ كان صادقاً في قوله: (يا أيُّها النَّاس إنِّي رسولُ الله إليكُمْ جميعاً) فلم يكن كاذباً مفترياً، بل كان صادقاً أميناً؛ فإنَّ هذا القولَ لا يصدرُ عن أيِّ أحدٍ من الخلق، إلاَّ ممَّن اصطفاه الله تعالى واختاره لرسالته،

وأيَّده بآياته وحججه ومعجزاته، ومَنِ ادَّعى هذا القول كذباً وافتراءً على الله تعالى أقامَ الله سبحانه من البراهين ما يعرفُ النَّاسُ بها كَذِبَهُ وافتراءَهُ عليه سبحانه.

وكلُّ ما نُقِلَ عن رسول الله ﷺ من كمالِ علمه ودينهِ، يُناقضُ الباطلَ والشَّرَّ والخبثَ والجهل؛ فتعيَّنَ أنَّه ﷺ متَّصف بغايةِ الصِّدقِ والأمانة، وبغايةِ الكمالِ في العلمِ والدِّين، وهذا يستلزم أنَّه كان صادقاً مصدَّقاً في قوله: (إنِّي رسولُ الله)!!!.

والرَّسُولُ ﷺ بريءٌ من وساوسِ الشيطان في العمد والخطأ، بخلاف غيرِ الرسول، فإنَّه يُخطىء ويكون خطأُهُ من الشيطان، واللَّهُ تعالى قد عَصَمَ رَسولَهُ ﷺ من كلِّ سُوءٍ ومن كلِّ ضلالٍ، وقد غفر الله له ما تقدَّمَ من ذنبهِ، وما تأخَّر، ولن يحقَّ لأحدٍ، كائناً مَنْ كان، أن يبحثَ فيما عاتَبَ اللهُ تعالى رسولَهُ الكريم ﷺ، أو أن ينسبَ إليه الخطأ، أو أن يُخطِّئه؛ فإنَّه رسولُ الله ﷺ، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى ما بينَ المُرْسِلِ والمُرْسَلِ، وليسَ الرسولُ كآحادِ المرسَلِ إليهم، فكلُّ أحدٍ سوى رسول الله ﷺ يُؤخذ منه ويُرَدُّ عليه إلَّا هو ﷺ فإنَّه يُؤخَذُ منه كلُّ ما جاءَ به ولا يُرَدُّ عليه شيءٌ ممَّا جاءَ به؛ فكيف يُخطَّأ؟!..

إنَّ المتكلِّمين الذين بحثوا عن جواز وُقُوعِ الخطأ أو حصولِ الذَّنبِ من رسولِ الله ﷺ، قد وقعُوا في بدعةٍ كبيرةٍ جرَّت إلى عقولِ أهلِ الأهواء والبدع الظُّنونَ والشكوكَ في أقوالِ رسولِ الله وأفعالهِ ﷺ. ولم يُعهدْ عن الصَّحابة الذين عايشُوا رسولَ الله ﷺ أن تكلَّموا في هذا الجانب الخطير المزالق، فيجبُ على جميعِ المسلمين أن يقفوا حيثُ وقفَ الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، وألَّا ينجرُّوا إلى مَهالِكِ علمِ الكلامِ ومنطقِ اللِّسانِ، فإنَّه ليس وراءَهما سوى الظُّنونِ والأوهام.

ومِنَ الأدبِ الواجبِ مع رسولِ الله ﷺ أنَّه لا يُسْتَشْكَلُ قولُهُ، ولا تُخَطَّأُ أفعالُهُ، بل تُسْتَشْكَلُ الآراءُ بقولِه، وتُخَطَّأُ الأفعالُ بمخالفتهِ، فلا يُعَارَضُ قولُهُ أو فعلُهُ بقياسٍ، بل تُهدَرُ الأقيسَةُ وتُلْقَى لأقوالِهِ وأفعالِهِ، ولا يُحرَّفُ كلامُهُ عن حقيقتهِ لخيالٍ مخالفٍ، يسميهِ أصحابُهُ معقولاً، نعم! هو مجهولٌ وعن الصّواب معزول، ولا يتوقفُ قبولُ ما جاءَ به ﷺ على موافقةِ

عُقُولِ البشر[1] وآرائهم، فكلُّ رفضٍ أو اعتراضٍ على ما جاءَ بِهِ رسولُ الله ﷺ هو من النِّفاقِ والكفرِ، وكلُّ تحكيمٍ للعقل فيما «قالَ الله، وقالَ رسولُ الله» هو قلَّةُ أدبٍ معه ﷺ، وهو عينُ الجُرْأَةِ عليه ﷺ، وهذا ما يجب أن يفهمه المقلِّدون، وأن يتعظ به الجامدون على القيلِ والقالِ واستحسانِ آراءِ الرِّجالِ.

ورأسُ الأدبِ الواجبِ مع رسولِ الله ﷺ، كمالُ التَّسليم له والانقيادُ لأمرِهِ، وتلقِّي سُنَّتِهِ بالقبول والتَّصديق، دون وضع ميزان عقلي أو منطقي لقبولها، ودون أن يحمِلَهُ مُعَارضةُ خيالٍ باطلٍ لقياسِهِ على قولِ البشرِ، ورأسُ الدِّين أن يُقدِّمَ المسلمُ ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ على جميع آراء الرِّجال؛ فيُوحِّد التَّحكيمَ والتّسليمَ والانقياد للرسولِ ﷺ، كما وَحَّدَ المُرْسِلَ بالعبادةِ والطَّاعةِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أطاعَ الله﴾ [سورة النساء، آية ٨٠]، وقالَ سبحانه: ﴿قُلْ أَطيعُوا الله والرَّسُولَ﴾ [سورة آل عمران، آية ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿أطيعُوا الله ورسولَهُ ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعُون﴾ [سورة الأنفال، آية ٢٠]، والقرآنُ العظيمُ مملوءٌ بالآياتِ المرشدةِ إلى وجوبِ الأدبِ معه ﷺ، ووجوبِ تقديم ما جاءَ بِهِ من القرآنِ والسُّنَّةِ على العقول، وجعلِ العقولِ من ورائهما. وكَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواهِ الرجالِ أو من أنصافِ العُقَلاءِ في إيجابِ العقلِ والمنطقِ ميزاناً لـ «ما قالَ الله وما قالَ رسولُ الله»، إذْ هذه الكلمةُ الجائرةُ وليدةُ الاغترارِ والإغراقِ بالمنهج العقلي

---

(١) زعم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر» لطلبة السنة الثالثة من كلية الشريعة ص ٩٣: «أنّ الإسلام يأبَى على العقلاء إلاّ أن يزنوا حتى «قال الله وقال رسولُ الله» ذاتها، في ميزان آخرَ أسبق منه، لا شأن له بأيّ نحلةٍ «أو مذهب» ثم يزعم «أن هذا الميزان [ميزان العقل والمنطق] هو معتمد الإسلام، وأنّه يأبَى على النَّاس أن ينساقوا حتى لاتّباع عقائد الإسلام ذاتها، إلا بعد أن توضع في هذا الميزان وتنال حكمه لها بالقبول والتأييد» فهذا الزعم العقلي عند البوطي من مولّدات علم المنطق والكلام، ولا أساس له من الصّحة ولا برهان له من الواقع، فإن الميزان العدل في الإسلام دائماً وأبداً هو في «ما قال الله تعالى وما قال رسول الله ﷺ» وليس هو المنهج العقلي الكلامي المنطقي المولّد من المنهج الفلسفي اليوناني؛ لأن كلام الله تعالى معصوم عن الخطأ، وكلام رسول الله معصوم عن الهوى، والعقلُ متهمٌ بالخطأ وموسوم بالهوى، ولاعاصمَ له من الخطأ إلاّ الاهتداء بما قال الله تعالى وبما قال رسول الله ﷺ، فهما الميزان في الإسلام لوزن كلِّ قولٍ وكلِّ كلام!...

الفلسفي المنطقي الذي أفقد أصحابَهُ الانتصارَ بالقرآنِ الكريم وبالسُّنَّةِ المطهرة، وحوَّلَ قضايا الاعتقادِ إلى مُجادلاتٍ كلاميّة ومُناظرات منطقيَّة وطُروحاتٍ فلسفيَّةٍ، في الكلام في ذات الله تعالى وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وفي الكلام في النُّبوَّةِ والرِّسالةِ ودلائلهما، وفي العصمة وغير ذلك من مسائل العقيدة والإيمان.

وليعلمْ كلُّ مسلم أنَّ أحاديثَ رسولِ الله ﷺ هي السبيلُ الواضحُ والقائدُ النَّاصحُ والبرهانُ اللائحُ، والعلمُ النَّافعُ، والدَّليلُ السَّاطعُ، والنُّورُ اللامعُ، فهي المفزَعُ عندَ الخصامِ، والقدوةُ لجميع الأنام!!!.

وأحاديثُ الرسولِ ﷺ كلامُهُ الشريفُ ومنطقُهُ المُنيفُ؛ فإنْ قلَّتْ حروفُهُ فقد كَثُرَتْ معانيه، فلم ينطقْ عن هوىٰ ﴿إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحَى﴾، ولم يتكلَّمْ إلاَّ عن حكمةٍ، ولم ينطقْ إلاَّ عن عصمةٍ، وقد شيَّدَ الله تعالى كلامَهُ بالتَّأييد، ويسَّرَهُ بالتَّوفيق، فكان الكلامَ الذي ألقَى الله تعالى عليه المحبَّةَ، وغشَّاهُ بالقبولِ، وجمعَ له فيه بينَ المهابَةِ والحَلاوَةِ، وبينَ حُسْنِ الإفهام وقلَّةِ عدد الكلام، فأعطَاهُ جوامعَهُ ومحاسنَهُ وفضائلَهُ، لم تسقطْ له كلمةٌ، ولا زلَّت بهِ قدمٌ، ولا بارتْ له حُجَّةٌ!! ولم يَقُمْ له خصمٌ في جدالٍ، ولا أفحمه خطيبٌ في كلام!! ولم يسمعِ النَّاسُ بعدَ كلام الله تعالى بكلام قط أعمَّ نفعاً ولا أقصدَ لفظاً ولا أعدلَ وزناً ولا أجملَ مذهباً ولا أكرمَ مطلَباً ولا أحسنَ موقعاً ولا أسهلَ مخرجاً ولا أفصحَ معنىً ولا أبينَ فحوىً من كلامِ رسولِ الله ﷺ!!!.

وأقوالُ رسول الله ﷺ كلَّما زدتَّها فكراً زادَتْكَ معنىً!! ولقد اتَّصفتْ أحاديثُهُ الشريفةُ بصفاتٍ لا تجتمعُ في كلامِ بشرٍ سواه، ومن هذه الصِّفات: الغِنَى في المعاني! والعمقُ في المقاصدِ! والجِدَّةُ والإحكامُ في الجُمَلِ والعبارات! والغوصُ في الفكرِ والإمعان! فهذه الأحاديثُ النَّبويَّةُ ـ المنقولة من مصادرها الصحيحة ـ لا تبلَى معانيها، ولا تَخْلَقُ مبانيها، ولا تُمَلُّ عند السَّماع والتكرار، وكلَّما أُعيدتْ وُجِدَتْ جديدةً، كأنَّها النَّهارُ في تجدُّدِهِ والفجرُ في ضيائه، فهي للحياة، مهما امتدتْ وتطاولتْ، نورٌ وضياءٌ وهدىً وبركةٌ وخيرٌ وتوجيهٌ وعطاءٌ!!.

وممَّا كان من أعلام نبوَّته ومعالم رسالته شهادةُ «هرقل عظيم الروم» للنبي ﷺ بالصَّدقِ والحقِّ، وذلك فيما يرويه أبو سفيان بن حرب عظيم قريش

في الجاهلية، كما في الصحيحين: «عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدَّثني أبو سفيان بن حرب من فِيهِ إلى فِيَّ، قالَ: انطلقتُ في المُدَّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ هدنة، قال: فبينا أنا بالشَّام إذْ جيء بكتابٍ من رسول الله ﷺ إلى هرقل، قالَ: وكان دحيةُ الكلبي جاءَ به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل. قالَ هرقل: هل هنا أحدٌ من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنَّه نبيٌّ؟ قالوا: نعم. قال: فدُعيتُ في نفرٍ من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بينَ يديه. قالَ: أيُّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنَّه نبي؟ قال أبو سفيان: قلتُ أنا، فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي، فدَعَا بترجمانه... ثم قال لترجمانه: سَلْهُ... [فسأله عن نسبه، وعن آبائه، وعن صدقه، وعن أتباعه وهل يزيدون أم ينقصون؟ وهل يرتدون عن دينه أم لا يرتدون، وعن قتالهم له وقتاله لهم، وهل يغدر أم لا؟ وهل قال بهذا القول أحدٌ قبله؟] ثم قال لترجمانه بعد أن أجابه عن كل ذلك:

قلْ له ـ أي لأبي سفيان ـ إنِّي سألتُكَ عن حسبهِ، فزعمتَ أنَّه فيكم ذو حسبٍ، وكذا الرسلُ تُبعثُ في أحساب قومها، وسألتُكَ هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ فزعمتَ أنْ لا، فقلتُ: لو كان من آبائه مَلِكٌ قلتُ رجلٌ يطلب مُلْكَ أبيه. وسألتُكَ عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ قلتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتُكَ هل كنتُم تتهمُونَهُ بالكذب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فزعمتَ أنْ لا، فقد عرفتُ أنَّه لم يكن ليدعَ الكذب على النَّاس، ثم يكذب على الله. وسألتُكَ هل يرتدُّ أحدٌ منهم ـ من أتباعه ـ عن دينه بعد أن يدخلَ فيه سُخْطَةً له؟ فزعمتَ أنْ لا، فكذلك الإيمانُ إذا خالطتْ بشَاشَتُهُ القلوبَ، وسألتُكَ هل يزيدون أم ينقصُون؟ فزعمتَ أنَّهم يزيدون، وكذلك الإيمانُ حتى يتمَّ، وسألتُكَ هل قاتلتموه؟ فزعمتَ أنَّكم قاتلتموه، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينالُ منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبْتَلَىٰ، ثم تكون لها العاقبة. وسألتُكَ هل يغدر؟ فزعمتَ أنَّه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتُك هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمتَ أنْ لا، فقلتُ: لو قال هذا القولَ أحد قبله قلتُ: رجلٌ ائْتَمَّ بقولٍ قيلَ قبله. ثم سألتُكَ: بِمَ يأمركم؟ قلتَ يأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّلة والعفاف، قال: إنْ يكن ما تقولُ فيه حقّاً؛ إنَّه لنبيٌّ!!؟ وقد كنتُ أعلمُ أنَّه خارجٌ، ولم أكن أظنُّه منكم، ولو أعلمُ أنِّي أخلصُ إليه

لتجشَّمْتُ لقاءَهُ، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميهِ، وليبلغنَّ ملكهُ ما تحتَ قدميَّ»!!..

فهذه النَّتيجةُ التي توصَّلَ إليها «هرقلُ» بعدَ استقرائه أحوالَ رسولِ الله ﷺ واستسفارهِ عن أهمِّ جوانبِ حياتهِ وعمَّا يُحيطُهُ من أمورِ الدعوةِ وقضايا الرسالةِ؛ لَمِنْ أصدقِ النتائجِ وأصحِّها، لأنَّها بُنِيتْ على اسقراءٍ صريحٍ واستنباطٍ صحيحٍ!!. وذلك يدلُّ دَلالَةً بيِّنةً واضحةً على صدقِ نبوَّتهِ ﷺ وعلى صحَّةِ رسالتهِ ﷺ، ممّا يزيدُ الحقَّ وضوحاً وتأييداً وتصديقاً!!.

وبعد: إنّ فصولَ هذا الكتابِ وأبحاثَهُ كانتْ مقدِّماتٍ علمية تمهيدية لأبحاثِ كتابِ «أعلام النُّبوَّة» للإمام الماوردي رحمه الله تعالى، الذي تولَّتْ دارُ النفائس نشره، حيث رأى صاحبُ الدَّار الأستاذ «أحمد راتب عرموش» حفظه الله تعالى ورعَاهُ وأمدَّهُ بالصِّحةِ والعافيةِ والبركةِ في العُمر والتَّوفيقِ بالعمل، أن تُطبعَ هذه المقدَّماتُ العلميةُ الهامَّةُ في أبحاثِ النُّبوَّةِ والرسالةِ ودلائلِهما في كتابٍ خاصٍّ، فأجبتُه إلى طلبهِ، ورأيتُ حُسْنَ مقصدهِ، فاخترتُ له هذا العنوانَ الصَّادقَ: «معَالم النُّبوَّة في الكتاب والسُّنَّة» تحقيقاً للمقصودِ، وبلوغاً للمحمودِ، فيما عندَ الله تعالى من الفضلِ العظيم والإكرام الجزيلِ، لِمَنْ ينصرُ دينَهُ ويُصدِّقُ رسولَهُ ﷺ ويُؤيِّدُ رسالتَه وينشرُ دعوتَهُ على منهجِ السَّلفِ الصَّالحِ عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً وآداباً، وآخرُ دعوانَا أنِ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين.

دمشق/ عام ١٤١١هـ.

خالد عبد الرحمٰن العك

غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين



خطة أبحاث الكتاب

الفصل الأول : منهج القرآن في إثبات النُّبوَّة والرسالة.

الفصل الثاني : منهج القرآن في توثيق أخبار الأنبياء والرسل.

الفصل الثالث : النُّبوَّة والرسالة ودلائلهما والفرق بينهما.

الفصل الرابع : رسالة النَّبيِّ ﷺ تضمنت أصول الدِّين.

الفصل الخامس : المعجزات ودلالات النُّبوَّة والرسالة.

الفصل السّادس : طريقة المتكلمين في إثبات النُّبوَّة ونظرة الفلاسفة إليها.

الفصل السّابع : طرق إثبات أحاديث النُّبوَّة وأخبارها.

الفصل الأول

منهج القرآن في إثبات النُّبوَّة والرسالة

وهو يشمل سبعة أبحاث:

المدخل

القرآن الكريم مصدر العقيدة والدّين

إن أصول الدين، الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ، قد بيَّنها الله في القرآنِ أحسنَ بيان، وبيَّن دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الربّ وصفاتهِ وبيَّن دلائل نبوَّة أنبيائهِ، وبيَّن المعادَ بينَ إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، وبيَّن وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمن بيان العلم النافع، والعلم الصالح الهدى، ودين الحق. وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول، وإمكان المعاد أو وقوعه، وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع وكل ما خالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً، فإن الذي بعث الله به محمداً وغيره من الأنبياء هو حق وصدق، وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل. والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خزنتُهَا أَلَمْ يأتِكُمْ نذيرٌ * قالُوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبْنَا وقُلْنَا ما نَزَّلَ الله من شيءٍ إنْ أنتم إلاَّ في ضلالٍ كبيرٍ * وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أو نَعْقِلُ ما كُنّا في أصحابِ السَّعِير * فاعْتَرَفُوا بذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأصحابِ السعير﴾[1].

وقال تعالى لمكذبي الرسل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب

---

(١) سورة الملك، الآيات: ٨ ـ ١١.

يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1]. ذكر ذلك بعد قوله: ﴿وإن يُكذِّبُوكَ فقد كَذَّبَتْ قبلهمْ قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ * وقومُ إبراهيم وقومُ لوطٍ * وأصحابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ موسى فأمليتُ للكافرين، ثم أخذتهُم فكيف كان نكير * فكأيِّنْ من قريةٍ أهلكناهَا وهي ظالمةٌ فهي خاوية على عروشها وبئرٍ معطَّلةٍ وقصرٍ مَشِيْدٍ[2]﴾[3]. ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يسيرُوا في الأرض﴾ الآية. ثم قال: ﴿وكأين من قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمة، ثم أخذتها وإليَّ المصير﴾[4]. فذكر إهلاك من أهلك وأملاه لمن أملى لئلا يفتر المفتر فيقول نحن لم يهلكنا وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل، وهو حق في نفسه كالحكم الذي يحكم به، فإنَّه يحكم بالعدل وهو الشرع، فالعدل هو الشرع، والشرع هو العدل، ولهذا يأمر نبيه أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله، والذي أنزل الله هو القسط، والقسط هو الذي أنزل الله، وكذلك الحق والصدق وهو ما أخبرتْ به الرسل، وما أخبرتْ به فهو الحق والصدق، والسلف والأئمة ذمُّوا أهل الكلام المبتدعين الذين خالفوا الكتاب والسنة، ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه إلا باطلاً، فالكلام الذي ذمه السلف يُذَمُّ لأنه باطل، ولأنه يخالف الشرع.

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

(٢) بئر معطلة: أي تعطلت الآبار وهي وسائل الأنتاج ومن أسباب الحياة. وقصر مشيد: أي إنهم اهتموا بالترف والقصور المشيدة مما ساعد على هلاكهم.

(٣) سورة الحج، الآيات ٤٢ ـ ٤٥.

(٤) سورة الحج، الآية ٤٨.

التمهيد

حاجة البشرية إلى رسالة الله تعالى إليهم

اقتضت حكمة الله تعالى، ورحمته بعباده، أن يختار بمحض فضله وكرمه من يصطفيهم من خلقه، ممن ميَّزهم بخصائص لا يشركهم فيها غيرهم، رسلاً في كل أمة، ليبينوا للناس طرق الخير وسبل السعادة، في الدارين فيدعونهم إلى عبادة الله وحده، ويحذرونهم من عبادة غيره، ويأمرونهم بمكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، وينهونهم عن قبيحها: وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمَّة رسولاً أنِ اعبدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغوتَ﴾[1]، وبقوله: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[2]. ولكن القرآن الكريم لم يذكر لنا أسماء جميع الأنبياء والمرسلين، فالأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ليسوا كل أنبياء الله ورسله، وإنما هم بعض هؤلاء الرسل بدليل قوله تعالى: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليماً﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قَصَصْنَا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[4].

وإذا كان الإنسان، بحكم وجوده في هذه الحياة، مسؤولاً عن جميع تصرُّفاته وأعماله، فلا بدَّ له إذاً من إرشادٍ وتعليمٍ من الله تعالى، يحقِّق له

---

(١) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية ١٦٤.

(٤) سورة غافر، الآية ٧٨.

السلامة والاستقامة، ويوصله إلى السعادة والطمأنينة في الحياة، لا سيما في الأمور التي لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بنفسه. وكان من نعم الله على هذا الإنسان أن منحه العقل وجعل له قوة يدرك بها بعض حقائق العالم الحسي، ويميز بها بين الضَّارِّ والنافع، إلا أن الإنسان لا يستطيع عن طريقه إدراك حقائق العالم الغيبي، وما وراء هذا العالم المحسوس، لأنه من طبيعة مختلفة عن طبيعة العالم الحسي - ثم هو مع ذلك مسؤول عن أمور يحس بوجودها، ويلزمه اعتقادها والإيمان بها، ولكن لا سبيل إلى الوصول إلى معرفة شيء عنها بنفسه، وذلك مثل الإيمان بالجنة والنار وما فيها من ثواب وعذاب. ومن هنا كانت الحاجة إلى النبوة والرسالة، كي يبين له الرسول عن طريق الوحي الإلهي، ما يحتاج إليه من أمور يجهلها ويجب عليه اعتقادها، ولا يمكن الوصول إليها بعقله، لقصور العقل الإنساني، عن إدراكها، فكان لا بد له من معلِّم يعلمه، ومرشد يدلُّه، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

مهمة الرسل: إن من أهم أهداف الرسل أن يحرروا البشرية من عبادة العباد وتأليه الأحجار، والأشجار، والكواكب، وأن يوصلوها إلى عبادة الله وتوحيده، وبيان أسمائه وصفاته.

لقد بين القرآن الحكمة في إرسال الرسل في قول الحق سبحانه: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1].

فمنذ أهبط آدم وحواء إلى الأرض، وكانت لهما الذرية التي تكوَّن منها أول مجتمع على ظهر الأرض، وضح لهم أن الوحي السماوي ضرورة لهداية سكان هذا الكوكب، كما قال سبحانه: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدىً فمن تَبِعَ هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

وقد بدأ هذا الوحي منذ وجود هذا الجنس على ظهر الأرض، فكان آدم عليه السلام أول نبي تلقى الوحي وعلمه لأولاده: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات

(١) سورة النساء، الآية ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٨.

فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[1]، ﴿ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى﴾[2] والاجتباء هو الاصطفاء والاختيار.

وكذلك إدريس عليه السلام كان نبياً بعد آدم، ولكن القرآن لم يذكر له دعوة ولا قضية مع قومه، وإنما وصفه بالنبوة والصدِّيقية ورفعة المكانة: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً﴾[3].

ثم كان نوح أول رسول له دعوة وقضية مع قومه، وفي حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً عليه السلام فيقولون له: (يا نوح أنت أول الرسل)[4].

وعدد الأنبياء والرسل الذين ذُكِروا في القرآن خمسة وعشرون نبياً، منهم ثمانية عشر نبياً ورسولاً ذكروا في أربع آيات متعاقبات من سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتينَاهَا إبراهيمَ على قومِهِ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشَاءُ إنّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ * ووَهَبْنَا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ كُلاً هَدَيْنَا ونُوْحاً هدينَا مِنْ قبلُ ومن ذريتِهِ داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وكذلكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ كلٌّ من الصّالحين * وإسماعيلَ والْيَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكُلاًّ فَضَّلْنَا على العَالَمِيْنَ﴾[5].

وسبعة ذكروا في مواطن متفرقة من القرآن وهم: آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ما كانَ محمدٌ أبَا أحدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولكنْ رَسُولَ الله وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وكانَ الله بكلِّ شيءٍ عليماً﴾[6].

ولا نستطيع هنا أن نعرض ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والمرسلين، فهذا موضوع قد ألفت فيه الكتب قديماً وحديثاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٧.
(٢) سورة طه، الآية ١٢٢.
(٣) سورة مريم، الآيتان ٥٦ ـ ٥٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٥) سورة الأنعام، الآيات ٨٣ ـ ٨٦.
(٦) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

المبحث الأول

تعريف النُّبوَّة والرسالة والفرق بينهما

تعريف النبي والرسول، والفرق بينهما:

أولاً: التّعريف بالنّبيّ لغة:

المنبىء، أي المخبر، واشتقاقه إما من النبأ بمعنى الخبر، وإما من النبوة، أو النباوة بمعنى الشيء المرتفع، ومنه قيل: نبا بفلان مكانه، أي أنه ذو شرف على سائر الخلق، والنبي موصوف بذلك لرفعة محله على سائر الناس في عصره.

وفي **الاصطلاح**:

هو الذي ينبئه الله بأن يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى كفار خالفوا أمر الله ليبلغهم رسالة من الله إليهم، وقد يوحى إليه وحي خاص في قصة معينة، فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين بهم[1].

والرسول **لغة**:

هو الذي يتابع أخبار من بعثه، أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلاً، أي متتابعة. وسُمِّي الرسول رسولاً لأنه ذو رسالة، والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة. وأرسلت فلاناً في رسالة، فهو مرسل، ورسول[2].

---

(١) النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٧٢ ـ ١٧٣، ط الرياض. مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٤٦هـ.

(٢) ابن منظور، لسان العرب ج ١ ص ١١٦٦، طبعة دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

وفي **الاصطلاح**:

هو الذي ينبئه الله ثم يأمره بأن يبلِّغ رسالته من خالف أمره، كنوح، فقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء، كشيت وإدريس[1].

ثانياً: الفرق بين النبي والرسول:

هذا الموضوع مما اختلفت فيه وجهات نظر العلماء، وذلك الاختلاف ناتج عن فهم كل منهم للنصوص الواردة في هذا الباب، وقد تمخَّض عن هذا الخلاف رأيان:

الأول: رأي القائلين بالفرق بينهما، وأنه ليس كل نبي رسولاً، وقد أيدوا وجهة نظرهم هذه بأدلة من الكتاب والسنة، مع اختلاف بينهم في تحديد معنى كل من النبي والرسول.

الثاني: رأي القائلين بعدم الفرق بينهما، بل يرون أنه لا يصح إثبات نبي ليس بمرسل، ولهم أدلتهم التي يؤيدون بها وجهة نظرهم، من الكتاب العزيز أيضاً. ونحن هنا سنعرض أدلة الفريقين ووجهة كل منهما، ثم نعقب ذلك بمسلك القرآن لنرى موقفه من ذلك.

استدل القائلون بالفرق بين النبي والرسول من الكتاب بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾[2].

قالوا: فقد عطف النبي على الرسول، والقاعدة، أن العطف يقتضي المغايرة، فدل على أن النبي غير الرسول، يقول الكلبي في تفسير الآية:

«النبي أعم من الرسول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. فقدَّم الرسول لمناسبته لقوله أرسلنا، وأخر النبي لتحصيل العموم، لأنه لو اقتصر على رسول لم يدخل في ذلك من كان نبياً غير رسول»[3].

---

(١) النبوات لابن تيمية ١٧٢ ـ١٧٣. (٢) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٣) الشيخ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ج ٣ ص ٤٤، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥هـ.

ويقول الألوسي في تفسير الآية أيضاً: «هذا دليل بيِّن على تغاير الرسول والنبي. والرسول إنسان أرسله الله إلى الخلق لتبليغ رسالته وتبيين ما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدارين، وقد يشترط فيه الكتاب، بخلاف النبي فإنه أعم، ويعضده ما روي أنه عليه السلام، سئل عن الأنبياء فقال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً) قيل فكم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً)[١].

واستدلوا بأنهما جاءا وصفين لشخص واحد، كما في قوله تعالى في وصف موسى عليه السلام: ﴿إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾[٢]، وفي وصف إسماعيل عليه السلام: ﴿إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾[٣]، فذكر الوصفين معاً في مكان واحد يدل على التغاير.

واستدلوا من السنة: بحديث أبي ذر الغفاري قال: قلتُ يا رسول الله! أيّ الأنبياءِ كان أول؟ قال: (آدم. قلتُ: يا رسول الله ونَبِيٌّ كان؟ قال: نعم، نبيٌّ مُكَلَّمٌ. قلتُ: يا رسول الله! كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً؛ وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت: يا رسول الله! كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً)[٤]. فالحديث يدل على أن النبي غير الرسول، إذ لو كان معناهما واحداً لتساوى عدد الأنبياء والرسل.

ويقول أبو منصور عبد القاهر البغدادي في كتابه أصول الدين: «أجمع أصحاب التواريخ من المسلمين على أن عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف

---

(١) الألوسي، روح المعاني جـ ٦ ص ٤٨، ٤٩/، وهو حديث صحيح كما سيأتي تخريجه فيما بعدُ.

(٢) سورة مريم، الآية ٥١.

(٣) سورة مريم، الآية ٥٤.

(٤) قال في شرح المسايرة ص ٢٢٦: ومدار الحديث على علي بن يزيد وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط والبزار بإسناد فيه المسعودي، وهو ثقة لكنه اختلط. قلت: والحديث في مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١١٢ رقم الحديث ٥٧٣٧، رواه أحمد، قال المحقق لأحاديث المشكاة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: إن الحديث صحيح.

وأربعة وعشرون ألفاً، كما وردت به الأخبار الصحيحة، أولهم أبونا آدم عليه السلام وآخرهم نبينا محمد ﷺ، وأجمعوا على أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر»[1].

هذه أدلة القائلين بالفرق بين النبي والرسول.

مُسَاوَاة القرآن بين النُّبُوَّة والرِّسَالة:

الوحي: يقول تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾[2].

وفي الرسالة يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾[3].

وهكذا نرى من خلال عرض هذه الآيات، أن القرآن الكريم لا يفرق في خطابه بين النبي والرسول، لا في الوحي إليهم، ولا فيما تعرَّض له كل منهم من اضطهاد وتكذيب، كما أنه يذكرهم في التفضيل تارة بوصف النبوة، وأخرى بوصف الرسالة، وينص على أن كلاً منهم قد أرسل. فظاهر القرآن لا يساعد القائلين بالفرق بين النبي والرسول، بل دلالته على عدم الفرق أظهر، ويبقى على الباحث أن يفتش عن دليل آخر، وبعد البحث والتأمل رأيت أن حديث أبي ذر الذي نص على أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشرة، يمكن الاعتماد عليه في الفرق بين معنى النبي والرسول، فهو نص صريح في أن الأنبياء أكثر عدداً من الرسل، إذ لو كان كل نبي رسولاً، لما كان هناك وجه لذكر عدد الرسل.

---

(١) عبد القاهر البغدادي، كتاب أصول الدين ص ١٧٠ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م وطبعة الدولة، إستانبول.

(٢) سورة النساء، الآية ١٦٣.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٩.

أما الكلام في سند الحديث وتضعيف بعض رواته، فقد نص الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، في تحقيقه لمشكاة المصابيح [جـ ٣ ص ١١٢، رقم الحديث ٥٧٣٧] على أن الحديث صحيح[١]، وبناء على ذلك يترجح القول بالفرق بين النبي والرسول.

ولكن مَن النبي؟ ومَن الرسول؟ أو بعبارة أخرى، ما هو الضابط الذي يمكن أن يفرق بين النبي والرسول؟ والجواب أن العلماء قد ذكروا في الفرق بينهما أموراً.

الأول: أن النبي من أتاه الوحي من الله عزَّ وجلَّ، ونزل عليه المَلَكُ، والرسول من يأتي بشرع على الابتداء، أو بنسخ بعض شريعة مَنْ قبله[٢].

الثاني: أن النبي مَنْ أوحى الله إليه بشرع، لكنه لم ينزل عليه كتاب، والرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه[٣].

الثالث: الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه، إذ النبي إنسان أوحي إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه والدعوة إليه فهو نبي رسول، وإلا فهو نبي غير رسول، وهذا هو المشهور[٤].

وقد رُدَّ على هذه الأوجه جميعها:

أما **الوجه الأول**: فإنه يلزم عليه أن لا يكون يعقوب، وإسحاق، وسليمان، وكثير من أنبياء بني إسرائيل رسلاً، لأنهم لم يأتوا بشريعة جديدة، وإنما كانت شريعتهم التوراة، مع أن القرآن قد سماهم رسلاً.

---

(١) الشيخ ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

(٢) عبد القاهر البغدادي: كتاب أصول الدين، ص ١٧٠، الطبعة الأولى سنه ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م إستنبول، مطبعة الدولة.

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثانية، الناشر: دار الكتب العلمية، طهران، التاريخ (بدون).

(٤) الشيخ كمال الدين، المعروف بابن أبي شريف القدسي، شرح المسايرة ص ٢٣١، مطبعة السعادة بمصر، التاريخ (بدون).

وأما **الوجه الثاني**: فيلزم عليه أن لا يكون يونس، ولوط، وإسماعيل، وشعيب رسلاً، لأنه لم ينزل عليهم كتاب.

أما **الوجه الثالث**: وهو الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه فوجه الاعتراض عليه هو: أن العقل لا يسيغ أن يوحي الله إلى إنسان بشرع ولا يأمره بتبليغه، لأن الشرع علم وأمانة، وأداء العلم واجب، وكتمانه نقص ورذيلة.

فالذي نُرجِّحُهُ: أن كلاً من النبي والرسول أوحي إليه ـ غير أن الرسول أمر بتبليغ رسالة إلى قوم كفار خالفوا أمر الله فكفروا به وعبدوا معه غيره. أما النبي: فهو مأمور بأن يعمل بشريعة مَنْ قبله، فيوحى إليه بما يفعله ويأمر به المؤمنين، وقد يوحى إليه في قضية معينة، كأنبياء بني إسرائيل العاملين بالتوراة.

الوحي والتّبليغ:

١ ـ دليل الوحي: قوله تعالى: ﴿إنا أوحينَا إليكَ كما أوحينَا إلى نوح والنَّبيِّينَ من بعدهِ وأوحينَا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسَى وأيوبَ ويُونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينَا داودَ زَبُوراً﴾[١].

٢ ـ وأما الأمر بالتبليغ فيدل عليه قتل بني إسرائيل لبعض أنبيائهم، كما حكى الله ذلك عنهم في أكثر من آية، يقول تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ أينَ ما ثُقِفُوا إلاَّ بحبلٍ مِنَ الله وحبلٍ مِنَ النَّاسِ وبَاؤُوا بغضبٍ مِنَ اللَّهِ وضُرِبَتْ عليهِمُ المَسْكَنَةُ ذلكَ بأنّهم كانُوا يكفُرُونَ بآياتِ اللَّهِ ويقتلُونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ذلكَ بما عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢].

فلو لم تكن هناك دعوة من أنبيائهم تتضمن أمراً ونهياً لهم بما لا تهواه أنفسهم لما حدث منهم القتل لأنبيائهم، ولا يعترض على هذا التفريق بما اعترض به على الوجه الأول وهو أن عدداً من أنبياء بني إسرائيل لم يأتوا بشريعة جديدة وإنما كانت شريعتهم التوراة ومع ذلك فقد سماهم القرآن رسلاً لأنا نقول: إن هؤلاء الذين سماهم القرآن رسلاً من الممكن أن يكون الله قد أوحى إليهم ببعض الأمور التي لم تكن موجودة في التوراة، ولم نعلم بها،

---

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

وعدم العلم لا يدل على عدم الوقوع، وقد يستأنس لتأييد هذا الرأي بقصة طالوت، وقصة سليمان مع بلقيس المذكورتين في القرآن الكريم.

قصة طالوت: يقول الله تعالى فيها: ﴿ألم تَرَ إلى الملأِ من بني إسرائيلَ من بعدِ موسَى إذْ قالُوا لنبيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لنَا مَلِكاً نقاتِلْ في سبيلِ الله قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إنْ كُتِبَ عليكُمُ القِتَالُ ألّا تُقَاتِلُوا قالُوا ومَا لنَا ألّا نُقاتِلَ في سبيلِ الله وقد أُخْرِجْنَا من دِيَارِنَا وأبنائنا فلما كتب عليم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيُّهُمْ إنَّ اللَّهَ قد بعثَ لكُمْ طالوتَ مَلِكاً﴾[1].

فالذي نأخذه من هذه القصة: أنّ الله سبحانه وتعالى، أوحَى إلى هذا النبي بأمرين:

أحدهما: أنه أوحى إليه بأن يأمر بني إسرائيل بالجهاد، وأنَّه كتبه عليهم على حسب طلبهم. ﴿فلمَّا كُتِبَ عليهِمُ القتالُ﴾.

ثانيهما: تعيين طالوت ملكاً عليهم، كما يدل على ذلك صريحُ الآية: ﴿إنَّ الله قد بعثَ لكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾.

ففي هذه الآيات إثبات الإيحاء لهذا النبي، وقد تضمن ذلك الوحي أمراً جديداً.

أما قصة سليمان: فمن المقرر أن الأنبياء السابقين كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، يدل على ذلك قوله ﷺ: (أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تُحَلُّ لأحدٍ قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي ﷺ يُبْعَثُ إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى النَّاس عامَّة)[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ج ١ ص ٥٣٣ فتح الباري رقم الحديث ٤٣٨، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج ١ ص ٣٧١ رقم الحديث ٥٣١، والإمام أحمد، في المسند ج ٢ ص ٢٢٢، الطبعة الأولى سنه ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م دار صادر للطباعة والنشر.

ونجد في القرآن الكريم، أن سليمان عليه السلام، وهو من أنبياء بني إسرائيل المأمورين باتباع شريعة موسى عليه السلام، قد دعا بلقيس وقومها إلى الدخول في دين الله تعالى، وترك عبادة ما سواه، كما حكى الله ذلك عنه في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عليَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِين﴾[1].

نستنتج من ذلك، أن ذلك الأمر حدث من سليمان عليه السلام بأمر من الله أُوحي إليه، إذ لا يتصور أن يكون ذلك منه دون إذن من الله تعالى، والله أعلم، وإن بعثة الله تعالى رسله إلى خلقه من أجل بلوغهم الكمال في الاستقامة والهداية.

بلوغ غاية الكمال البشري: ويتضح في القرآن من حديثه عن الأنبياء الذين سماهم، أنَّهم كانوا أسوة حسنة في التقوى والإنابة لربِّ العالمين، والرحمة والرفق بالناس أجمعين.. وأنَّهم استكملوا صفات الكمال التي تنبغي للبشر.. وتنزَّهوا عن كل ما لا يتفق مع مكارم الأخلاق. قال تبارك وتعالى: ﴿واذْكُرْ عِبَادَنَا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدِيْ والأَبْصَار * إنّا أَخلَصْنَاهُمْ بخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار * وإنّهم عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفينَ الأخيار * واذْكُرْ إسماعيلَ واليسَعَ وذَا الكِفْلِ وكلٌّ مِنَ الأخيَارِ﴾[2].

فالأنبياء خِيرة الله سبحانه من خلقه، وهم أصحاب عزائم قوية وعقول راجحة.. ﴿أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَار﴾ وهم يعملون للآخرة ويؤثرونها على زينة الحياة الدنيا: ﴿إنّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدّار﴾. وهم كما وصفهم ربُّ العالمين في عبادتهم وتقواهم وخشوعهم وفعلهم للخيرات واستمساكهم بمكارم الأخلاق: ﴿وجعلنَاهُم أئمةً يَهْدُونَ بأمرِنَا وأَوْحينَا إليهِمْ فِعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكَاةِ وكانُوا لنَا عَابِدِين﴾[3].

ولا ريب في أن الله سبحانه زودهم بالعلم والحكمة، فلا يصل إلى رتبتهم في المعرفة الصادقة أحد مهما كان حظه من ابتغاء العلم أو الاشتغال بالحكمة: ﴿ولُوطاً آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً﴾[4]، ﴿ففهمنَاهَا سليمانَ وكُلاً آتينا

---

(١) سورة النمل، الآية ٣١.
(٢) سورة ص، الآيات ٤٥ ـ ٤٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٧٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ٧٤.

حُكْماً وعلماً﴾[1]، كما وهبهم سبحانه الحظ الأوفى من الفضائل الخلقية، ومن أعظمها طاقة لا تنفذ من الصبر والرجاء: ﴿وأيوبَ إذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الرّاحِمين * فاستجبنَا لهُ فكشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتيناهُ أهلَهُ ومثلَهُمْ معهُمْ رحمةً من عندِنَا وذِكْرَى للعَابِدين * وإسماعيلَ وإدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ كلٌّ مِنَ الصّابِرِين * وأدْخَلنَاهُمْ في رحمتِنَا إنَّهم مِنَ الصَّالحين﴾[2]، ومن أولى منهم بالمسارعة إلى الخيرات والإخلاص لخالق الأرض والسمٰوات، والخشوع في العبادات؟! ﴿إنَّهم كَانُوا يُسَارِعُون في الخيراتِ ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً وكَانُوا لنَا خَاشِعِين﴾[3].

هكذا جاءَتْ صورةُ الأنبياءِ في القرآنِ!! في أكملِ صفةٍ بشريَّةٍ!! ليسَ فيها شيء ممَّا افتَرَاهُ المبطِلُون في الكتبِ المحرَّفة، مما يُشين الأنبياء ويسمهم بالنقص والوقوع في الآثام!.

فإذا قارنَّا بينَ صفة لوط عليه السلام في القرآن: ﴿ولوطاً آتيناه حُكْماً وعلماً﴾ وبين ما افتراه عليه الوَضّاعون في التّوراة المحرفة[4]، فإنَّنا نجدُ الأمرَ من النقيض إلى النقيض! وكذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

أمّا القرآن، وهو الحقُّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، ففيه أمر للنبي ﷺ أن يقتدي بهؤلاء المرسلين في صبرهم وعزمهم: ﴿فَاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[5]، وأن يعلم أنَّه واحد منهم يسير على المنهج الذي ارتضاه الله لعباده المرسلين: ﴿أولئكَ الَّذينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٨٣ ـ ٨٦.

(٣) سور الأنبياء، الآية ٩٠.

(٤) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر: ٣٠ ـ ٣٧، انظر التعليق ما قبل الأخير من فصل [طهارة مولده ﷺ] من أعلام النبوّة ص ٢٩٤ حيث نقل عن توراة اليهود أنّ لوطاً عليه السلام نكح ابنتيه ـ والعياذ بالله تعالى من الافتراء على أنبيائه ورسله.

(٥) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

وليس في القرآن ذكر للأنبياء بشيء يقدح في عصمتهم أو يَصِمُهُمْ بسوءٍ. . وما ورد فيه من مواقف بعض الأنبياء التي عاتبهم الله عليها، فهي ليستْ نقائص، وإنَّما هي دليل على أن البشر مهما بَلَغُوا من الكمال النفسي والخلقي فهم بحاجة دائمةً إلى هداية الله سبحانه وتعليمه لهم ما هو أولى بالاتباع، ومن هذا القبيل ما جاء في القرآن عن فتنة سليمان عليه السلام: ﴿ولقدْ فَتَنَّا سليمانَ وألقينَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثم أنابَ﴾[1]. فهذه الفتنة ابتلاء من الله سبحانه له وتعليم، ولم يرد في نصٍّ صحيح ما يؤيد الروايات الإسرائيلية عن هذه الفتنة[2]. وكذلك الأمر في قصة الخصمين مع أبيه داود عليه السلام: ﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾[3]. فلا يصدق ما تزعمه الإسرائيليات أن داود عليه السلام طمع في زوجة جندي من جنوده فأرسله إلى ميدان القتال ليقتل ثم يتزوج داود امرأته! فهذه سقطة من سقطات الطمع والشهوة لا يجوز أن تُنْسَبَ إلى نبي من الأنبياء.

والتفسير الصحيح لهذه الآيات أنها مواقف تعليم من الحق تبارك وتعالى لأنبيائه، ليزدادوا هدى وعدلاً ومجانبة للهوى: ﴿يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ فاحْكُمْ بينَ الناس بالحقِّ ولا تتبعِ الهوَى فيضلَّكَ عن سبيلِ الله إنَّ الَّذين يَضِلُّون عن سبيلِ الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحِسَاب﴾[4].

أما موقف يونس عليه السلام من قومه، ومغاضبته لهم فليست قادحة في عصمته ولا في كمال خلقه، وإنما كانت باجتهادٍ منه حين غلب على ظنّه أنَّ هؤلاء لا يؤمنون، وقد علمه الله سبحانه درساً بليغاً من دروس اليقين، حين التقمه الحوت في جوفه، ولم يجد ملجأً له إلاَّ التسبيح والدُّعاء: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ

---

(١) سورة ص، الآية ٣٤.

(٢) وفي صحيح البخاري برقم ٢٦٦٤ مرفوعاً: (إنّ سليمان قال: لأطوفن الليلة على مئة امرأة، أو تسع وتسعين [وهن زوجاته] كلهنَّ يأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قُلْ إن شاء الله، فلم يقلْ إن شاء الله، فلم يحمل منهُنّ إلاّ امرأة واحدة جاءت بشق رجلٍ والذي نفس محمد بيده لو قال إنْ شاء لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعُون).

(٣) سورة ص، الآية ٢٤.

(٤) سورة ص، الآية ٢٦.

كانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ في بطنِهِ إلى يوم يُبْعَثُون﴾[1]. وكان موقفه هذا من العِظات التي وجهها الحق تبارك وتعالى لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ إذ قال: ﴿فاصْبِرْ لِحُكْم ربِّكَ ولا تَكُنْ كصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادَى وهو مَكْظُومٌ * لولا أنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ من ربِّهِ لَنُبِذَ بالعَرَاءِ وهو مَذْمُومٌ * فاجْتَبَاهُ ربُّه فجعلَهُ مِنَ الصّالحين﴾[2].

وكان من تواضع خاتم النبيين ﷺ ومعرفته بأقدار الأنبياء، أنَّه نهى عن تفضيله على يونس عليه السلام فقال: (لا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ أنَا خيرٌ من يُونسَ بنِ مَتَّى)[3].

وجملة القول أنَّ صورة الأنبياء في القرآن هي أكرم صورة، وأن سيرتهم أنبل سيرة!! فهم المصطفون الأخيار الذين آتاهم الله العلمَ والحكمةَ وألهمهم فعلَ الخيرات والبُعْدَ عن المنكرات!!.

الإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً: من كمال الإسلام ودلائل صدقه أنه يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، لا فَرْقَ بين متقدِّم ومتأخِّرٍ، ولا بينَ عربي وغير عربي، لأنَّ رسالات الله سبحانه إلى الأنبياء واحدةٌ في جوهرها وأصلها، وإن اختلفت من جهة الشرائع والأحكام. فلا يصح إيمان من يؤمن ببعض الأنبياء، ويكفر ببعض، فهذا تناقض يُؤدِّي إلى الكفر والضلال.

قال تبارك وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ ربِّهِ والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿إنّ الذين يكفرون بالله ورُسُلِهِ ويُريدونَ أن يُفَرِّقُوا بينَ اللهِ ورُسُلِهِ ويقولون نُؤْمَنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويُريدُون أنْ يتَّخِذُوا بينَ ذلِكَ سبيلاً * أولئك هم الكافرونَ حقّاً وأعْتَدْنَا للكافرين عذاباً مُهِيناً * والَّذِين آمنُوا بالله

(١) سورة الصافات، الآيتان ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) سورة القلم، الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد باب ٥٠/ وكتاب التفسير سورة ٤/ ٢٤، ٣٥/ وسورة ٦/ ٤/ وأخرجه أبو داود في كتاب السّنّة باب ١٣/ ٠.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

ورُسُلِهِ ولم يُفَرِّقُوا بينَ أحدٍ منهم أولئك سوفَ يُؤتيهم أُجُورَهم وكانَ الله غفوراً رحيماً﴾[1].

إنَّ هذا الكفر ببعض الرسل الذي يزعم أصحابه أنَّ لهم حظاً من الإيمان، يسلب أصحابه كل نصيب من الإيمان!: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾.

فما معنى أن يؤمن هؤلاء ببعض الأنبياء.. ثم يكفرون بغيرهم؟! وقضية الإيمان بالوحي الإلهي تستدعي الإيمان بكل وحي، متى ظهر صدق الرسول بما يؤيده الله به من المعجزات.

والمسلم، بمقتضى التوجيه القرآني يؤمن بالأنبياء جميعاً، وإن كان يلقى العَنَتَ ممن يدعون أتباعهم من اليهود والنصارى، وهو يُحِبُّ موسى وعيسى وكل الأنبياء كما يُحِبُّ محمّداً ﷺ.

أمَّا غير المسلمين فقد أظهرُوا العداوةَ لمحمد ﷺ وكذبوه، إلاَّ قليلاً ممن هداهم الله إلى الإيمان به، وما زالت عداوتهم لدين الإسلام تحملهم على محاربته، ومحاولة إطفاء نوره خلال العصور، ويأبَى الله ما يُرِيْدُون: ﴿يُرِيْدُونَ أنْ يطفِئُوا نُورَ الله بأفواهِهِمْ ويأبَى الله إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ ولو كَرِهَ الكَافِرُون﴾[2].

ولو أنَّهم نظروا في دلائل نبوة محمد ﷺ، وتأمَّلُوا معجزتَهُ الكبرى، وهي القرآن!! وتخلَّوا عن العِناد والاستكبار، لرأوا الحق واضحاً والبينة ظاهرة: ﴿لم يَكُنِ الَّذِينَ كفرُوا من أهلِ الكِتَابِ والمشركِيْنَ مُنْفَكِّيْنَ حتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يتلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[3].

وقد كان اليهود في زمن البعثة النبوية يعرفون محمداً ﷺ وصِدْقَ نبوته، لكنهم كفروا به بغياً وحسداً، كما ذكر القرآن: ﴿يا أهلَ الكِتَابِ لم تكفرون بآياتِ الله وأَنْتُمْ تَشْهَدُون * يا أهلَ الكِتَابِ لِمَ تلبسونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وتكتُمُونَ

---

(١) سورة النساء، الآيات ١٥٠ ـ ١٥٢.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٢.

(٣) سورة البينة، الآيات ١ ـ ٣.

الحَقَّ وأنْتُمْ تعلَمُون * وقالتْ طائفةٌ من أهلِ الكتابِ آمِنُوا بالَّذِي أُنْزِلَ على الَّذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ لعلَّهُمْ يَرْجِعُون * ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى الله أنْ يُؤْتَى أحدٌ مِثْلَ ما أُوتِيْتُمْ أو يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ والله وَاسِعٌ عليم * يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾[1]، ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ وإنَّ فريقاً منهم لَيكتُمُونَ الحَقَّ وهم يَعْلَمُون﴾[2].

ولو أنصفَ أهلُ الكتابِ أنفسُهم وأشفقوا عليها من الشقاء الأبدي، لاعترفوا بالحَقِّ، واحترموا منطق الأدلة اليقينية التي تثبت صدق محمد ﷺ فيما بلغه عن ربِّه.

منازل الأنبياء والرسل: أثبت القرآن التفاوتَ بين الرسل في الدرجات عندَ الله سبحانه، وفي الخصائص التي ميزهم بها. وهذا التفاوت سنة الله في خلقه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بعضَهُمْ على بعضٍ، منهم مَنْ كَلَّمَ الله ورفَعَ بعضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتينَا عيسَى ابْنَ مريمَ البَيِّنَاتِ وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ولو شَاءَ الله ما اقْتَتَلَ الَّذينَ من بعدِهِمْ مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ ولكِنِ اختَلَفوا فمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ومنهُمْ مَنْ كَفَر ولو شَاءَ الله ما اقْتَتَلُوا ولكنَّ الله يفعلُ ما يُرِيْدُ﴾[3].

وهذا التفضيل لا ينقض اتصافهم بصفات الكمال وتنزههم عن المعايب والآثام، فالتفضيل زيادة في الفضائل واختصاص بدرجات من المكارم.

وليس من قبيل التعصب أن يُؤْمِنَ المسلمُ بأن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء وأعلاهم درجةً عند الله، فهذا الفضل لا ينقص درجات الأنبياء، بل هو شرف لهم جميعاً!! وقد بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ الخصائص التي ميَّزَهُ الله بها في دعوته ورسالته فقال: (أُعْطِيتُ خَمْسَاً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْرٍ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، وأُوتِيْتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً)[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ٧٠ ـ ٧٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التيمُّم/ ١/ وكتاب الصلاة ٥٦/ ، ومسلم في كتاب المساجد / ٣/.

وفي القرآن ما يدل على تفضيل الله سبحانه لخاتم أنبيائه محمد ﷺ، إذ يقول سبحانه: ﴿وأنزلَ الله عليكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وكانَ فَضْلُ الله عليكَ عظيماً﴾[1]!!.

فقد أخذ الله على الأنبياء جميعاً الميثاق أن يُؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، قبل أن يظهر في هذا الوجود! قال تبارك وتعالى: ﴿وإذْ أَخَذَ الله ميثاقَ النَّبيِّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ على ذٰلِكُمْ إِصْرِيْ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين﴾[2].

ولم يكن هذا الميثاق لأحدٍ من الأنبياء قبله ﷺ! وكما أشار القرآنُ إلى موقف الشفاعة العظمى يوم القيامة الذي يخصُّ الله به خاتم أنبيائه محمّداً ﷺ وذلك في قوله سبحانه: ﴿ومِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً محمُوداً﴾[3]، وهو موقف الشفاعة الذي يحمده فيه الخلق جميعاً، حين يتخلى الأنبياء عن هذه الشفاعة، ويعتذر كل منهم بعذر، حتى يأتي الناس في موقف الحشر إلى محمد ﷺ فيسألوه الشفاعة، فيقول ﷺ أنا لها.. فيشفع لهم بإذن ربِّه ويتقبل الله منه شفاعته ويقول له: (يا مُحَمَّدُ سَلْ تُعْطَ واشْفَعْ تُشَفَّعْ..) كما جاء في صحاح الأحاديث[4].

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨١.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

(٤) هذا من حديث الشفاعة الطويل، أوله: «يُحْبَسُ المؤمنون يوم القيامة حتى يَهمُّوا بذلك فيقولون: لَوِ استشفَعْنَا إلى ربِّنا فيرُيحُنَا من مكانِنَا، فيأتُون آدم..» ثم يقول: «.. وقُلْ يُسْمَعْ لَكَ واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربّي بثناءٍ وتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع..» الحديث بطوله.

المبحث الثاني

الوحي الإلهي إلى الأنبياء والرسل

تعريف الوحي لغة:

يقال: وحيت إليه، وأوحيت، ووحي وحياً، إذا كلمه بما يخفيه عن غيره، ومنه، الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام.

قال أبو إسحاق: وأصل الوحي في اللغة كلها: إعلام في خفاء[1]. وعليه، فالوحي لغة: هو الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. ومعنى وحي الله إلى أنبيائه متضمن لمعنى الخفاء والسرعة[2].

أمّا **شرعاً** فقد عرفوه: بأنه كلام الله المنزل على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

كيفية الوحي: أمّا الكيفية التي يتصل بها هؤلاء الصفوة من عباد الله بالملأ الأعلى فقد بينتها الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلِّمَهُ الله إلاّ وحياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فيُوحِيَ بإذْنِهِ ما يشاءُ إنَّه عليٌّ حكيمٌ﴾[3].

وإن الوحي على أنواع:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة، وحي.

(2) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص ٣٤، الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٤هـ.

(3) سورة الشورى، الآية ٥١.

الأول: أنَّه تبارك وتعالى، تارة يقذف في رَوْعِ النَّبيِّ ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنَّه من الله عزَّ وجلَّ، وهو المشار إليه في الآية بقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلِّمَهُ الله إلاَّ وحياً﴾.

الثاني: أن يسمع النبي ﷺ كلام الله مباشرة من غير أن يراه وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حدث في تكليم موسى عليه السلام؛ ومحمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

الثالث: أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ـ كما ينزل جبرائيل عليه السلام بالوحي إلى الأنبياء، وقد بين النوع الثالث من أنواع الوحي، وهو الوحي بواسطة الملك حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول). قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتهُ يُنَزَّلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البردِ فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد، عرقاً[1]. فقد بيَّن هذا الحديث صفة ذلك الاتصال الشديد القوي على النفوس البشرية لأحد أنواع الوحي، وهو الوحي بواسطة الملك وهو جبرائيل عليه السلام، ذلك أن الملائكة موصوفون بالشدة والقوة قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوى﴾[2]، كما بيَّن الحديث أيضاً صفة هذا البشر المتلقي لوحي الله صاحب الروح الصافية القابلة لتلك العلوم الملقاة إليها، إذ يفصم عنه وقد وعى عنه ما قال، يقول ابن حجر في فتح الباري:

وفي قولها، أي عائشة، رضي الله عنها: «في اليوم الشديد البرد» دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي، من فتح الباري ج ١ ص ١٨ رقم الحديث ٢ وقوله فيفصم ـ بفتح أوله وكسر المهملة، أي يقلع وينجلي ما يغشاه ـ يتفصد ـ من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم ـ شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغةً في كثرة العرق/ فتح الباري ج ١ ص ٢١.

(٢) سورة النجم، الآيتان ٥ ـ ٦.

وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنَّه يشعر بوجود أمر طارىء زائد على الطباع البشرية[١].

وهناك نوع رابع من أنواع الوحي وهو الرؤيا الصالحة في النوم:

ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدىء به رسول الله من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[٢]. فهذه الآية الكريمة دلت على أغلب أنواع الوحي، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لبشرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إلاّ وَحْياً. . .﴾ إلخ الآية.

وهذا الحديث الذي فصل نوعاً من أنواعه، وهو الوحي بواسطة، فقد بين كيفية الاتصال بين الإنسان البشري، وتلك الروح الملائكية التي هي من عالم آخر غير هذا العالم المحسوس، ولكن هل يستبعد وقوع ذلك بحجة أنه أمر غير مشاهد؟؟

الجواب، لا. وكيف يكون ذلك الاستبعاد، وقد أثبت العلم المادي سماع الصوت من مكان بعيد من غير رؤية المتكلم؛ كما في المسرة مثلاً.

كما أثبت أيضاً سماع الشخص من يخاطبه ورؤيته له، في حين لا يراه الحاضرون معه في مجلس التخاطب، بل لا يسمعون إلا أزيزاً كدوي النحل كما جاء في بعض صفات الوحي[٣].

فمثال **الأول**: ما نسمعه من الأحاديث التي تحملها إلينا موجات الأثير عابرة الوهاد والسهول والبحار دون رؤية ذويها، بل بعد وفاتهم أحياناً.

ومثال النوع **الثاني**: ما ذكره الدكتور عبد الله درّاز في كتابه «النبأ العظيم»، بعد وصفه لتلك القوة الغيبية التي تتصل بتلك النفس المحمدية، وأنها قوة خارجية، لأنها لا تتصل بتلك النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين،

---

(١) فتح الباري: للحافظ ابن حجر العسقلاني ج ١/ ٢١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، فتح الباري ج ١/ ٢٢.

(٣) جاء في حديث عائشة تشبيه الرسول لبعض صفات الوحي بصلصلة الجرس، وهذا بالنسبة لمقامه ﷺ، وشبهه عمر رضي الله عنه بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين/ فتح الباري ج ١ ص ١٩.

وهي قوة عالمة، لأنها توحي إليه علماً، يقول ما يأتي:

«فأمَّا الذي يُؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وإن لم يره، لأنه رأى أثره، ولأنَّه يؤمن بمن أخبره. وأمَّا الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة، وظنُّوا أنَّهم أحاطوا بكلِّ شيء علماً، فإنَّهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه، وسيقولون لك: لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء، وأنت فاستعذ بالله من عمي القلوب والعيون، وقل: كلا ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾. أو يقولون: لعله اضطراب في قوى الفكر صوَّر له المعاني أشباحاً ماثلة، والأحلام حقائق مجسمة، فابرأْ إلى الله من هذا الجنون، وقل: كلا ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾. نعم لقد عجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونه بأعينهم، وصوت لا يسمعونه بآذانهم. فقالوا كيف يرى محمد ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع، ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب؛ فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى، ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية. وإن أقرب هذه الآيات إلى متناول الناس آلة الهاتف (التلفون) فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، ثم يتخاطبان ويتراءيان، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً، ولا يسمعون إلاّ أزيزاً كدوي النحل في صفة الوحي»[1].

فهل يستبعد بعد ذلك إمكان الوحي بتلك الصور التي وردت بها النصوص على القدرة الإلهية؟ لا!!. ولكن مثل هذا يقال لمن يؤمن بالله، ويصدق بوجوده وأنَّه على كل شيء قدير.

(١) الدكتور عبد الله درَّاز، النبأ العظيم ص ٧٤، ٧٥، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

المبحث الثالث

دلائل صدق النُّبوَّة ومعجزاتها

لإثبات هذا المطلب مسلكان: أحدهما عقلي وذلك بدراسة أحوال الأنبياء قبل بعثتهم[1]، والآخر نقلي وهو دليل المعجزة.

المسلك الأول: يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه في الإمكان معرفة النبوة من غير طريق المعجزة، ذلك أن المقصود هو معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه، فإنه إذا قال إني رسول الله، فهذا الكلام لا يخلو، إمَّا أن يكون صدقاً مطابقاً للمُخْبَرِ بهِ، وإما أن يكون كذباً مخالفاً له، فإذا لم يكن مدعي الرسالة صادقاً في دعواه الرسالة، فلا بد أن يكون كاذباً، لأنهما متقابلان بالتناقض، فلا بدَّ أن يثبت أحدهما، الصدق أو الكذب، فإذا لم يثبت الصدق ثبت أنه كاذب، سواء تعمد الكذب أم كان ضالاً مخطئاً، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ لأن مدَّعي النبوة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر.. وأنواع الخيرات ما يدل على أنه صادق في دعواه عند العقلاء، ذلك أن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور، ويأمرهم بأخرى، كما أنه لا بد أن

---

(١) منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: للدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي ص ٢٦٥ - ٢٨٤، ط الأولى.

يفعل أموراً، فالصادق منهم يظهر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه، وما يفعله، ما يبين صدقه، ذلك أنه لا يأمر إلا بمعروف كعبادة الله وحده، وبحسن الجوار وصلة الأرحام، والبر باليتامى، والعطف على المساكين، ولا يخبر إلا بصدق، إذ يأتي ما يخبر به مطابقاً للواقع، كما أنه لا يفعل إلا خيراً، لا سيما وقد علم الناس جنس ما جاءت به الرسل وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض، ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يفرقون به بين الرسل وغيرهم، فلو قدرنا أن رجلاً جاء في زمن إمكان بعث الرسل، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان، وإباحة الفواحش، والظلم، والكذب، ولم يأمر بعبادة الله، ولا الإيمان باليوم الآخر، هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة، أو يشك عاقل في أنه مدَّعٍ وكاذب في دعواه أنه نبي؟ وأنه يفتري الكذب على الله والناس، فالكاذب يظهَر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه، وما يفعله ما يبين كذبه، ويظهر فجوره[1]. قال تعالى: ﴿هل أُنَبِّئُكُمْ على من تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كل أَفَّاكٍ أثيم * يُلْقُون السّمعَ وأكثرهم كاذبون﴾[2].

فإذا كان مدَّعي الرسالة معروفاً بالصدق والأمانة، وصحة العقل وسلامة التفكير وحسن السيرة، وكان ذلك في زمان إمكان بعث الرسل، أمكن تصديقه.

ومن هنا يمكن القول، بأن العقل يرشد إلى صحة النبوة، فبه تعرف دلائلها، وعن طريقه يتم التمييز بين النبي الصادق، والمتنبىء الكاذب.

وإذا نظر الباحث في سيرة الأنبياء والرسل لوجد فيها الدليل الواضح على صدقهم فيما يدعون إليه، فقد عرفوا بين أقوامهم بالاستقامة، وصدق القول والأمانة وحسن المعاملة.

وبالمقابل إذا نظر في سيرة المتنبىء وجد أن ما أشارت إليه الآية الكريمة

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانية من ص ٨٨ بتصرف، طبعة سنة ١٣٨٥هـ تقديم حسنين مخلوف.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

وهي قوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . . .﴾ هو ديدنهم فلا يوجد فيما يأمرون به ويدعون إليه ويفعلونه، إلا الإفك، والإثم، والفجور، فسيرتهم أصدق شاهد على كذبهم في دعواهم النبوة.

المسلك الثاني: مسلك القرآن في هذا الموضوع: «وهو المسلك النقلي».

الرسل والأنبياء من خيرة أهل زمانهم أخلاقاً وسلوكاً، وأعلاهم نسباً، يقضون فترة حياتهم قبل النبوة على نهج مستقيم لا يؤخذ عليهم في سلوكهم ومعاملاتهم أي مأخذ، إلى أن يأتيهم أمر الله تبارك وتعالى لإنقاذ الأمة مما حل بها من تدهور وانحراف في العقيدة والأخلاق، فيواجهون أقوامهم بتلك الدعوة الخيِّرة التي تأخذ بأيديهم إلى سبل الخير والرشاد، من غير أن يطلبوا منهم أجراً على تبليغ ذلك الأمر وتحمل تلك المشقة، فيما يصلح أحوالهم، ولا يريدون مخالفتهم إلى ما ينهونهم عنه، وإنما يريدون بذلك الإصلاح، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قالَ يا قومِ أرأيتُم إنْ كنتُ على بيِّنَةٍ مِنْ ربِّي ورزقَنِي منهُ رِزْقاً حَسَناً وما أُرِيدُ أنْ أُخالِفَكم إلى ما أَنْهَاكُمْ عنهُ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقِي إلاّ باللَّهِ عليهِ توكلتُ وإليهِ أُنيبُ﴾[1].

ويحدثنا القرآن الكريم بأن فريقاً من المدعوين صدَّقَ هؤلاء المرسلين فآمن بهم وبدعوتهم وتابعهم فيما يدعونهم إليه، وأن جماعة آخرين كذبوهم ولم يؤمنوا بدعوتهم بل رموهم بالكذب والافتراء. يقول تعالى: ﴿واضربْ لهم مثلاً أصحابَ القريةِ إذْ جاءَهَا المرسلونَ * إذْ أرسلنَا إليهِمُ اثنينِ فكذَّبُوهُمَا فعزَّزْنَا بثَالثٍ فقَالُوا إنَّا إليكم مرسَلُون * قالُوا ما أنتُمْ إلاّ بشرٌ مثلُنَا ومَا أَنْزَلَ الرحمٰنُ من شيءٍ إنْ أنتُمْ إلاّ تكذبون . . .﴾[2] إلى قوله: ﴿وجاءَ مِنْ أقصى المدينةِ رجلٌ يَسْعَى قالَ يا قومِ اتَّبِعُوا المرسَلِين * اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أجراً وهم مهتَدُون﴾[3] كما بين القرآن الكريم أن الدافع لأولئك المكذبين لرسل الله وأنبيائه هو الكِبْرُ والحَسَدُ، وليس هو التباس الحق بالباطل في نظرهم، ذلك

---

(١) سورة هود، الآية ٨٨.

(٢) سورة يس، الآيات ١٣ ـ ١٥.

(٣) سورة يس، الآيتان ٢٠ ـ ٢١.

لأنهم يعرفون رسلهم الذين أرسلوا إليهم فلم تخف عليهم سيرتهم وأحوالهم، ولم يكونوا في موضع الاتهام والريبة، يقول تعالى: ﴿أم لَمْ يَعرِفُوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُون﴾، أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم، أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: «أيُّها الملك إنَّ الله بعث فينا رسولاً نعرف نَسَبَه وصِدْقَهُ وأمانَتَهُ»، وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصِدْقِهِ وأمانتِهِ، وكانوا بعد كفاراً لم يُسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلاّ الصدق فاعترفوا بذلك[1]، وكان مما قاله هرقل: «وهكذا الأنبياء تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها»[2].

لكن حين يتمادى المكذبون للرسل في عنادهم، ويشتد تعنُّتُهم على أنبيائهم فيطلبون منهم الحجج والبينات الدالة على صدقهم فيما يدعونهم إليه، وأن الذي جاؤوا به هو من عند الله، نجد إجابة الرسل لهم على ذلك في الغالب أن تلك الحجج والبينات هي بأمر الله ومشيئته، فإن أراد الإتيان بها فهو القادر على ذلك.

أما هم فبشر مثلهم لا يمتازون عليهم إلاَّ بما خصهم الله به من وحيه ورسالته، ومع ذلك فقد أوضح القرآن الكريم أيضاً أن بعض الأنبياء قد يلجؤون إلى الله تبارك وتعالى، الذي أرسلهم فيطلبون منه أن يمدهم بتلك الآيات، فيمدهم سبحانه ويصدقهم في دعوتهم، ويستشهدون به فيشهد لهم. يقول تعالى: ﴿إذ قال الحواريُّونَ يا عيسَى ابْنَ مريمَ هَلْ يستطيعُ ربُّك أنْ يُنَزِّلَ علينَا مائدةً مِنَ السّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إنْ كُنْتُم مؤمنينَ * قالُوا نُريد أنْ نَأْكُلَ منها وتطمئِّن قلوبُنَا، ونعلمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشَّاهِدين * قالَ عيسى ابْنُ مريمَ اللَّهمَّ ربَّنا أَنْزِلْ علينَا مائدةً مِنَ السَّماءِ تكونُ لنا عيداً لأوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيةً منكَ وارْزُقْنَا وأنتَ خيرُ الرَّازقين * قالَ الله إنِّي مُنَزِّلُها عليكم فمَنْ يكفُرْ بعدُ منكُمْ فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ العَالَمِين﴾[3].

---

(١) ابن كثير، التفسير. ج ٣ ص ٢٥٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، فتح الباري ج ١/ ٣٢.

(٣) سورة المائدة، الآيات ١١٢ ـ ١١٥.

وقد أمد الله جميع أنبيائه ورسله بآيات بينات وحجج واضحات، لا يستطيع البشر الإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، كفلق البحر بضربة عصا، وقلب العصا حية، وإحياء الموتى، وانشقاق القمر، وإنزال القرآن، أيدهم بتلك المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله الخالق، القوي القادر الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

المعجزة: تعريفها: قال أبو منصور، عبد القادر البغدادي، في كتابه أصول الدين: المعجزة في اللغة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة. والمعجز في الحقيقة فاعل العجز في غيره وهو الله تعالى، كما أنه هو المقدر لأنه فاعل القدرة في غيره. وإنما قيل لأعلام الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتهم بأمثالها[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وآيات الأنبياء من فعل الله سبحانه وتعالى يفعلها آية وعلامة لهم على صدقهم كانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب الذي يختص الله به، فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق، والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته[2].

ويقول ابن حزم ـ في الفصل ـ موضحاً لبراهين النبوة بعد أن تكلم عن ضرورتها: «وإذْ قد تكلَّمنا على أنَّه لا بدَّ من نبوَّةٍ، وصحَّ ذلك ضرورةً، فلنتكلَّمْ على براهينها التي يصح بها علم صدق مدعيها إذا وقعت، فنقول: إنه قد صح أن الباري تعالى هو فاعل كل شيء ظهر، وأنه قادر على إظهار كل متوهم لم يظهر، وعلمنا، بكل ما قدمناه، أنه تعالى مرتِّب هذه الرتب في العالم، ومجريها على طبائعها المعلومة منا، الموجودة عندنا، وأنه لا فاعل في الحقيقة غيره تعالى[3]، ثم رأينا خلافاً لهذه الرتب والطبائع قد ظهرت، ووجدنا طبائع قد أحيلت، وأشياء في حد الممتنع قد وجبت ووجدت،

---

(١) أبو منصور عبد القاهر البغدادي. أصول الدين ص ١٧٠، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م.

(٢) ابن تيمية، النبوات ص ٢٨٢ ط سنة ١٣٤٦هـ.

(٣) أي لهذه الأشياء المخلوقة بطبائعها الموجودة عليها.

كصخرة انفلقت عن ناقة، وعصا انقلبت حية، وميت أحياه إنسان، ومئين من الناس رُوُوا وتوضَّؤُوا كلهم من ماء يسير في قدح صغير يضيق عن بسط اليد فيه لا مادة له. فعلمنا أن محيل هذه الطبائع، وفاعل هذه المعجزات هو الأول الذي أحدث كل شيء، ووجدنا هذه القوى قد أصحبها الله تعالى رجالاً يدعون إليه ويذكرون أنه تعالى أرسلهم إلى الناس، ويستشهدون به تعالى، فيشهد لهم بهذه المعجزات المحدثة منه تعالى، في حين رغبة هؤلاء القوم إليه فيها، وضراعتهم إليه في تصديقهم بها، فعلمنا علماً ضرورياً لا مجال للشك فيه أنهم مبعوثون من قِبَلِهِ عزَّ وجلَّ، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى، إذ لا سبيل في طبيعة مخلوق في العالم إلى التحكم على الباري، ولا على طبائع خلقه بمثل هذا، ووجوب النبوة إذ ظهر على مدعيها معجزة من إحالة الطبائع المخالفة لما بنى عليه العالم»[1].

ونخلص من هذا إلى أن المعجزة في الاصطلاح العرفي: هي الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي المقصود منه بيان صدق من أدعى أنه رسول الله، ووجه دلالتها على صدق مدعي الرسالة: أنها لما كانت مما يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها لم تكن إلا فعلاً لله سبحانه وتعالى، وقد سماها القرآن الكريم، آية وبيِّنة، وبرهاناً.

قال تعالى: ﴿ولقدْ أرسلْنَا رُسُلاً من قَبْلِكَ وجعلنَا لهم أزواجاً وذُرِّيَّةً وما كان لرسولٍ أن يأتِيَ بآيةٍ إلاَّ بإذْنِ الله لكلِّ أجلٍ كتابٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿. . . ولقد جاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبيِّنَاتِ ثُمَّ إنَّ كثيراً منهُمْ بعدَ ذلكَ في الأرضِ لمسرفُونَ﴾[3]، وقال تعالى، مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جيبِكَ تَخْرُجْ بيضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ ربِّكَ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ إنَّهم كَانُوا قوماً فَاسِقِينَ﴾[4].

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ص ٥٨، ٥٩ ج ١ طبعة سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر بمصر.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٣٢.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٢.

ويقص علينا القرآن الكريم تعنُّت كثير من الأمم على أنبيائهم، وطلبهم منهم الآيات الدالة على صدقهم، فقد حكى الله تعالى، عن قوم صالح عليه السلام قولهم: ﴿إنما أنت من المسَحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأْتِ بآية إن كنت من الصادقين﴾[1]، وعن قوم هود عليه السلام قولهم: ﴿قَالُوا يا هُوْدُ ما جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ومَا نَحْنُ بتارِكي آلِهَتِنا عَنْ قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين﴾[2]، وعن فرعون قوله لموسى عليه السلام: ﴿قالَ إنْ كنتَ جئتَ بآيَةٍ فأتِ بها إنْ كنتَ مِنَ الصّادِقِين﴾[3] فكفرُوا بالآيات والبراهين علوّاً واستكباراً وعِناداً.

أنواع المعجزات: اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يخصَّ كلَّ رسولٍ بِمَا يُثْبِتُ صِدْقَهُ ويُؤَيِّدُ دعوتَهُ، ويقنع من أُرْسِلَ إليهم بأنَّ الذي جاءَ بهِ إنَّما هو من عند الله، وليس من صنعه، واختراع خياله افتراءً على الله وتضليلاً لهم.

وقد وَرَدَ في القرآن كثيرٌ من أنواع تلك الآيات العظيمة الخارقة لمألوف البشر الدالة دلالة صريحةً على صدقِ أنبيائهِ تعالى فيما يَدْعُون إليه. ولمَّا كان القصد من تلك المعجزات إنَّما هو تأييدُ الرُّسُلِ وإظهارِ صدقِهم فيما يُبلِّغونه عن ربِّهم فقد اقتضتْ حكمتُهُ تعالى أن تكون تلك الآيات والبراهين من جنس ما برع فيه أهل زمانهم غالباً؛ ليكونَ عَجزُهُم عنها حجةً عليهم؛ فلمَّا برعَ قومُ موسى عليه السلام في فنون السِّحر آتاهُ الله معجزةً تفوق أفعالهم وتعلو على فنونهم، فجاءهم بما يُبْهِرُ عقولَهُم ويُخْضِعُ رقابَهُمْ، ممَّا جعل السحرةَ العالمين بفنون السحر يدركون أنَّ ذلك الأمر ليس من جنس السحر، وإنَّما هو من عند الله، تأيِّيداً لرسوله، فأسرعوا إلى الإيمان بالله، وتصديق رسوله فيما دعاهم إليه، ولم يردهم عن إيمانهم بخالقهم تنكيل فرعون وبطشه بهم. وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام فقد برع قومه في فنون الطب ـ كما روَى ابنُ كثير ـ فجاءَهم بما يعجز عنه الأطباء من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتَى.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) سورة هود، الآية ٥٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٠٦.

وكذلك معجزة خاتم الأنبياء محمّدٍ ﷺ الخالدة، فلمَّا كان العرب في عهد بعثته قد نبغوا في البلاغة والفصاحة وتفوَّقُوا على غيرهم في صناعة الكلام وضروب البيان كانت معجزته، الكبرى الباقية ما بقيت شريعته (القرآن الكريم)!!!.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية: «كانتْ معجزةُ كلِّ نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أنَّ موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرتِ الأبصار، وخضعتْ لها الرقابُ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعَايَنُوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلاَّ عمَّن أيَّدَهُ الله، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سريعاً، ولم يتلعثموا، وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم، ومن به مرضٌ مُزْمِنٌ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، هذا مما يعلم كل أحد أنَّه معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله، وهكذا محمد ﷺ، وعليهم أجمعين، بُعث في زمن الفُصَحَاء البُلَغَاء، فأنزلَ الله عليه القرآنَ العظيمَ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، فلفظه معجز تحدَّى الله به الإنسَ والجَن أن يأتوا بمثلهِ أو بعشرِ سُوَرٍ من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، وما ذاك إلاَّ لأنَّه كلام الخالق عزَّ وجلَّ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله»[1].

القرآن الكريم المعجزة الباقية: أنزل الله على أولئك الأنبياء كتباً سماوية متضمنة لهداية تلك الأمم في دينهم ودنياهم، ولعلمه سبحانه وتعالى، أن تلك النبوات مؤقتة بزمن، فقد كانت تلك الكتب المنزلة أيضاً تحمل حلولاً مؤقتة بقدر ذلك الزمن، وبما يصلح أحوال تلك الأمة، وما يصل إليه ذلك العصر

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ج ٢ ص ٨٤، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م ص ٢٠.

من تقدم وازْدِهَار، وممَّا يوضح أن تلك الرسالات تنتهي بزمن ظهور الرسالة العامة للناس جميعاً ما يأتي:

أولاً: أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظ تلك الكتب السماوية المنزلة على أولئك الأنبياء، وإنّما أوْكَلَ حفظها إلى علمائهم، يقول تعالى: ﴿إنا أنزلْنَا التَّوَرَاةَ فيها هُدىً ونورٌ يحكُمُ بها النَّبيُّون الَّذينَ أسْلَمُوا للَّذين هَادُوا والرَّبَّانِيُّون والأحبارُ بما اسْتُحْفِظُوا من كتابِ الله وكانوا عليه شهداء فلا تَخْشَوُا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[1].

وهذا تكليف من الله لهم بحفظ تلك الكتب، والمكلف قد يؤدي ما كلف به كاملاً وقد يقصر في أدائه، بل قد يعصي ويخالف ما أمر به، وهذا هو الذي حدث من أولئك المستحفظين، فقد مدوا يد العبث إلى تلك الكتب السماوية فحرَّفوا وبدَّلوا، كما حدثنا القرآن بذلك.

ثانياً: أن معجزة كلِّ نبي من أولئك الأنبياء عليهم السلام، كانت منفصلة عن صلب منهجه التشريعي، أي عن الكتاب الذي أنزل عليه، فهي آية حسية، مما جعلها مقصورة على الطائفة التي شهدت بعثة ذلك الرسول وحضرت زمنه، مثل قلب العصا حيَّة، وإخراج اليد السوداء بيضاء، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى.

أما معجزة خاتم الأنبياء، فهي خالدة كخلود رسالته، مشهودة لكل من أتى بعد زمنه، تلك المعجزة هي «القرآن الكريم» الذي تحدى به الإنس والجن وقطع بعجزهم عن الإتيان بمثله، أو بسورة من مثله، فكانت معجزته في صلب منهجه، أي في ضمن الكتاب الذي أنزل عليه، ولذا فهي باقية ببقاء ذلك الكتاب المنزل، المشتمل على المعجزة، التي تعهد الله بحفظه، ولم يكله إلى علماء الأمة الإسلامية كما أوكل حفظ تلك الكتب السابقة إلى علمائها، فقال تعالى: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[2]، وهذا لا يعني أن الرسول ﷺ لم

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

يعطَ آية حسيَّة، كما أُعطي الأنبياء قبله، فانشقاق القمر، المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿اقتربتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القمرُ * وإنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ﴾[1] آية حسيَّة. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أنْ يُريهم آيةً فأراهم انشقاقَ القمر. وكذلك وَرَدَ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشقَّ القمرُ على عهدِ النَّبيِّ ﷺ شقين: فقال: اشْهَدُوا»[2]، ونبعَ الماء من بين أصابعه، كما في حديث أنس رضي الله عنه، المتفق عليه قال: «أتَى رسول الله ﷺ بإناءٍ وهو بالزَّوْرَاءِ، فوضع يَدَهُ في الإناء فجعلَ الماءُ ينبعُ من بينِ أصابعهِ، فتوضَّأ القومَ، قال قتادةُ قلتُ لأنسٍ: كم كنتُمْ؟ قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»[3].

وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل: فقد روى البخاري من حديث أنس بن مالك، يقول، أي أنس: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوعَ، فهل عندَكِ من شيء؟ قالتْ: نعم، فأخرجتْ أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دَسَّتْهُ تحتَ يدي ولاَثَتْنِي[4] ببعضِهِ، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال: فذهبتُ به فوجدتُ رسولَ الله ﷺ في المسجد ومعه النَّاس، فقمتُ عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: أأرسلَكَ أبو طلحة؟ فقلتُ: نعم. قال: بطعام؟ قلتُ: نعم. قال رسول الله ﷺ لمن معه: قُومُوا. فانطلقَ وانطلقتُ بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحةَ فأخبرتُه، فقال أبو طلحة: يا أمَّ سُلَيْمٍ قد جاءَ رسولُ الله ﷺ بالنّاس، وليس عندنا ما نُطْعِمُهُمْ؟!!

---

(١) سورة القمر، الآيتان ١ ـ ٢.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه / باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر، فتح الباري ج ٦ ص ٦٣١ رقم حديث عبد الله بن مسعود ٣٦٣٦ وحديث أنس ٣٦٣٧، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، باب علامة النبوة في فتح الباري ج ٦ ص ٥٨٠، رقم الحديث ٣٥٧٢، ومسلم/ باب في معجزات النبي ﷺ ج ٤ ص ١٧٨٣ ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي رقم الحديث ٦.

(٤) أي لفتني به يقال لاث العمامة على رأسه أي عصبها، والمراد أنها لفت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه.. فتح الباري ج ٦ ص ٥٨٩.

فقالتْ: الله ورسولُه أعلمُ! فانطلقَ أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبلَ رسولُ الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: هلمي يا أم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتّ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: إئذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: إئذن لعشرة فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: إئذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: إئذن لعشرة، فأكل القوم كلُّهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً»[١].

هذه الآيات الخارقة للعادة كلها آيات حسية. وهناك آيات أخرى لا يتسع المقام لذكرها، وقد جاءت على يده ﷺ لا للتحدي بها، وإنما لبيان أن نبوته ﷺ من جنس النبوات السابقة، وإلا فإن القرآن الكريم كان، بتوجيهاته، يصرف النّاس عن طلب مثل هذه الآيات، لأنَّ سنَّة الله اقتضت أنَّ مثل تلك الآيات إذا أتَى بها ولم يؤمنوا حلَّ عليهم عذابُ الاستئصال، كما حلَّ بالأمم السابقة قبلهم[٢]، والله يُريدُ لهذه الأمة البقاء ولذَا نَرَاهُ يُوجههم إلى التأمُّلِ في هذه الآية الكُبْرَى «القرآن الكريم» وما اشتمل عليه من هداية، وإرشاد، تلك الآية التي ستبقى للأجيال لعدهم، إذْ أنها آية ما بعدها آية وقد عجزوا عن الإتيان بمثلها، بل بسورة من مثلها.

يقول تعالى: ﴿وقَالُوا لولا أُنْزِلَ عليه آياتٌ من ربِّهِ قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ اللَّهِ وإنَّما أَنا نذيرٌ مبينٌ * أوَلَمْ يكفِهِمْ أنَّا أنزلنا عليكَ الكتابَ يُتْلَى عليهم إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرَى لقومٍ يُؤْمِنُون﴾[٣].

---

(١) صحيح البخاري/ باب علامات النبوة في الإسلام فتح الباري ج ٦ ص ٥٨٦، ٥٨٧، رقم الحديث ٣٥٧٨، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) إلا قوم يونس، قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاَّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ سورة يونس آية ٩٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان ٥٠ ـ ٥١.

البحث الرابع

صفات الأنبياء والرسل عليهم السلام

سنعرض في هذا البحث مجمل صفات الأنبياء عليهم السَّلام التي وصَفَهُمُ العلماءُ بها، كالصِّدق، والأمانة وغيرها، ونُبيِّن ما ينبغي أن يُنَزَّهُوا عنه من الصفات الذميمة كالكذب، والخيانة وغيرهما، ثم نتبع ذلك بمسلك القرآن الكريم في هذا الموضوع.

أولاً: الصّفات التي وصف العلماء الأنبياء بها:

لقد وصف العلماء الأنبياء عليهم السلام بأنَّهم أفراد من البشر، قد تميَّزوا على غيرهم بعلوِّ الفطرة، وصحَّةِ العقل، وسَدَادِ الرأي، وسلامة التفكير، فهم أكمل أهل زمانهم عقلاً، وأقواهم فِطنةً، وأبعدهم نظراً، لا تلامس قلوبهم القسوة، ولا طبائعهم الغلظة؟ خُلُقُهم حفظ الأمانة وأداؤها، والصِّدق في القول، وقوَّة البيان، والبرُّ والإحسان إلى الخَلْق جميعاً، هذه بعض صفاتهم الخُلُقية التي وصفهم العلماء بها.

أمّا صفاتهم الخَلْقية، فقد برأهم اللَّهُ تعالى من العُيوب، فسلَّم أبدانَهُم مما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه النُّفوس، وتشمئزُّ منه الجماعات البشرية.

ثانياً: مسلك القرآن الكريم في وصف الأنبياء:

والمتأمِّل في كتاب الله يجد أنَّ هذه الصفاتِ التي ذكرها العلماء في وصفهم لأنبياء الله ورسله، قد انتزعوها وأخذوها من القرآن الكريم، والسيرة العطرة، لكل أولئك الصفوة المختارة من خلقه، فقد تحدثتْ آياتٌ من كتاب الله، عن وصفهم بالصِّدق، والأمانة، والوفاء بالوعد، ولين الجانب، والشَّفقة

والرحمة بالأمة، وأخرى نزهتهم عن الغلِّ والخيانة.

فمن تلك الآيات ما يأتي:

في اتِّصافهم بالصِّدق قوله تعالى: ﴿واذْكُرْ في الكَتَابِ إبراهيمَ إنَّه كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيق..﴾[2].

وفي اتصافهم بالأمانة قولُه تعالى: ﴿قال يا قوم ليسَ بي سَفَاهَةٌ ولكنِّي رسولٌ من ربِّ العَالَمِين * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ ربِّي وأنَاَ لَكُم نَاصِحٌ أمينٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قالَتْ إحدَاهُما يا أبتِ استَأْجِرْه إنَّ خيرَ مَنِ اسْتَأْجَرْت القَويُّ الأمينُ﴾[4].

وفي اتصافهم بالوفَاء بالوعد قوله تعالى: ﴿واذْكُرْ في الكِتابِ إسماعيلَ إنَّهُ كانَ صَادِقَ الوَعْدِ، وكانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾[5].

وفي اتصافهم بلين الجانب: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ ولَو كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عنهُمْ واستغفِرْ لهم وشَاوِرْهُم في الأمرِ فإذَا عزمتَ فتوكَّلْ علَى الله إنَّ الله يُحِبُّ المتوكِّلِين﴾[6].

وفي اتصافهم بالشفقة والرحمة: قوله تعالى: ﴿لقدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنفسِكُمْ عزيزٌ عليهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكَمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ على آثَارِهِمْ إنْ لم يُؤْمِنُوا بهذَا الحديثِ أسَفَاً﴾[8].

وفي تَنَزُّهِهِمْ عن الغِلِّ والخيانة قوله تعالى: ﴿وما كانَ لنبيٍّ أنْ يَغُلَّ ومَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يومَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوفَّى كلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[9].

---

(١) سورة مريم، الآية ٤١.
(٢) سورة يوسف، الآية ٤٦.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.
(٤) سورة القصص، الآية ٢٦.
(٥) سورة مريم، الآية ٥٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٧) سورة التوبة، الآية ١٢٨.
(٨) سورة الكهف، الآية ٦.
(٩) سورة آل عمران، الآية ١٦١.

وكما وصفهم القرآن بتلك الصفات العالية التي لا يدانيهم فيها أحد من أفراد البشر، الدَّالَّة على حسن خلقهم، فقد وصفهم بحُسْنِ خُلقهم وبرَّأهم من العيوب البدنية المنفرة، وكل ما جاء في صفاتهم الخَلْقِيَّةِ يدلُّ على أنَّهم أحسنُ النَّاس خَلْقاً كما كانوا أحسَنَهُمْ خُلُقاً، ومن ذلك ما جاء في تبرئة موسى عليه السلام حيث آذاه قومه واتهموه ببعض العيوب البدنية في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾[1].

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ موسَى كانَ رجلاً حَيِيَّاً سَتِّيراً لا يُرَى من جلدِهِ شيءٌ استحياءً منه، فآذاهُ من آذَاهُ من بني إسرائيلَ فقَالُوا: ما يستترُ هذا التَّسَتُّرَ إلاّ من عيبٍ بجلدهِ، إمَّا برص، وإمَّا أدرة، وإمَّا آفة، وإنَّ الله أرادَ أن يُبرئَهُ ممَّا قالوا لموسى، فخَلاَ يوماً وحدَهُ، فوضَعَ ثيابَهُ على الحجرِ، ثم اغتسلَ، فلمَّا فرغَ أقبلَ إلى ثيابهِ ليأخذَهَا، وإنَّ الحجر عدَا بثوبهِ، فأخذَ موسى عصاهُ عُريَاناً أحسنَ ما خلقَ الله وأبرأَهُ ممَّا يقُولُون، وقامَ الحجر، فأخذَ ثوبَهُ فلبسَهُ، وطفِقَ بالحجرِ ضَرْباً بعصَاهُ، فوالله إنَّ بالحجرِ لَنَدْباً من أثرِ ضربهِ، ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً، فذلك قوله [في سورة الأحزاب]: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالَّذين آذَوْا مُوسَى فبرَّأَهُ اللَّهُ ممّا قَالُوا وكانَ عندَ اللَّهِ وَجِيْهاً﴾[2]!!.

وقوله تعالى في وصف يوسف عليه السلام حكاية عن النسوة اللاتي تكلمن في امرأة العزيز لما راودته عن نفسه: ﴿فلما سمعتْ بمكرهِنَّ أرسلتْ إليهنَّ وأعتدتْ لهنَّ مُتَّكئاً وآتَتْ كلَّ وَاحِدةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وقالتِ اخْرُجْ عليهِنَّ فلمَّا رَأَيْنَهُ أكْبَرْنَهُ وقطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ وقُلنَ حَاشَ لله ما هذَا بشراً إنْ هذَا إلاَّ مَلَكٌ كريمٌ﴾[3].

وقوله تعالى في وصف عيسى عليه السلام: ﴿إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٩.

(٢) صحيح البخاري/ كتاب أحاديث الأنبياء/ باب ٢٨/ رقم الحديث ٣٤٠٤ من فتح الباري ج ٦/ ٤٣٦.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣١.

إنَّ الله يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منهُ اسْمُهُ المسيحُ عيسَى ابْنُ مريمَ وَجِيْهاً في الدُّنْيَا والآخرةِ ومِنَ المُقَرَّبِين﴾(١).

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الأنبياء عليهم السلام، وهم الصفوة من البشرية، قد اختصهم الله بتلك الصفات، وميزهم بها على غيرهم ليكونوا أهلاً لحمل عبء الرسالة وما أثقلها، قال تعالى: ﴿إنَّا سَنُلْقِي عليكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(٢)، ولذلك كان إعدادهم واختيارهم عن علم الله وحكمته، قال تعالى: ﴿وإذَا جاءَتْهُمْ آيةٌ قالوا لن نُؤْمِنَ حتَّى نُؤْتَى مثلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ الله، الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ سيصيبُ الَّذينَ أجْرَمُوا صَغَارٌ عندَ الله وعَذَابٌ شَدِيْدٌ بما كَانُوا يَمْكُرُون﴾(٣).

فاختيار الأنبياء لتحمل عبء الرسالات إلى أقوامهم لا يقوم على مقاييس البشر واصطلاحهم وإنما يرجع إلى علم الله وحكمته، واختياره ومشيئته، ولهذا لما اعترض كفار قريش على اختيار محمد ﷺ للرسالة، وإنزال القرآن عليه دون غيره من العرب لأنه في نظرهم، وبناء على مقاييسهم واصطلاحاتهم المادية غير أهل لذلك المنصب، لأنه فقير لا يملك من المال ما يجعله يستحق ذلك الشرف العظيم ويمتاز عليهم به، ذلك أن الفضل والشرف على الآخرين - في عرفهم - لا ينبغي أن يناله إلا أهل المال والجاه، فرد الله عليهم ذلك الاعتراض، كما حكاه بقوله تعالى: ﴿وقَالُوا لولا نُزِّلَ هَذا القرآنُ عَلَى رجلٍ مِنَ القريتينِ عظيمٍ﴾(٤).

يقول ابن كثير في تفسير الآية: أيْ هلاَّ كان إنزالُ هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قال ابن عباس رضي الله عنهما، وأرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، أو غيرهما، قال الله تبارك وتعالى رداً عليهم هذا الاعتراض ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾(٥).

أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عزَّ وجلَّ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته فإنَّه لا ينزلها إلاَّ على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٥.
(٢) سورة المزمل، الآية ٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٣١.
(٥) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

أصلاً. ثم قال عزَّ وجلَّ مبيناً أنَّه قد فَاوَتَ بينَ خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق، والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، ﴿نحنُ قسمنَا بينهم معيشتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا ورفَعْنَا بعضَهُمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيَتَّخِذَ بعضُهُمْ بَعْضَاً سُخْريّاً ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ ممَّا يجمَعُون﴾[1][2].

وكون النبي يختص بميزات في عقله وسلوكه، وحسن خلقه، كما وصفت خديجة رضي الله عنها المصطفى ﷺ حين أتاه مَلَكُ الوحي ثم جاءَها يخبرها بما حدث له وقال لها: لقد خشيتُ على نفسِي؟! فقالتْ له: كَلاً والله لا يُخزيكَ الله أبداً، ثم عدَّدَتْ الصِّفاتِ والميِّزاتِ الَّتي بَنَتْ عليها ذلك الحُكْم، فقالت: إنَّك لتصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ وتُقري الضَّيف، وتُكْسِبُ المَعْدُوم، وتعين على نوائب الحق[3]. فهذه الصفات الحميدة، والميِّزاتِ العظيمة التي جبل الله عليها محمَّداً ﷺ قبل النُّبوَّة، وجعلها من شيمته وسجيَّته، لا تعني أنَّ النُّبوَّة مكتسبة كما هو مذهب الفلاسفة[4]، ولا إكرامٌ على

(١) ابن كثير، التفسير ج ٤ ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي الباب ٣/ج ١ ص ٢٢ من فتح الباري، المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة سنة ١٣٨٠هـ.

(٤) ينكر الفلاسفة أن يكون منصب النبوة، محصوراً في أناس معينين يصطفيهم الله عزّ وجلّ لهذا المنصب ويرون أن كل أحد يستطيع بالرياضة والمجاهدة والتخلق بالأخلاق الحميدة أن يبلغ درجة النبوة، إذ النبي عندهم من توجد فيه خواص ثلاث يمتاز بها عمّا سِوَاه:

الأولى: أن يكون له اطِّلاع على المغيبات الكائنة والماضية، والآتية، قالوا: ولا يستنكر هذا الإطلاع لأن النفوس الإنسانية مجردة في ذاتها عن المادة غير حالة فيها، بل هي الإمكانية، ولها نسبة في التجرد، فإذا صفت النفس وتجردت، عن رعونتها البشرية، كان لها شدة اتصال بالنفوس الملكية التي انتقشت فيها صور الحوادث التي قد رأت تحدث في عالم العناصر، فتشاهد نفس النبي تلك الصور بواسطة ارتسامها فيها كمرآة يحاذي بها مرآة أخرى فيها نقوش فينعكس عنها إلى الأولى ما يقابلها.

الثانية: أن تظهر منه أفعال خارقة للعادة، لكون هيولى عالم العناصر مطيعة له، فتنقاد لتصرفاته، انقياد بدنه لنفسه، في حركاته وسكناته على وجوه شتى بحسب إرادته، ولا يستنكر ذلك الانقياد، لأن النفوس الإنسانية ليست منطبعة في الأبدان، وهي بتصوراتها مؤثرة في المواد البدنية، وإذا كانت إرادة النفس وتصوراتها مؤثرة في البدن مع عدم الانطباع فيه، فلا يبعد أن تقوى نفس النبي بحيث تنقاد له الهيولى العنصرية فتؤثر فيها إرادته، وتصوراته، حتى تحدث بإرادته في الأرض رياح وزلازل وحرق وغرق... إلخ. =

عمل كما يرى بعض شيوخ المعتزلة[1]، وإنَّما هي تفضُّل من الله عزَّ وجلَّ ورحمة يختص بها من يشاء من عباده، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿ما يَوَدُّ الّذينَ كَفَرُوا من أهلِ الكِتَابِ ولا المشركينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيرٍ مِنْ ربِّكُمْ والله يختصُّ برحمتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾[2]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منهُمْ يَتْلُوا عليهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مبينٍ * وآخرينَ منهُمْ لمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وهو العزيزُ الحكيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾[3].

ولكن هذا الاختصاص بهذا الفضل والاتصاف بهذه الصفات الحميدة، التي كانت من أسباب اختيارهم للرسالة والنبوة لا يخرجهم عن الطبيعة البشرية ولا يؤدي بهم إلى مرتبة الألوهية، أو إلى النبوة. يقول تعالى: ﴿ما كانَ لبشرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ الله الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثم يقُولَ للنّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ الله﴾[4]، وإنّما هم عبيد الله سبحانه وتعالى مخلوقون له، بل العبودية الكاملة والخالصة هي من أخص صفاتهم، وقد وصفهم الله بها في أعلى المقامات وأشرفها.

= **الثالثة**: أن يرى الملائكة مصورة بصور محسوسة ويسمع كلامهم وحياً من الله إليه قالوا: ولا يستنكر أن يحصل له في يقظته مثل ما يحصل للنائم في نومه من مشاهدة أشخاص يكلمونه بكلام منظوم دال على معان مطابقة للواقع وذلك لتجرد نفسه عن الشواغل البدنية وسهولة انجذابه إلى عالم القدس، فإذا انجذبت إليه واتصلت به في يقظته شاهد المعقولات كمشاهدة المحسوسات فإن القوة المتخيلة، تكسو المعقول المرتسم في لباس المحسوس وتنقشه في الحس المشترك على نحو انتقاش المحسوسات فيه من خارج. هـ شرح الواقف ج ٨ ص ٢١٨، ٢٢٠. فهم لا ينكرون النبوة، ولكنهم فسروها بما يخالف الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، لأنهم ينكرون صدور البعثة عن الباري بالاختيار، ويفسرون واجب الوجود بأنه غير فاعل باختياره، كما ينكرون نزول الملك بالوحي من السماء، لاستحالة خرق الأفلاك عندهم، وهكذا نراهم قد فتحوا الباب للمتنبئين على مصراعيه، فلم تختتم عندهم النبوة بل كل شخص أراد الإفساد يستطيع أن يدَّعي النبوة.

(١) المغني للقاضي عبد الجبار ج ١٥/ ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٠٥.

(٣) سورة الجمعة، الآيات ٢ ـ ٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٩.

فقال تعالى: ﴿سبحانَ الَّذي أَسْرَى بعبدِهِ ليلاً من المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقصَىٰ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عبدِهِ ليكونَ للعالَمِين نَذِيراً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿واذْكُرْ عَبَادَنَا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُولِي الأيْدِي والأَبْصَار﴾[3].

وقال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عليهِ وجعلنَاهُ مَثَلاً لبني إسرائيلَ﴾[4]، وقال المسيح: ﴿إنِّي عبدُ الله آتَانِيَ الكِتَابَ وجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[5].

وقد بيَّنَ القرآنُ الكريم، أنَّ من صفاتِهم:

أولاً: البشرية، قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُوحَى إليَّ أَنَّما إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحداً﴾[6]. وقال تعالى: ﴿قالتْ لهم رُسُلُهُمْ إنْ نحنُ إلاَّ بشرٌ مِثْلُكُمْ ولكِنَّ الله يَمُنُّ علَى مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[7].

ثانياً: أنَّهم لا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً، ولا يعلمون من أمر الغيب شيئاً إلاَّ ما علمهم الله إيَّاه. قال تعالى: ﴿قُلْ لا أمْلِكُ لنفسي نَفْعاً ولا ضَرّاً إلاَّ ما شَاءَ الله ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ مِنَ الخيرِ وما مَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أنَا إلاَّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يُؤمِنُون﴾[8].

ثالثاً: وأنهم لا يستطيعون تغيير نظام الكون ولا خرق نواميسه، إلا بإذنه تعالى فيما يجعله لهم آية دالة على صدقهم فيما يدعون من الرسالة. قال

(١) سورة الإسراء، الآية ١.
(٢) سورة الفرقان، الآية ١.
(٣) سورة ص، الآية ٤٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٥٩.
(٥) سورة مريم، الآية ٣٠.
(٦) سورة الكهف، الآية ١١٠.
(٧) سورة إبراهيم، الآية ١١.
(٨) سورة الأعراف، الآية ١٨٨.

تعالى: ﴿وقالُوا لن نؤمنَ لكَ حتى تُفجّرَ لنَا مِنَ الأرضِ ينبوعاً * أو تكونَ لكَ جَنَّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجّرَ الأنهارَ خِلالَها تَفْجِيْراً * أو تُسْقِطَ السَّماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تَأْتِيَ بالله والملائكةِ قَبِيْلاً * أو يكونَ لكَ بيتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى في السَّماءِ ولَنْ نُؤمِنَ لرقيّكَ حتَّى تُنَزِّلَ علينا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ ربِّي هَلْ كنتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وقَالُوا لولا أُنْزِلَ عليه آياتٌ مِنْ ربِّهِ قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ اللَّهِ وإنَّما أنَا نذيرٌ مبينٌ﴾[2].

كما بيّن القرآنُ الكريم أنَّه يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من سُنَنِ الله الّتي قَدَّرَها على عبادِهِ، من مرضٍ، وجوعٍ، وشبعٍ، وعطشٍ، وحياةٍ، وموتٍ، فهم يعيشُون كما يعيشُ سائرُ أفرادِ البشَر، قال تعالى: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[3].

وقد عجب كفار قريش من كون الرسول بشراً مثلهم، يأكلُ كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويمشي في الأسواق طلباً للمعيشة والرزق. قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وقالُوا مَالِ هٰذا الرَّسُولِ يأكلُ الطَّعَامَ ويمشِي في الأسواقِ لولا أُنْزِلَ إليهِ مَلَكٌ فيكونَ معَهُ نذيراً﴾[4]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أنَا بشرٌ مثلُكُمْ يُوحَى إليَّ أَنَّما إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ فمَنْ كانَ يرجُو لِقَاءَ ربِّهِ فَلْيَعْمَلْ عملاً صَالِحاً ولاَ يُشْرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحداً﴾[5].

ولو أنَّ الأنبياء والرسل من البشر فإنَّه لا يجوز وصفهم بالعبقريَّة ولا بنبوغ الشَّخصية، ولا ما أشبه ذلك من الألقاب التي شاعتْ على أقلامِ بعضِ الكُتّابِ[6]. ذلك أن العبقرية مثلاً قد لا تمثل إلاَّ جانباً واحداً من جوانب الحياة، كأن يكون عبقرياً في السِّيَاسة، أو في الطب، أو في الهندسة، أو في

---

(١) سورة الإسراء، الآيات ٩٠ ـ ٩٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية٥٠.

(٣) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٧.

(٥) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٦) أمثال عباس محمود العقاد، في كتابه المُسَمَّى بـ «عبقريةُ محّمدٍ» ﷺ.

الكيمياء، إذا استطاعَ الشخص أنْ يصل إلى الدرجة العالية في هذه المهنة أو في هذا العلم. أمَّا النُّبُوَّةُ والرِّسَالةُ فلا يصلُ إليها أحدٌ بسعيهِ بأعمالهِ، ولا بسموِّهِ بأخلاقِهِ، وإنَّما هي اصطفاءٌ مِنَ الله تعالى فقط!!.

البحث الخامس

عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام

مَسْلَكُ القرآن الكريم في العِصمة:

وكما وصف القرآن الأنبياء عليهم السلام، بأنهم مصطفون وأخيار، قد أعدَّهم الله إعداداً خاصاً لحمل رسالاته إلى عباده، فكذلك عرض ما حدث من بعضهم عليهم صلوات الله وسلامه، من ارتكاب بعض ما حظرَهُ الله عليهم، ونهاهم عنه، كما بين القرآن، أنهم لجأوا إلى خالقهم وطلبوا عفوه ومغفرته، كما صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى قد قَبِل توبتهم وتجاوز عنهم، وظاهر القرآن يدل على أن ما كان وقعَ من تلك الذنوب فقد صدر منهم قبل النبوة، كقصة موسى عليه السلام في قتله القبطي. أما بعد النبوة، فلم يرد في القرآن صراحة ما يدل على أنهم قد وقعت منهم الذُّنوب، بل كل ما ورد في القرآن كان من باب الخطأ في التأويل، وسنعرض لهذا الإجمال ببعض التفصيل بذكر الآيات التي ورد فيها ذكر تلك القصص.

أولاً: قصة آدم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وإذْ قُلْنَا للملائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ أبَى * فَقُلْنَا يا آدَمُ إنَّ هَذا عَدُوٌّ لكَ ولزوجِكَ فلاَ يُخرجنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى.. [إلى قولهِ تعالى]: وعصَى آدَمُ ربَّهُ فغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عليهِ وهَدَى﴾[1].

---

(١) سورة طه، الآيات ١١٥ ـ ١٢٢.

وقد أوضحت آياتٌ أخرى، أنَّ الله عزَّ وجلَّ أباحَ لآدمَ وزوجهِ أن يأكلا من كلِّ ثمارِ الجنَّةِ، إلاَّ شجرةً مُعَيَّنَةً فقَدْ نَهاهُمَا عنها. قال تعالى: ﴿ويا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حيثُ شِئْتُمَا ولاَ تَقْرَبَا هَذهِ الشَّجَرَةَ فتكُونَا مِنَ الظَّالمين﴾[١].

كما بين سبحانه وتعالى، أن إبليس لا زال بهما يوقعهما ويدلهما بغروره وكيده على الوقوع في النهي ويقسم لهما بأنه لهما ناصح أمين حتى أزلهما، فأكلا من تلك الشجرة المحظورة عليهما. قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهما سَوْءَاتُهمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ ونَادَاهُمَا ربُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجرةِ وأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشَّيطانَ لكما عَدوٌّ مبينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظلمنَا أنفُسَنَا وإنْ لم تَغْفِرْ لنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرين﴾[٢].

فهذه الآيات تدل على أنه وقع من آدم عليه السلام، ارتكاب الذنب، إذ نُهِيَ عن الأكل من تلك الشجرة، ولكنه أكل منها، وقد سمى الله ذلك الفعل منه معصية، ثم إن آدم جعل ذلك العمل منه ظلماً لنفسه، وإن لم يتداركه ربه بمغفرته وعفوه، كان من الخاسرين.

يقول ابن جرير في قوله ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ يقول: وخالف أمر ربِّه، فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، ﴿ثم اجتبَاهُ. . .﴾: اصطفَاهُ ربُّه من بعدِ معصيته إيَّاه فرزَقَهُ الرجوعَ إلى ما يرضَى عنه، والعمل بطاعته[٣].

ونقل الزمخشري عن ابن عباس قوله: «لا شُبْهَةَ في أنَّ آدَمَ لم يمتثلْ ما رَسَمَ الله له وتَخَطَّى فيه ساحةَ الطَّاعةِ، وذلك هو العصيانُ، ولمَّا عصَى خرجَ فعلُهُ من أن يكون رشَداً وخيراً، فكان غَيّاً لا محالةَ، لأنَّ الغَيَّ خلافُ الرُّشْد»[٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) محمد بن جرير الطبري، التفسير ج ١٦ ص ٢٢٤ الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

(٤) الزمخشري، الكشاف ج ٢ ص ٥٥٧ الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

وقد أورد ابن كثير في تفسير آيات سورة «طه» ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (حَاجَّ موسى آدمَ فقالَ له: أنتَ الذي أخرجتَ النَّاسَ من الجنَّةِ بذنْبِكَ وأشقيتَهم؟! قال: قال آدمُ: يا موسى أنتَ الذي اصطفاكَ الله برسالاتِهِ وبكلامِهِ، أتلُومُنِي على أمرٍ كتبَهُ الله قبلَ أن يخلقَنِي، أو قَدَّرَهُ عليَّ قبل أن يخلقني؟! قال رسولُ الله ﷺ: فَحَجَّ آدمُ موسَى)[1].

هذه النصوص القرآنية تدلُّ دلالةً صريحةً على أن آدم عليه السلام قد أزلَّهُ الشيطان فارتكبَ ما نهَاهُ عنه، وصرحتِ الآيةُ الكريمةُ وهي قوله تعالى: ﴿وَعصَى آدمُ ربَّهُ فَغوى﴾ بأنَّ تلكَ المخالفةَ كانتْ معصيةً لله تعالى، وقد ترتَّبَ على ارتكاب ذلك الذنب إخراجَهُ مِنَ الجنَّة؛ وسواء كان ذلك الذنب الذي صدرَ منه قبل النُّبوَّة، كما يرى بعضُ العلماء، أم كان بعدَها، فقد صرَّحَ القرآنُ الكريم بتوبتهِ، وأن الله عزَّ وجلَّ غفرَ له تلك الزلَّة وتابَ عليه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فَتَابَ عليهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرحيم﴾[2].

ثانياً: قصة إبراهيم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أَتَتَّخِذُ أصْنَامَاً آلهةً إنِّي أراكَ وقومَكَ في ضلالٍ مبين * وكذلك نُري إبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والأرض وليكونَ مِنَ المُوقِنين * فلمَّا جَنَّ عليه اللَّيلُ رَأى كوكباً قال هذا ربِّي فلمَّا أفَلَ قال لا أُحِبُّ الآفِلين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فلمّا أفلتْ قالَ يا قوم إنِّي بريءٌ ممّا تُشْرِكُونَ * إنِّي وجهتُ وجهيَ للَّذِي فطرَ السَّماوَاتِ والأرضَ حَنِيفاً وما أنا مِنَ المُشْرِكين﴾[3].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «والحقُّ أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيِّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من

---

(١) ابن كثير: التفسير ص ١٦٧، ١٦٨ ج ٣. والحديث في صحيح الإمام البخاري/ كتاب التفسير/ باب ٣ ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ من فتح الباري ج ٨ ص ٤٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٧.

(٣) سورة الأنعام، الآيات ٧٤ ـ ٧٩.

عبادة الهياكل والأصنام، فبيَّن، في المقام الأول، مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السَّماويَّة، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنَّما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك».

وبيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة وهي القمر وعطارد. . . الخ.

وأشدُّهُنَّ إضاءة، وأشرفهُنَّ عندَهم الشمسُ ثم القمرُ ثم الزُّهْرَةُ، فبيَّن أولاً، صلواتُ اللَّهِ وسلامه عليه، أنَّ هذه الزُّهرة لا تصلح للإلٰهيَّةِ، فإنَّها مسخَّرة مقدرة بسير معيَّنٍ لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جُرْمٌ من الأجرام خلقها الله منيرةً لِما لهُ في ذلك من الحِكَم العظيمة!!. ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثلَ ما بيَّنَ في النَّجْم، ثم انتقلَ إلى الشمسِ كذلك فلما انتفتِ الإلٰهيَّةُ عن هذه الأجرام الثلاثةِ الَّتي هي أنور ما تقعُ عليه الأبصار، وتحقَّقَ ذلك بالدَّليل القاطع ﴿قالَ يا قوم إنِّي بريءٌ ممَّا تُشْرِكُون﴾ . . . وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقِّهِ: ﴿ولقدْ آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قبلُ وكنَّا بهِ عَالِمين﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿إنَّ إبراهيمَ كان أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً ولم يَكُ من المشركين * شاكراً لأنعمِهِ اجْتَباهُ وهَدَاهُ إلى صراطٍ مُسْتَقِيم. . .﴾ الآيات[1].

وبهذه الحجج القرآنية الواضحة تبيَّن لنا أنَّ قول إبراهيم عليه السلام، ﴿هذا ربِّي﴾ لم يكن من باب النظر ليكون اعتقاداً، ولا من باب الكذب، لأنَّه لم يكن إخباراً، وإنما هو من باب الفَرَضِ في حال المجادلة والمناظرة، لإقامة الحجة على الخصم، يُوضِّحُ ذلك قولُهُ تعالى بعد تلك الآيات السابقة ﴿وحَاجَّهُ قومُهُ قال أتحَاجُّونِّي في الله وقدْ هَدَانِ ولا أخافُ ما تُشْرِكُونَ بهِ. . .﴾ الآيات.

وأما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قالَ بلْ فعلَهُ كبيرُهُمْ هذا﴾، يعني الذي تركه ولم يكسره ﴿فاسْألُوهُمْ إنْ كانُوا يَنْطِقُون﴾.

---

(١) ابن كثير ـ التفسير ج ٢ ص ١٥١.

قال ابن كثير: وإنَّما أرادَ بهذا أن يُبادروا من تلقاءِ أنفسِهم فيعتَرِفُوا أنَّهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدرُ عن هذا الصنم لأنَّه جماد[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فنظرَ نظرةً في النُّجُوم * فقال إنّي سقيم * فَتَولَّوا عنه مُدْبِرين﴾.

إنَّما قال إبراهيم عليه السلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنَّه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حقٌّ في نفس الأمر، فهموا منه أنَّه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَتَوَلَّوا عنه مُدْبِرِين﴾. قال قتادة: والعربُ تقولُ لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر في السماء متفكراً فيما يُلهيهم به فقال: ﴿إنِّي سَقيم﴾ أي ضعيف، قال: فأما الحديث الذي أورده ابن جرير هاهنا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لم يكذب إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام غيرَ ثلاثِ كذباتٍ: ثنتين في ذاتِ الله تعالى، قوله ﴿إنّي سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعلَهُ كبيرُهُمْ هذا﴾ وقوله في سارة هي أختي) فهو حديث مخرج في الصِّحاح والسُّنن من طُرق، ولكن ليسَ هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُذَمُّ فاعِلُهُ، حَاشَا وكَلاَّ، وإنَّما أطلق الكذبَ على هذا تجوُّزاً، وإنَّما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في روايةٍ (إنّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب)[2].

ولفظ الحديث في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) ابن كثير ـ التفسير ج ٣ ص ١٨٣.

(٢) ابن كثير التفسير ج ٤ ص ١٣؛ والحديث: إن في المعاريض لمندوحة... رواه ابن عدي عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، ورواه البيهقي مرفوعاً، وابن السني في الدور موقوعاً، ورواه البخاري في الأدب المفرد، المناوي:/ فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٧٢ الطبعة الأولى سنه ١٣٥٦هـ رقم الحديث ٢٣٣٢ وسنده ضعيف

والمعاريض جمع معراض كمفتاح من التعريض، وعرفة الأقدمون، بأنه ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم. والمتأخرون كالمولى التفتازاني عرفه بأنه ذكر شيء مقصود بلفظ (غير) حقيقي، أي: مجازي أو كنائي ليدل به على شيء آخر لم يذكر في الكلام ـ المناوي/ فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٤٧٢.

(لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ: قوله: ﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعلَهُ كبيرُهُمْ هذا﴾ وقال: بينما هو ذاتَ يوم وسارةُ إذْ أتى على جَبَّار مِنَ الجبابرة، فقيل له: إنَّ هاهنا رجلاً معه امرأة منَ أحسنِ النَّاس، فأرسلَ إليهِ فسألَهُ عنها فقال: مَنْ هذه؟ قال: أُختي، فأتى سارة قال: يا سارةُ ليسَ على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنكِ فأخبرتُه أنَّكِ أخْتِي، فلا تُكَذِّبِيْنِي.

فأرسلَ إليهما، فلمَّا دخلتْ عليه ذهبَ يتناولها بيده فأُخِذَ، فقال ادْعي الله لي ولا أضرك، فدعتِ الله فَأُطْلِقَ. ثم تناولَها الثانية فأُخِذَ مثلها أو أشد، فقال: ادْعي الله لي ولا أضرك، فدعتْ فأُطْلِقَ. فدَعَا بعضَ حَجَبَتِهِ فقال: إنَّكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان، فأَخْدَمَها هاجر. فأَتَتْهُ وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رَدَّ الله كَيْدَ الكافر ـ أو الفاجر ـ في نحره، وأخدمَ هاجر).

قال أبو هريرة: تلك أُمُكُمْ يا بني ماءَ السماء[1].

قال ابن حجر في الفتح: وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض.

وقوله «هذه أختي» يعتذر عنه بأن مراده أنَّها أخته في الإسلام كما في رواية هشام بن حسان أنه قال لها: «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنَّك أختي، وأنَّك أختي في الإسلام» قال: وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام، وإباحة المعاريض[2].

قصة موسى عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿ودخل المدينة على حينِ غفلةٍ من أهلها فوجدَ فيها

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿واتَّخذَ الله إبراهيمَ خليلاً﴾. فتح الباري ج ٦ ص ٣٨٨.

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ٣٩٤.

رجلين يقتتلاَنِ هذا من شيعتهِ وهذا من عدوِّهِ فاستغاثَهُ الَّذي من شيعتهِ على الذي من عدوهِ فوَكَزَهُ موسَى فقضَى عليهِ، قالَ هذا من عملِ الشيطانِ إنَّه عدوٌّ مُضِلٌّ مبينٌ * قالَ ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي فاغْفِرْ لي فغَفَرَ له إنَّهُ هو الغَفُورُ الرحيم﴾[1].

فوكزه، قال مجاهد: طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه، فقضى عليه، أي كان فيها حتفه فمات[2].

ولا ريب أن قتل النفس بغير حقٍّ من الكبائر، وقد كان قتل موسى عليه السلام للقبطي كذلك. لكن صريح القرآن يدلُّ على أنَّ ذلك الذنب وقع من موسى عليه السلام قبل النبوة، فعلى أثر ذلك الحادث خرجَ من مصرَ خائفاً من بطش فرعون وملئه، حينما علم أنَّهم يأتمرون لقتلهِ، وبعدَ أن وصلَ إلى مَدْيَنَ، وقضى المدَّةَ عندَ شُعيب، ثم سارَ بأهلهِ عائداً إلى مصر، وفي مسيرته تلك تمت بعثتُهُ إلى فرعونَ وقومِهِ؛ وعندها قال موسى عليه السلام مخاطباً ربَّه، ﴿قال ربِّ إنِّي قتلتُ منهم نَفْسَاً فأخَافَ أنْ يَقْتُلُونِ﴾[3]. وقال له فرعون ذلك أيضاً، يقول الله تعالى: ﴿قال ألم نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيْداً ولبثتَ فينا مِنْ عُمُرِكَ سنين * وفعلتَ فعلتَكَ الَّتي فعلتَ وأنتَ من الكافرين * قالَ فعلتُها إذاً وأَنَا مِنَ الضَّالين﴾[4]. قوله ﴿من الكافرين﴾ أي. . . الجاحدين لنعمتِنَا عليكَ، فقد قابلت ذلك البر والإحسان منّا إليك بفعلتِكَ تلك فقتلتَ منَّا رجلاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقوله ﴿وأنَا مِنَ الضَّالين﴾ أي قبل أن يُوحىٰ إلي وينعم الله عليَّ بالرسالة والنّبوّة. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وأنا من الضَّالين﴾ أيْ الجاهلين، قال ابن جريج: وهو كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[5].

---

(١) سورة القصص، الآيتان ١٥ ـ ١٦.
(٢) ابن كثير، التفسير ج ٣ ص ٣٨٢.
(٣) سورة القصص، الآية ٣٣.
(٤) سورة الشعراء، الآيات ١٨ ـ ٢٠.
(٥) ابن كثير، التفسير ج ٣ ص ٣٣٢.

وقد صرَّحَ القرآن الكريم بأنَّ موسى عليه السلام لجأ إلى ربِّه فطلبَ منه العفوَ والمغفرةَ من ذلك الذنب الذي ارتكبه، كما بين القرآن أيضاً أنَّ الله عزَّ وجلَّ تجاوزَ عنه وغفرَ له ذنبَهُ، بقوله تعالى: ﴿قال ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسِي فاغْفِرْ لي فغفرَ لَهُ إنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ﴾[1].

ما ذكر عن نبيّنا محَمّدٍ ﷺ:

يقول تعالى: ﴿ما كانَ لنبيٍّ أن يكونَ له أسْرَى حتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ تُرِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والله يُرِيدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾[2].

يبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ لعبادِهِ، أنَّ سنتَهُ المطَّردة لأنبيائهِ جميعاً، أنْ لا يكون لهم أسرَى إلاَّ بعدَ الإكثارِ من القتلِ لِيُذِلَّ الكفرَ وأهلَهُ ويُقِلَّ حِزْبَهُ، ويُعزَّ الإسلامَ وأهلَهُ، وقد ذكر المفسرون لهذه الآيات، أنَّه في غزوة بدرٍ بعد انتهاء المعركة، وانتصار المسلمين على أعدائهم، أسرَ المسلمون من كفار قريش سبعين أسيراً، وأنَّ الرسول ﷺ استشار أصحابه في أولئك الأسرَى ماذا يصنعُ فيهم؟ وقد أشار بعضُ الصحابة بقتلهم، وأشارَ البعضُ الآخر باستبقائهم لعلَّ الله يهديهم للإسلام، ثم أخذ الفدية منهم ليستعين بها المسلمون على حوائجهم، فكان الأمر موضع اجتهاد منه ﷺ، إذْ لم ينزل عليه وحيٌ في ذلك، وهو الرؤوف الرحيم بأمته يرجو الله أن يهديهم إلى دينِهِ وتوحيدِهِ، ولذا فقد أخذَ برأي القائلين باستبقائهم وأخذَ الفديةَ منهم، وكان الأولى أن يأخذ برأي القائلين بقتلهم، فنزلَ قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي...﴾ الآية، مؤيداً لرأي القائلين بالقتل، ومؤكداً أنَّ تلك هي سنَّة الله لجميع أنبيائه مع أعدائهم، وكان الأولى الأخذُ بها، ومبيناً أنَّه لولا حكمٌ منه تعالى سبقَ إثباتُهُ في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو أن لا يعذب قوماً لم يصرح لهم بالنَّهي، لمسَّهم فيما أخذوه من الفداء عذابٌ عظيم. واختار ابن جرير في تفسير قوله ﴿لولا كتابٌ

---

(١) سورة القصص، الآية ١٦.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

سبقَ . . .﴾ أي لهذه الأمة بإحلال الغنائم[١] .

بهذا يتبيَّنُ لنا أنَّه ﷺ لم يخالف أمراً ولم يرتكب نهياً، وإنما اجتهد فوقع اختيارُهُ على خلافِ الأولى . والله أعلمُ .

وقوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عنكَ لِمَ أذِنْتَ لهم حتَّى يتبيَّنَ لكَ الَّذينَ صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكَاذِبِين﴾[٢] صريح في أنَّ الله تعالى عفَا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقعَ منه عندَ استئذانِ المتخلِّفين في التخلف عن الغزو معتذرين بعدم استطاعتهم، ومُؤكِّدين ذلك بأيمانهم، وكان الأولى أن لا يأذن لهم، بل يتوقف ويتأنَّى حتى ينجليَ أمرُهم وينكشفَ حالُهم فيعلمَ الصادق منهم في عُذْرِهِ، ويظهرَ الكاذبُ فيما أخبرَ بِهِ عند اعتذاره[٣] . وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ إذ لم يأتِهِ نصٌّ في ذلك فوقعَ اختيارُهُ على خلاف الأولى .

قال قتادة : عاتَبَهُ كما تسمعون ثم أنزلَ التي في سورة النور فرخَّصَ له في أن يأذَنَ لهم إن شاءَ فقال تعالى : ﴿فإذا اسْتَأْذَنُوكَ لبعضِ شأنِهم فأذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم﴾ الآية .

فتبيَّن من جميع ما تقدّم أنّ ما كان من الأنبياء السّابقين، وما كان من نبيّنا صلى الله عليه وعليهم جميعاً وسلم تسليماً كثيراً، لا يُؤثّر على عصمتهم ولا يقدح في مقامهم .

وعلى هذا فلا تجوزُ نسبةُ الأخطاء للأنبياء عامّة ولنبيّنا خاصّةً، ولا يجوز تخطئتهم أو التكلّم في مقامهم كما فعل المتكلمون حيث نسبوا إليهم الذنوب ثم عكفوا على تعليلات واهية تبرّر لهم صنيعهم، والواجب علينا أن نُؤمن بعصمتهم وطهارتهم من الذنوب والمعاصي، وأنّ الله تعالى قد عصمهم من كل ذلك .

---

(١) الإمام ابن جرير الطبري، التفسير ص ٤٤ ج ١٠، وابن كثير التفسير ج ٣ ص ٣٢٥، ٣٢٦ وأبو السعود التفسير ج ٢ ص ٥٠٨، ٥٠٩.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٣) أبو السعود، التفسير ص ٥٥٦ ج ٢.

البحث السادس

الإيمان بجميع الأنبياء والرُّسل يستلزم الإيمان بما أُنزل إليهم من الكتب والصُّحف

يستلزم الإيمانُ بالرسل، الإيمانُ بالكتب التي تلقاها هؤلاء المرسلون من ربِّ العالمين، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿كلٌّ آمَنَ بالله وملائكتهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رُسُلِهِ﴾[1].

وأول ما نلمحه من الحكمة البالغة في إنزال الكتب على هؤلاء المرسلين.. أنَّه توجيه للعلم.. وإرشاد للإنسانية إلى فضيلة الكتابة، إذ هي أداة إلى المعرفة وتلقي ما أرادَهُ الله من عباده في هذه الكتب التي جاء بها المرسلون.. فالكتب، تستلزم الكتابة، والكتابة وسيلة المعرفة، ولهذا كانت بداية الوحي إلى خاتم النَّبيِّين محمد ﷺ توجيهاً إلى هذه الحقيقة، إذ قال له الحقُّ سبحانه: ﴿اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خلقَ * خلقَ الإنسانَ من علقٍ * اقرأ وربُّكَ الأكرمُ * الذي علَّمَ بالقلمِ * علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يعلمْ﴾[2]. وهذا ما ينبغي أن تلتفت البشرية إليه، لتدرك أثرَ الدِّين الحقِّ في نشر الضياء والدعوة إلى العلم.. فلو شاءَ الله سبحانه لجعل الوحي كلاماً يحفظ دون كتابة، ولكنَّه سبحانه وَجَّهَ عبادَهُ لكتابتهِ، لتكونَ هذه الكتب حجة على البشرية وأساساً لبناء العلم النافع الذي يهديها سبيل الرشاد..

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

(٢) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥.

أمَّا الحكمة في تعدُّدِ الكتب السماوية وتعاقبها، حتى خُتِمَتْ بالقرآن الذي نزلَ مصدِّقاً لِما بينَ يديهِ من الكتاب ومهيمناً عليه. . فذلك ـ والله أعلم ـ لأنَّ كل كتاب منها قبل القرآن. . كان يناسب مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية التي تطورت جيلاً بعد جيل. . ولأن هذه الكتب، غير القرآن، لم تكن معجزة في بيانها، ولم تكن منزلة للتحدي، وقد أصابها من التحريف والنسخ ما جعل الضرورة تقضي بتعاقب نزولها. . حتى جاء القرآن المعجزة الكبرى لنبيِّنا محمدٍ ﷺ محفوظاً من التحريف، فتحدَّى بهِ، متعبداً بتلاوتهِ. . فكان هو الكلمةُ الأخيرةُ والمعجزةُ الفاضلةُ، والحجةُ القائمةُ على البشرية إلى أن تقوم السَّاعة. .

وقد جاء في القرآن ذكر أربعة كتب: صحفُ إبراهيمَ، والتوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبُورُ. أمَّا صحف إبراهيم فقد ذُكرت في قوله تعالى: ﴿أمْ لَمْ يُنَبَأْ بما في صُحُفِ موسَى * وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[1]، وأمَّا زبور داود فقد جاءَ ذكره في قوله تعالى: ﴿وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[2]، وأمّا التوراة والإنجيل فقد ذُكِرَا في كثيرٍ من آياتِ القرآن، بقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزلَنا التوراةَ فيها هُدَى ونورٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا على آثارِهم بعيسَى ابنِ مريمَ مُصَدِّقاً لِما بينَ يديهِ من التوراةِ وآتيناهُ الإنجيلَ فيه هُدَىً ونُورٌ﴾[3] ولم يبقَ من هذهِ الكتبِ في أيدي النَّاسِ إلاَّ التَّوراةُ والإنجيلُ. .

وقد بيَّنَ القرآن أنَّ اليهود حرَّفوا التوراة، كما أنَّ النَّصارى بَدَّلُوا الإنجيل، فهو يقول عن اليهود: ﴿يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ﴾[4] ويقول عن النَّصارى: ﴿ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى أخذنَا ميثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظَّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بهِ﴾[5].

والدليل الواضح على تحريف التوراة والإنجيل اللذين في أيدي الناس اليوم، ما نَجِدُهُ فيهما من مخالفة لحقائق الإيمان كما جاء بها القرآن. . ففي

---

(١) سورة النجم، الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية ١٦٣.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٦.

(٤) سورة المائدة، الآية ١٣.

(٥) سورة المائدة، الآية ١٤.

التوراة المحرفة التي بأيدي اليهود اليوم نجِدُ الشَّنَاعَاتِ والقبائحَ منسوبةً إلى أنبياء اللَّهِ سبحانه.. بل نجد في هذا الكتاب المحرف سوءَ الأدَبِ في الحديث عن ربِّ العالمين سبحانه، وقد نعى القرآن عليهم هذا الصنيع في قوله تعالى: ﴿فويلٌ للذين يكتُبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا مِنْ عندِ الله لِيَشْتَرُوا بهِ ثمناً قليلاً، فويلٌ لهم ممَّا كتَبَتْ أيديهم وويلٌ لهم ممَّا يَكْسِبُون﴾[1].

والإنجيل الذي في أيدي النّصارى اليوم، إنْ هو إلاَّ قصص وأخبار مروية عن بعض تلامذة المسيح عليه السلام، وأقوال له عليه السلام مروية عن تلاميذه..

أمّا الوحي الذي أوحَاهُ الله إلى عيسى عليه السلام وقال عنه سبحانه: ﴿وآتينَاهُ الإنجيلَ فيه هُدىً ونورٌ﴾[2] فليس موجوداً بين النصارى، بل ضاع منهم، وفي هذا الإنجيل الذي كتب بعد رفع المسيح عليه السلام بمئات السنين، أخبار عن صلب المسيح، وقد بيَّنَ القرآنُ أنَّ ذلك لم يقعْ بيقين: ﴿ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولكِنْ شُبِّهَ لهم﴾.

أمَّا التَّوراةُ فإنَّ من دلائل تحريفها هذه الوعود المفتراة التي يزعمها اليهود، من وطن لهم من النيل إلى الفرات، ومن أرض فيها السَّمن والعسل! تكون لهم، يزعمون أنها أرض فلسطين.. وهذا افتراءٌ مبين، يخالف السُّنَّة الإلٰهية التي أعلنها القرآن: ﴿إنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. وقد بيَّنَ القرآنُ كذبَ زعم اليهود أنَّهم شعب الله المختار.. فقال سبحانه: ﴿وقالتِ اليهودُ والنَّصارَى نحنُ أبْنَاءُ الله وأحبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بذنوبِكم بَلْ أنتُمْ بَشَرٌ ممَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، ومن هنا فلا يعقل أن يخصَّ الله سبحانه هؤلاء الخارجين على شريعته، المحاربين لرسله، بكون فلسطين وطناً لهم.. وفيها المسجد الأقصى الذي لا يقدِّر هؤلاء قدره ولا يرعون حرمته.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٧٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٨.

ومجمل القول أن هذا الافتراء الذي سجله اليهود بأيديهم.. دليل على تحريف التوراة، بحيث صارت معبرة عن أطماعهم.. مسايرة لأهوائهم، مساندة لبغضهم للبشر وعدوانهم على الشعوب.

القرآن وحده هو الكتاب السّماويّ الصحيح في أيدي الناس اليوم:

ومن هنا فلا ريب في أن القرآن وحده هي الكتاب السماوي الصحيح في أيدي الناس اليوم، وأما تسمية هذه الكتب المحرَّفة، بالسماوية، فإنما هو باعتبار أصلها، قبل أن يصيبها التبديل والزيادة والنقص.

والقرآن هو المرجع الحق الذي يحكم على ما في هذه الكتب التي بقيت بأيدي اليهود والنصارى.. فهو مصدِّق لما يكون فيها من حق.. كاشف عن التحريف الذي أصابها، مبين لوجه الحق فيه.. وهذه هي الهيمنة للقرآن على الكتب السابقة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وأَنْزَلْنا إليكَ الكِتَابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لِما بينَ يديهِ مِنَ الكتابِ ومُهيمناً عليهِ﴾[1].

فهو الذي واجه أهل الكتاب بما وقعوا فيه من انحرافات وضلالات.. كقوله سبحانه: ﴿يا أهلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِيْنِكُمْ ولا تَقُولُوا على الله إلاَّ الحقَّ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وقالتِ اليهودُ عزيرٌ ابْنُ الله وقالتِ النَّصارَى المسيحُ ابْنُ الله ذلكَ قولُهُمْ بأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قولَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قبلُ قاتَلَهُمُ الله أنَّى يُؤْفَكُون * اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم ورُهْبَانَهُم أرْبَاباً مِنْ دُوْنَ اللَّهِ والمسيحَ ابْنَ مريم، ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبدُوا إلٰهاً واحداً لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

وقد تضمنت سورة آل عمران حواراً مع النَّصارى واليهود.. حاكمهم فيه إلى مقتضى العقل وحقائق الإيمان التي لا يسع عاقل أن ينكرها، لكنهم لا يريدون الحوار على هذه الأسس.. بل يقفون موقف التعصب والجمود على موروثاتهم التي خلفها لهم أسلافهم دون مناقشة.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية ١٧١.

(٣) سورة التوبة، الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

وفي القرآن بيان لوجه معجزته، وتحدٍّ للإنس والجن أن يأتوا بمثله.. فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد ذكر لفظ «القرآن» في القرآن سبعين مرة، لَوْ تدبرَّها المسلم لكفت وأغنت في تأمل حديث القرآن عن القرآن.. فقد جاء في الكتاب العزيز ذكر الشهر الذي نزل فيه القرآن: ﴿شَهْرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القرآنُ هُدَىً للنَّاسِ وبيِّناتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَان﴾[1]، كما جاء فيه بيان الحكمة من إنزال هذا الكتاب الحكيم. فقال سبحانه: ﴿إنَّ هٰذا القرآنَ يهدي للَّتي هي أقْوَمُ ويُبَشِّرُ المؤمنينَ الَّذِينَ يعملُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهم أجْراً كبيراً﴾[2]، ﴿طَه * ما أنْزَلْنَا عليكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إلاَّ تذكرةً لمن يخشَى﴾[3]. فالقرآنُ سبيلُ السعادةِ والأمانِ والطمأنينةِ.. ومن اتبعه لا يضل ولا يشقَى.. وهو تذكرة وتبصرة.. ثم تذكر الآيات مصدر القرآن وتبين أنه وحي من عند الله، وليس من قول البشر: ﴿تنزيلاً ممَّنَ خلقَ الأرضَ والسمٰواتِ العُلَى * الرحمٰنُ على العرشِ اسْتَوى﴾[4].

كما تضمن القرآن قَسَماً بالقرآن.. فقد أقسم الله سبحانه بهذا الكتاب تعظيماً له وتنويهاً بإعجازه، قال سبحانه: ﴿صَ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ * بلِ الذينَ كفرُوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿قَ والقرآنِ المجيدِ * بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ منهم﴾[6]، ﴿يَس * والقرآنِ الحكيمِ * إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين﴾[7].

ونلحظ أنَّ القَسَم بالقرآن يأتي في سياق بيان إعجازه، ودلالته على صدق الرسول الذي جاء به ﷺ..

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٩.
(٣) سورة طه، الآيات ١ ـ ٣.
(٤) سورة طه، الآيتان ٤ ـ ٥.
(٥) سورة ص، الآيتان ١ ـ ٢.
(٦) سورة ق، الآيتان ١ ـ ٢.
(٧) سورة يس، الآيات ١ ـ ٣.

وقد أقام القرآن الدليل على إعجازه، ورد شبهات الجاحدين المستكبرين. وجاء التحدي القرآني للمنكرين على ثلاثة مراحل: فقد تحداهم بالإتيان بمثله فعجزوا، ثم بعشر سور.. ولو كانت مفتراة في معانيها.. فعجزوا.. ثم بسورة واحدة فعجزوا..

أما المرحلة الأولى فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فليأتُوا بحديثٍ مثلِهِ إنْ كانوا صادقين﴾[1]، والثانية في قوله تعالى: ﴿أمْ يقولُون افترَاهُ قُلْ فأتُوا بعشْرِ سُوَرٍ مثلِهِ مفتَرَياتٍ﴾[2]، والثالثة في قوله تعالى: ﴿أمْ يقولُون افترَاهُ قُلْ فَأَتُوا بسورةٍ مثلِهِ وادْعُوا مَنِ استطعتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كنتُمْ صَادِقين﴾[3].

أمَّا ما حكاه القرآن عن المشركين المعاندين أنَّهم كانوا يقولون حين يسمعون القرآن: ﴿لو نشاءُ لَقُلْنَا مثلَ هذا إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين﴾[4]، فقد ذكر القرآن هذا القول عنهم تقريعاً لهم وبياناً لجهالتهم وكذبهم.. وإلاَّ فما الذي حال بينهم وبين هذا القول، ولو قالوا بمثله لأبطلوا دعوته.. وهم إنَّما حملوا السِّلاح في وجه الإسلام حين أعيتهم الحجةُ وامتنعتْ عليهم المعارضةُ.. فما كان أغنَاهُم عن هذا كلِّهِ.. لو أنَّهم جاؤوا بمثل القرآن.. أو مثل عشر سورٍ منه أو حتى سورة واحدة.. أمَّا الوقوف عندَ تَرْديْدِ هذا القول: ﴿لو نشاءُ لَقُلْنَا مثلَ هذا﴾ فما يغنيهم شيئاً أمام التحدي الذي أحاط بهم من كل جانب.. ولم يترك لهم عذراً.. إلاَّ العجز أمامه وانقطاع القدرة عليه..

ومن هنا سجل القرآن على العرب وعلى البشر جميعاً، وعلى الجن كذلك.. عجزهم الأبدي عن الإتيان بمثل هذا القرآن.. فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُون بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[5].

إنَّ تقرير هذا العجز الشَّامل كان خليقاً أن يهيج دواعي المعارضة، وأن

---

(١) سورة الطور، الآية ٣٤.
(٢) سورة هود، الآية ١٣.
(٣) سورة يونس، الآية ٣٨.
(٤) سورة الأنفال، الآية ٣١.
(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

يحمل شياطين الإنس والجنّ على محاولة إثبات القدرة على المعارضة لو استطاعوا إليها سبيلاً. وقد سمع المشركون هذا التأكيد الجازم الذي يسجل عليهم وعلى البشر أجمعين هذا العجز.. بل يسجل عجز الإنس والجن معاً.. ولو أعان بعضهم بعضاً.. ولو اجتمع شعراؤهم وأدباؤهم على مرّ العصور.. يساعد بعضهم بعضاً على هذه المعارضة، أفكانوا يسكتون على هذا التعجيز والتقريع، لو كان لديهم أدْنَى قدرة على الإتيان بشيء ممَّا تحدَّاهم به القرآن ولو سورة واحدة.. فالتحدي لا يزال قائماً!! والعجز ما يزال ماثلاً!! ويبقى القرآنُ معجزةَ كلِّ عصرٍ!! شاهدةً على صدق الرسول وصحة الرسالة!!.

وإنَّ إعراض المكذبين عن هداية هذا الكتاب وإعجازه لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً، فإن أثره في القلوب السليمة ظاهر لا يخفى.. إذ يهز المشاعر عند سماعه.. ويحرك القلوب إلى الخشوع واليقين: ﴿قُلْ آمِنُوا بهِ أوْ لاَ تُؤْمِنُوا، إنَّ الذين أُوتُوا العلمَ مِنْ قبلِهِ إذَا يُتْلَى عليهم يخرُّونَ للأذقَانِ سُجَّداً * ويقولُون سبحانَ ربِّنَا إنْ كانَ وَعْدُ ربِّنَا لمفعولاً * ويخرُّونَ للأذقانِ يَبْكُون ويزيدُهم خُشُوعاً﴾[1].

وهكذا نرى سورة واحدة من سور القرآن.. تلتزم الحديث عن إعجاز القرآن وأثره في النفس والحياة.. من بدايتها إلى نهايتها.. بما يربط بينها برباط الإقناع والتذكير بحقيقة هذا الكتاب الكريم، الذي هو المعجزة الباقية من معجزات الأنبياء جميعاً.. والذي تكفَّل الحق سبحانه بحفظه من الضياع أو التبديل، ليبقى مهيمناً على الكتب وحكماً فيما يختلف النَّاس فيه إلى يوم القيامة: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

الفصل الثاني

منهج القرآن في توثيق أخبار الأنبياء والرسل فهو أوثق مصدر لتاريخهم

وهو يشمل خمسة أبحاث:

البحث الأول : القرآن الكريم أوثق مصدر لتاريخ الأنبياء والرسل.

البحث الثاني : القرآن الكريم يسجل تاريخ خاتم النَّبيِّين ﷺ.

البحث الثالث : نماذج من أخبار دعوة الرسل عليهم السلام.

البحث الرابع : دحض شبهات المكذِّبين بالرسل عليهم السلام.

البحث الخامس : أحوال الرسل في القرآن الكريم.



البحث الأول

القرآن الكريم أوثق مصدر لتاريخ الأنبياء والرُّسل عليهم السلام

إنَّ القرآن الكريم الذي يُوقن كل مسلم بأنه لا ريب فيه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو المصدر الصحيح لقصص الأنبياء ومواقفهم مع أممهم، ولا يحتاج المسلم مع القصص إلى شهادة من التاريخ أو وثيقة من وثائق البشر!! فيكفي أنَّ الله سبحانه قال ذلك في كتابه، الذي قامت الدلائل على أنه وحي صادق وتنزيل من حكيم حميد!!.

قال الله سبحانه: ﴿نحنُ نقصُّ عليكَ نبأَهُمْ بالحقّ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينَا إليكَ هذا القرآنَ وإنْ كنتَ من قبلهِ لَمِنَ الغَافلِين﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿لقد كان في قصصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألباب، ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تصديقَ الَّذي بَينَ يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدَىً ورحمةً لقومٍ يُؤمِنُون﴾[3].

ومن هنا[4] فإن الزعم بأن القصص القرآني لا يستلزم الوجود التاريخي، أو أنَّه قصص للتأثير الفني، لا يلزم أن يكون مطابقاً للواقع ـ يخرج بصاحب

(١) سورة الكهف، الآية ١٣.

(٢) سورة يوسف، الآية ٣.

(٣) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٤) الإيمان في القرآن: للدكتور مصطفى عبد الواحد / ط دار الرائد العربي ـ بيروت، ص ١٣٨ ـ ١٤٧.

هذا القول الضال عن حقيقة الإيمان ويسلكه في عداد المكذبين بهذا الكتاب الكريم! .

إنَّها مقولة خاطئة. . ابتدأها بعضُ المستشرقين. . وتلقَّاهَا عنهم بعضُ المفتونين من المسلمين، الذين صنعهم الاستعمار الفكري وأثَّرت فيهم التبعية الثقافية الغربية. . وقد استنكر المسلمون جميعاً هذا الزَّعم الضَّال، الذي يفتح باب الشَّك في حقائق القرآن الكريم، وهو باب، لا يدخله إلاَّ الخاطئون المكذِّبون! .

لقد ذكر القرآن أسماء خمسة وعشرين نبيًّا ورسولاً، فما يجوز لمسلم أن يشكَّ في الوجود التاريخي لواحد منهم، ولا أن يشكَّ في الوقائع التي وردت في قصته كما ساقها القرآن. وإذا كان التاريخ البشري لم يسجل هذه الوقائع، فإنَّما ذلك لقصوره وعجزه عن استيعاب تفاصيل حياة الإنسان عبر الأزمان! .

إن بعض المفتونين قد يردِّدُ أنَّ التاريخ البشري لم يسجل حادث الطوفان! فمَنْ ذَا الذي يسجل ومَنْ ذَا الذي يحفظ هذا التاريخ؟! .

وإن بعضهم قد يتساءل عن قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وبنائهم الكعبةَ المشرفة بأمرٍ من الله سبحانه. . بدعوى أن هذا الحادث غير مسطور في ألواح التاريخ!؟

فمَنْ ذَا الذي كان يعنيه من البشر حينئذ أن يسجل هذا البناء؟! ومن ذا الذي يشهده منهم في زمن أُلقي فيه إبراهيم الخليل في النار. . وتعرض فيه لخسف جبابرة الكفر في كل مكان؟! هيهات أن يسجل مثل هذا التاريخ لدى طواغيت الجاهلية وعباد الأصنام! . فأيُّ تاريخ يعنون. . وأي مؤرخ يريدون؟! .

حقاً إنَّ القرآن لا يقصد في حديثه عن الأنبياء ذكراً لتواريخ السِّنين. ولا تفاصيل الوقائع ولا أسماء الشخصيات ولكنَّه يهدف إلى ذكر أصل القصة وأهم أحداثها والعبرة التي تُسْتَقَى منها. . ولكن هذا الإعراض عن التفاصيل التاريخية التي لا مدخل لها في العبرة، لا يجوز أن يكون سبباً للشك في الوجود التاريخي لصفوة خلق الله، ورسله إلى عباده، وليس القصد هنا التذكير

بما وقع فيه بعض المفتونين في هذا العصر، من تشكيك في صلة القصص القرآني بالتاريخ. . وإنما نبتغي التحذيرَ من مثل هذه الشبهة التي قد تساق إلى المسلمين في ثوب من التظاهر بالعلم والتقيد بمناهج البحث!.

ونتساءل: أيوجدُ على ظهر هذه الأرض، كتابٌ من كتب التاريخ صحَّت نسبته، وثبت صدقه وبرىء من الأخطاء والتحريف المقصود أو غير المقصود؟!

وما التاريخ؟ أليسَ صناعةَ فكرٍ بشري، يصيبُهُ الخطأ والنِّسيان والوهم، ويعتريه الكذب والتناقض، ويشوبه القصور والعجز، وتخفى عليه كثير من الحقائق؟

بلى. . هو كذلك، وكم من أحداث سجلها التاريخ، ثم تغيرت حقائقها بعد حين، بل تحولت من النقيض إلى النقيض!

ومن هنا فإن عقيدة المسلم الحق، تقتضيه أن يؤمن بكل ما جاء في القرآن عن الأنبياء والمرسلين إيماناً يقيناً لا يعتريه شك ولا شبهة، ولا يحتاج إلى تصديق أو توثيق، من صحف المؤرخين، أو نقوش السابقين!.

البحث الثاني

القرآن الكريم يُسجّل تاريخ خاتم النَّبيّين ﷺ

من فضل الله سبحانه على هذه الأمة المسلمة أن جعل في كتابه الكريم الذي لا ريب فيه، تسجيلاً لكبار الحوادث في تاريخ هذا الدين وسيرة خاتم المرسلين، ليكون شاهداً على صدق هذا النبي، وبقاء هذه الدعوة إلى آخر الزمان. . وقد بين القرآن النعم الكبرى التي خص الله بها خاتم النبيين ﷺ، في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وأنزلَ الله عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُنْ تعلمُ وكانَ فضلُ الله عليكَ عظيماً﴾[1].

كما أشار القرآن إلى رعاية الله سبحانه لمحمد ﷺ في نشأته ومراحل حياته، حتى أتم عليه النعمة بالهداية إلى الدِّين الحق، وحمل أمانة النبوة: ﴿والضُّحَى * والليلِ إذَا سَجَى * ما وَدَّعَكَ ربُّكَ ومَا قَلَى * وللآخرةُ خيرٌ لكَ من الأُوْلَى * ولسوفَ يُعطِيكَ ربُّكَ فترضَى * ألم يَجدْكَ يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدَى * ووجدكَ عائلاً فأغنَى * فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ * وأمَّا السَّائلَ فلا تنهرْ * وأما بنعمة ربِّكَ فحدِّثْ﴾[2].

ويستطيع المسلم الذي يتدبر كتاب ربه أن يرى أهم مواقف السيرة النبوية في الفترة المكية، والفترة المدنية، واضحاً في كتاب الله سبحانه، ولا نستطيع أن نستقصي حديث القرآن عن محمد ﷺ وأحداث دعوته وموقف أعدائه منه، وجهاده لهم، حتى جاءه نصر الله والفتح. . فهذا حديث طويل يحتاج إلى تناول خاص وإفراد بالبحث. . وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض النماذج لهذا

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٢) سورة الضحى.

التسجيل القرآني لأحداث الدعوة الإسلامية[1] . . ففي القرآن الآيات التي تلقاها الرسول ﷺ في بدء الوحي حين جاءه الملك فقال له: ﴿اقرأ باسم ربِّكَ الَّذي خلقَ * خلقَ الإنسانَ من علقٍ * اقرأ وربُّكَ الأكرمُ * الذي علَّمَ بالقلم * علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ﴾[2]، وهي أول ما نزل من القرآن بإجماع العلماء، وفيه الأمر له ﷺ بالإنذار في بداية الدعوة: ﴿يا أيُّها المدَّثِرُ * قُمْ فأنذِرْ * وربَّكَ فكبِرْ * وثيابَكَ فطهِّرْ﴾[3]، والأمر له ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربينَ﴾[4].

وفيه أيضاً الإذن بالدعوة الجهرية للكافة: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وأعرِضْ عَنِ المشركين﴾[5].

وفي القرآن حديث عن المستهزئين الذين أرادوا أن يحولوا بين الناس وبين الإصغاء لهذه الدعوة: ﴿إنَّا كفينَاكَ المستهزئينَ * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخرَ فسوفَ يعلمون * ولقد نعلمُ أنَّكَ يضيقُ صَدْرُكَ بما يقولُون * فسبِّحْ بحمدِ رَبِّكَ وكُنْ من السَّاجدين * واعبُدْ ربَّكَ حتَّى يأتِيَكَ اليقينُ﴾[6].

وفي القرآن حديث عن كثير من أحداث الفترة المكية، وتوجيه لكثير من المواقف التي واجهها الرسول ﷺ . .

وفيه حديث مفصل عن حادث الإسراء والمعراج الذي وقع في السَّنة العاشرة من البعثة النبوية، وهو معجزة من معجزات النبي ﷺ: ﴿سبحان الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصَى الذي باركنا حولَهُ لنريَهُ من آياتِنَا إنَّه هو السميعُ البصيرُ﴾[7].

---

(١) الإيمان في القرآن: للدكتور مصطفى عبد الواحد، / ط دار الرائد العربي - بيروت، ص ١٤١ - ١٤٧.

(٢) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥.

(٣) سورة المدثر، الآيات ١ ـ ٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٥) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٦) سورة الحجر، الآيات ٩٥ ـ ٩٩

(٧) سورة الإسراء، الآية ١.

وفي القرآن حديث عن الهجرة، أسبابها ووقائعها ونتائجها: ﴿إلاَّ تنصروهُ فقد نصرَهُ الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذْ هُمَا في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبهِ لا تحزنْ إنّ الله معنَا، فأنزلَ الله سكينتَهُ عليه وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تروها وجعلَ كلمةَ الذين كفروا السُّفْلَى، وكلمةُ الله هي العليا واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾[1].

كما تحدَّث القرآن عن حُكْم الهجرة، وأثنى على المهاجرين المجاهدين، وتحدث عن مرحلة البناء والجهاد في المدينة، بناء المجتمع الإسلامي، بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إليها، وجهاد أعداء الدين، من المشركين والمنافقين واليهود، فأشار القرآن إلى المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم: ﴿لمَسجدٌ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أول يوم أحقُّ أنْ تقومَ فيه، فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يتطهَّرُوا والله يحبُّ المُطَّهِّرِين﴾[2]، وكان ذلك الحديث في سياق الحديث عن مسجد الضِّرار الذي أسَّسه بنو غَنْم بن عوف، بجنب مسجد قُبَاء بإشارة من أبي عامر الراهب، الذي سماه رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق!

أما هذا المسجد الذي أُسِّس على التقوى فقد قيل إنه مسجد قباء، الذي أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء.. من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة، وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويمكن الجمع بين هذين القولين بأن مسجد قباء أُسِّس على التقوى وكذلك المسجد النبوي أُسس على التقوى، وكلاهما قد بني بأمره ﷺ، بل وشارك الرسول ﷺ في العمل في بنائهما.. ونلاحظ أن التعبير القرآني: ﴿لمَسجدٌ أُسِّس﴾ جاء بالتنكير دون التعريف، ولهذا يصدق ذلك على كل مسجد فيه هذه الصفة، وبُني على هذا الأساس.

وفي القرآن ذكر لأشهر الغزوات التي شهدها المصطفى ﷺ، ففيه ذكر لغزوة بدر، وأحد، والخندق، وبني النضير، وبني قريظة والحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين وتبوك.

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

وكان التناول القرآني لهذه الغزوات تسجيلاً لمواقفها واستجلاء لدروسها، وتعليماً للمسلمين كيف يكون الجهاد الحق، وكيف تكون الطاعة المطلقة لله ورسوله. .

أما غزوة بدر فقد ذكرت مجملة في سورة آل عمران، ومفصلة في سورة الأنفال. ففي سورة آل عمران ذكرت هذه الغزوة مرتين، أولاهما إشارة إلى عبرتها، دون تسميتها، في قوله تعالى: ﴿قد كان لكم آيةٌ في فئتينِ التَقَتَا فئةٌ تقاتلُ في سبيلِ الله وأخرَى كافرةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العينِ والله يُؤيِّدُ بنصرهِ مَنْ يشاءُ إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار﴾[1]، والمخاطبون في قوله سبحانه: ﴿قدْ كانَ لكم آيةٌ﴾ هم اليهود الذين زادتهم غزوة بدر حسداً وحقداً. . بدليل قوله سبحانه قبل هذه الآية: ﴿قُلْ للذين كفروا ستُغْلَبون وتُحْشَرُون إلى جهنَّمَ وبئسَ المِهَاد﴾. ثم ذكرت هذه الغزوة باسمها في سورة آل عمران في قوله سبحانه: ﴿ولقد نصرَكَمُ الله ببدرٍ وأنتُمْ أذلةٌ فاتَّقُوا الله لعلّكم تشكُرُون﴾[2]، وكان التذكير بهذا النصر العظيم في سورة آل عمران قبل الحديث عن غزوة أحد التي وقع فيها ابتلاء المؤمنين، حين خالفوا أمر رسول الله ﷺ.

لكن تفصيل الوقائع واستخلاص العبر من غزوة بدر جاء في سورة الأنفال، من بدايتها إلى منتهاها، وهذا مفصل في كتب التفسير والسير.

وأما غزوة أحد فقد ذكرت في سياق واحد من سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿وإذْ غدَوْتَ مِنْ أهْلك تُبَوِّىءُ المؤمنينَ مَقَاعدَ للقتالِ والله سميعٌ عليمٌ﴾[3] إلى قوله سبحانه: ﴿فانْقَلَبُوا بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبعُوا رضوانَ الله، والله ذُو فضلٍ عظيم﴾[4].

وذكرت غزوة الخندق في سورة الأحزاب، من قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اذكرُوا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٢١.
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٧٤.

وجنوداً لم تَرَوْها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[1] إلى قوله تبارك وتعالى في السورة نفسها: ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظِهم لم ينالُوا خيراً وكفى الله المؤمنينَ القِتالَ وكانَ الله قويّاً عزيزاً﴾[2].

وجاء ذكر غزوة بني قريظة في آيتين من سورة الأحزاب هما قوله تبارك وتعالى: ﴿وأنزلَ الذين ظاهَرُوهم مِنْ أهلِ الكتاب مِنْ صَيَاصِيهِم وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتَأسِرون فريقاً * وأوْرثَكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لَمْ تطؤوها وكان الله على كلِّ شيءٍ قديراً﴾[3].

وجاء ذكر غزوة بني النضير في سورة الحشر، من قوله سبحانه: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهلِ الكتاب من ديارِهم لأوَّلِ الحشر، ما ظنَنْتُم أن يَخْرُجوا وظَنُّوا أنهم مانعتُهم حصونُهم مِنَ الله﴾[4] إلى قوله سبحانه: ﴿لا يُقاتِلُونَكم جميعاً إلاَّ في قُرىً محصَّنةٍ أو من وراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بينَهُمْ شديدٌ تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتَّى ذلك بأنَّهم قوم لا يعقِلُون﴾[5].

وأمَّا غزوة الحديبية فقد كان الحديث عنها في سورة الفتح في آياتٍ كثيرة من هذه السورة، كقوله سبحانه: ﴿إنَّ الذين يبايعُونَك إنّما يُبَايِعونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أيديهِم﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿لقدْ صدَقَ الله رسولَهُ الرُّؤْيَا بالحقِّ﴾[7]، ولا بدَّ من تأمل السورة كلها لمن أراد أن يعرف الأحداث والأحكام التي وقعت في غزوة الحديبية.

وجاء الحديث عن فتح مكة في سورة الفتح، وفي سورة النصر: ﴿إذا جاءَ نصرُ الله والفتح﴾[8].

ثم جاء الحديث عن غزوة حنين في قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿ويومَ حُنَيْنٍ إذْ أعجبتكُمْ كثرتُكُم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾[9]..

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) سورة الحشر، الآية ٢.
(٥) سورة الحشر، الآية ١٤.
(٦) سورة الفتح، الآية ١٠.
(٧) سورة الفتح، الآية ٢٧.
(٨) سورة النصر، الآية ١.
(٩) سورة التوبة، الآية ٢٥.

كما تحدث القرآن عن غزوة تبوك ـ وهي غزوة العُسْرَة ـ في سورة التوبة أيضاً في آيات متوالية، من قوله سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا ما لَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انفِرُوا في سبيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخرةِ فما مَتَاعُ الحياةِ الدُّنيَا في الآخرةِ إلاَّ قليل﴾[1].

وفي القرآن إشارات إلى بعض ما وقع في الغزوات والسَّرايا الأخرى، كقوله سبحانه: ﴿ولا تقولُوا لِمَنْ ألقى إليكم السلامَ لسْتَ مؤمناً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يقولون لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ﴾[3]، وغير ذلك من إشارات إلى أحداث وقعت خلال مرحلة الجهاد التي عاشها المسلمون مع رسول الله ﷺ، والتي انتهت بالنصر والفتح وإعلاء كلمة الله.

وهكذا يتبين أن أهم حوادث البعثة النبوية.. والدعوة.. والبناء والجهاد.. قد جاءت في محكم الكتاب الكريم، ليكون تاريخ دعوة خاتم النبيين ﷺ في الذروة العليا من الثبوت واليقين، لا مجال فيه لشك ولا موضع فيه لغموض.

(١) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(٢) سورة النساء، الآية ٩٤.

(٣) سورة المنافقون، الآية ٨.

المبحث الثالث

نماذج من أخبار دعوة الرُّسل عليهم السَّلام

سبق أن ذكرنا حاجة البشرية إلى الرسل، إذْ أن العقول لا تهتدي إلى ما ينفعها في دينها ودنياها، ولذا اقتضت حكمة الله عزَّ وجلَّ بعث الرسل ليكون بواسطتهم إنزال الوحي الإلهي الذي باتباعه تهتدي البشرية لما يسعدها في الدنيا والآخرة.

إنَّ الله تعالى أمر رسوله محمداً ﷺ أن ينذر قومه بالوحي وأن يتلو القرآن الذي تضمن كل أساليب الهداية إلى الخير، فإن أعرضوا فينذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

يقول تعالى: ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ البَلْدَةِ الذي حَرَّمَهَا ولَهُ كُلُّ شيءٍ وأمرتُ أنْ أكونَ منَ المُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتلُوَ القُرآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ المنذِرين﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿حَمَ * تنزيلٌ مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحِيم * كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربيّاً لقوم يعلمونَ * بشيراً ونذيراً فأعْرَضَ أكثرُهُمْ فَهُمْ لاَ يسمعونَ * وقالُوا قلوبُنَا فيٌ أكِنَّةٍ ممَّا تدعونَا إلَيْهِ وفي آذانِنَا وَقْرٌ ومِنْ بَيْنِنا وبَيْنِكَ حجابٌ فاعْمَلْ إنَّنَا عامِلُونَ * قُلْ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مثلُكُمْ يوحَى إلَيَّ أنَّمَا إلَٰهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ فاستقيمُوا إلَيْهِ واستغفروهُ ووَيْلٌ للمشركِين﴾[2] إلى قوله: ﴿فإنْ أعرضُوا فَقُلْ أنذرتُكُمْ صاعقةً مِثْلَ صاعقةِ عَادٍ وثمودَ﴾[3].

---

(١) سورة النمل، الآيتان، ٩١ ـ ٩٢.

(٢) سورة فصلت، الآيات ١ ـ ٦.

(٣) سورة فصلت، الآية ١٣.

ولذا فسنذكر هنا نماذج من القرآن الكريم عن دعوة بعض الرسل لنعرف كيف كانوا يدعون أممهم إلى الإيمان بالله وحده، ثم ما كان يتحلى به أولئك الصفوة المختارة من رفق ولين وعطف وشفقة على أممهم، من أن يسلكوا سبل الغواية التي تؤدي بهم إلى الهلاك في الدنيا والعذاب المقيم في الآخرة.

وما تضمنته تلك القصص، من بيان لسبب إهلاك تلك الأمم التي كذبت رسلها هو تحذير لأمة محمد ﷺ من أن يصيبهم ما أصاب تلك الأمم الكافرة التي كذَّبت رسلها، إذْ ليس كفار أمته خير من كفار تلك الأمم، ولذا يقص الله تبارك وتعالى على نبيِّهِ ما حلَّ بأولئك من العذاب بعد أن يخاطب المكذِّبين من أمة محمد فيقول:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ * وإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويقولُوا سِحْرٌ مسْتَمِرٌّ * وكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أهواءَهُمْ وكُلُّ أمْرٍ مستَقِرٌّ * ولَقَدْ جاءهُم مِنَ الأنْباءِ ما فيهِ مزدجَرٌ﴾[1] وبعد أن ذكر ما حل بقوم نوحٍ، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون، قال: ﴿أكفارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أولَئكُمْ أمْ لَكُم براءةٌ في الزُّبُرِ * أمْ يقولُونَ نحنُ جميعٌ منتصِرٌ * سيهزمُ الجَمْعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ موعدهُمْ والسَّاعَةُ أدهَى وأمَر﴾[2].

ونبدأ بدعوة نوح عليه السلام إذ هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام.

١ ـ **نوح عليه السلام**: في النموذج التالي بيان لما كان يدعو قومه إليه، وبيان موقف رؤساء الضلال منه، والتُّهم التي وجهوها إليه، ثم تلطفه معهم، وبيان أنه مرسل إليهم من الله تبارك وتعالى، وأنه الناصح الأمين لهم، ثم بيان ما حل بهم من الهلاك حين كذبوه وأصروا على كفرهم وعنادهم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أرسَلْنَا نوحاً إلَى قومِهِ فقالَ يا قوم اعبدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ إنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ عذابَ يوم عظيم * قالَ المَلأُ مِن قومِهِ إنَّا لنراكَ في ضلالٍ مُبِينٍ * قالَ يا قوم ليسَ بي ضَلالَةٌ ولكنِّي رسولٌ مِن ربِّ العالَمِينَ * أبلِّغُكُمْ رِسَالاتِ ربِّي وأنصَحُ لَكُمْ وأعْلَمُ مِنَ الله ما لا تعلمونَ * أوَعَجِبْتُم أنْ جاءَكُمْ

---

(١) سورة القمر، الآيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة القمر، الآيات ٤٣ ـ ٤٦.

ذِكْرٌ مِن ربِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ منكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ولعلَّكم تُرْحَمُونَ * فكذَّبوهُ فأنجيناهُ والذينَ مَعَهُ في الفُلْكِ وأغرقْنا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا إنَّهم كانُوا قوماً عَمِين﴾[1].

ومع هذا الاستمرار في الدعوة المقرونة بالترغيب والترهيب، والدعوة إلى الله بأن لا يستعجلوا النتائج، وإنما عليهم البلاغ وعلى الله الحساب.

وفي إهلاك الظلمة وتدميرهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، واضطهادهم لأهل الحق الذين لا ذنب لهم إلا أن يقولوا لهم: اتَّقُوا الله وراقبُوهُ وحكِّمُوا شرعَهُ، إنذارٌ بأنَّ بطش الله بالظالمين ليس ببعيد.

٢ ـ هود عليه السلام: وهود عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله وحده، فرماه قومه بالكذب والسفه، وادعوا أنَّ ما هم عليه هو الحق، لأنهم على خلق الأولين، الذين مضوا قبلهم، فهم على آثارهم مقتدون، فلن يتركوا ما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وقد بين لهم هو بأنه ليست به سفاهة، وإنما هو رسول رب العالمين، أرسله الله إليهم ليبين لهم الحق من الباطل، وأنه لا يسألهم على ما يبلغهم من الخير أجراً، وإنما هو ناصح لهم، أمين فيما يبلغه إليهم من ربه، كما بين لهم أن تماديهم في الباطل، واتخاذهم القصور التي يتصورون أنها لا تكون إلا للخالدين، وبطشهم بالضعفاء والمساكين بطش الجبارين المتكبرين، إن هذا الكفر والطغيان سيحل بهم نقمة الله وعقابه للظالمين، وإن عليهم أن يرجعوا إلى الله ويتَّقوه، فهو الذي أمدهم بهذه النعم، من الأنعام والبنين والجِنَات والعُيون، وإن تمادوا في كفرهم وطغيانهم فسينالهم عذاب يوم عظيم.

ولكنهم قالوا له في عناد وغطرسة: ﴿سواء علينا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ في عدم استجابتنا لدعوتك، فوقع عليهم رجس وغضب من ربهم، فنزل عليهم الهلاك المحتم لكل مكذب لله ورسله.

يقول الله تعالى في ذلك مبيناً وموضحاً ما حل بهم حين أصروا على

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ٥٩ ـ ٦٤.

تكذيب رسوله وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي يعدهم به: ﴿وإلى عادٍ أخَاهُم هُوداً قالَ يا قوم اعبدُوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُهُ أفلا تَتَّقُون * قال المَلأُ الذين كفروا من قومهِ إنَّا لنراكَ في سَفَاهَةٍ وإنَّا لنَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبين * قالَ يا قوم ليسَ بي سفاهةٌ ولكنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلِّغُكُمْ رسالاتِ ربِّي وأنَا لكم ناصحٌ آمينٌ * أوَعَجِبْتُمْ أنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ من ربِّكُمْ على رجُلٍ منكم لينذِرَكُمْ واذْكُرُوا إذْ جعلَكُمْ خُلَفَاءَ من بعدِ قوم نوحٍ وزادَكُمْ في الخَلْقِ بَصْطَةً فاذْكُروا آلاَءَ الله لعلَّكم تُفْلِحُون * قالوا أجئتَنَا لنعبُدَ الله وحدَهُ ونَذَرَ ما كان يعبُدُ آباؤُنا فأْتِنَا بما تعِدُنا إنْ كنتَ من الصَّادقين * قالَ قد وقَعَ عليكم من ربِّكم رجْسٌ وغَضَبٌ أتُجادِلونني في أسماءٍ سَمَّيْتُمُوها أنتُمْ وآباؤُكم ما نَزَّلَ الله بها من سُلْطانٍ فانتظِرُوا إنِّي معكم من المنتظِرين * فأنْجيناهُ والذين معه برحمةٍ منَّا وقطعنَا دابِرَ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا وما كانُوا مؤمنين﴾[١].

وقد ورد ذكر قوم عاد مع نبيهم هود في عدد من سور القرآن فذكرت القصة في السورة التي سميت باسمه «هود» مفصَّلة، إذ قالوا له بعد جدل وعناد: ﴿قالُوا يا هودُ ما جئتَنَا ببيِّنةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتَنَا عَنْ قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين * إنْ نقولُ إلاَّ اعترَاكَ بعضُ آلهتِنَا بسُوءٍ قال إنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وأشْهَدُوا أنِّي بريءٌ ممَّا تُشْرِكُون * من دونهِ فكيدُوني جميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾[٢].

وقد أوضحت الآيات بعد ذلك أنّ الله أنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه، وأحلَّ العذابَ بالجاحدين لآيات ربِّهم، العاصين لرسله، المتبعين لكلِّ جبار عنيد، أُهلكوا ثم أُتبعوا اللعنةَ في الدنيا والآخرة: ﴿ولَمّا جَاءَ أَمْرُنا نجينا هُوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا ونجيناهُمْ من عذابٍ غليظٍ * وتلكَ عادٌ جَحَدُوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوْا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أمرَ كلِّ جبَّارٍ عنيدٍ * وأُتْبِعُوا في هذه الدُّنيا لعنةً ويومَ القيامةِ ألاَ إنَّ عاداً كفَروا ربَّهم ألاَ بُعْداً لعادٍ قوم هُودٍ﴾[٣].

(١) سورة الأعراف، الآيات ٦٥ ـ ٧٢.
(٢) سورة هود، الآيات ٥٣ ـ ٥٥.
(٣) سورة هود، الآيات ٥٨ ـ ٦٠.

كما فصلت الآيات [١٢٣ ـ ١٣٩] من سورة الشعراء بعضاً مما جرى بين هود وقومه من جدل وحوار حتى صرَّحوا بأنَّهم لا يسمعون لدعوته، ولا يصغون لموعظته إذْ لا فرق بين استماعهم وعدمه في قبول دعوته: ﴿قالُوا سَواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أمْ لَمْ تكُنْ مِنَ الوَاعِظِين * إنْ هٰذا إلاَّ خُلُقُ الأوَّلين * وما نحنُ بِمُعَذَّبِين * فكذَّبُوهُ فأهلكنَاهُمْ إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهُمْ مؤمنين﴾[1].

أمَّا كيفية هلاكم فقد جاءت مفصَّلة في سورة الحاقة قال تعالى: ﴿وأمَّا عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ * سخَّرَهَا عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حُسُوماً فترَى القومَ فيهَا صَرْعَى كأنَّهُمْ أعجازُ نخلٍ خاويةٌ * فهلْ ترَى لَهم من بَاقِيَةٍ﴾[2].

وهكذا عاقبة كل طاغية معاند مكابر للحق في كل زمان ومكان.

٣ ـ صالح عليه السلام: دعوة الأنبياء في الأصول واحدة، ﴿ولَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدوا الله واجتنبوا الطَّاغوت﴾[3]، وإنما الاختلاف في الشرائع حسب الزمان والمكان: ﴿. . لكلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً . .﴾[4].

ولذلك فقد دعا صالح قومه إلى عبادة الله وحده، وطلب منهم أن يتقوا الله ويطيعوه، وبين لهم أنه لا يريد منهم على دعوته لهم إلى عمل الخير والصلاح أجراً، وإنما كلفه ربه وربُّهم جميعاً أن يبلغهم رسالته، لأنه أمين على حمل تلك الرسالة وإبلاغها، وناصح لهم في دعوته إياهم، كما بيَّن لهم أن هذه النعم المتوالية والتي لا يحصونها عداً، ومنها الجنات ذات النخيل، والزروع، وما أجراه الله من العيون، وما أمدهم به من قوة حتى استطاعوا على نحت الجبال بيوتاً، كل تلك النعم الظاهرة والباطنة تحتاج لشكر المنعم بها عليهم، ومن شكره الإيمان به وعبادته وحده، وتصديق رسوله، ليزيدهم الله

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٣٦ ـ ١٣٩.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان ٦ ـ ٨.
(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.
(٤) سورة المائدة، الآية ٤٨.

من فضله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وكما قال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبَنين ويَجْعلْ لكُم جنَّاتٍ ويجعَلْ لكُم أنهاراً﴾[2].

كما حذَّرَهم من أنَّهم إن لم يتركوا ما هم عليه من كفر وضلال، واتباع لأمر المسرفين المفسدين في الأرض، فلن يتركهم الله آمنين مطمئنين، بل سيحل بهم العقاب وينزل عليهم العذاب الأليم، فلم يسمعوا لنصح نبيهم بل تمادوا في غيِّهم، واتهموه بالسحر، وقالوا له: ﴿ما أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فأْتِ بآيَةٍ إنْ كنتَ من الصَّادِقِين﴾[3]، فأمدَّهُ الله بآيَةٍ تُبيِّن صدقه، وهي الناقة، وأوضح لهم أن لها شرب يوم، ولهم شرب اليوم الآخر، وتوعدهم بأنَّهم إن مسُّوها بسوء فسوف يأخذهم العذاب الأليم.

فتمادوا في غيهم وعتوا عن أمر ربهم، فعقروا الناقة فحل بهم العذاب، وهكذا مصير كل أمة كذبت نبيها. يقول الله تعالى في ذلك: ﴿كذَّبتْ ثمودُ المرسَلينَ * إذْ قالَ لهمْ أخوهُمْ صالحٌ ألاَ تَتَّقُونَ * إنِّي لَكُمْ رسولٌ أمينٌ * فاتَّقوا اللَّهَ وأطيعُونِ * ومَا أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى ربِّ العالمين * أتتركونَ في ما هٰهُنَا آمِنينَ * في جنَّاتٍ وعيونٍ * وزروعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هَضيمٌ * وتَنْحِتُونَ مِنَ الجبالِ بيوتاً فارِهينَ * فاتَّقُوا الله وأطيعونِ * ولاَ تُطيعوا أَمْرَ المسرِفِينَ * الذينَ يُفْسِدونَ في الأرضِ ولا يُصْلِحونَ * قالوا إنَّما أنتَ مِنَ المسَحَّرين * ما أنتَ إلاَّ بَشَرٌ مثْلنا فَأْتِ بآيةٍ إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادقين * قالَ هذهِ ناقَةٌ لها شِرْبٌ ولَكُمْ شِرْبُ يوم معلوم * وَلا تَمَسُّوها بسوءٍ، فيأخُذَكُمْ عذابُ يوم عَظِيم * فعَقَرُوهَا فأصبحوا مَن النادِمِينَ * فأخَذَهُمُ العذابُ، إنَّ في ذلِكَ لآيَةً ومَا كاَنَ أكثرُهُم مؤمنين * وإنَّ ربَّك لَهوَ العزيزُ الرَّحيمُ﴾[4].

وقد جاء ذكر قوم صالح في عدد من سور القرآن، بأساليب في دعوتهم إلى الله مختلفة فيها الترهيب والترغيب، فقد ذكرهم في سورة الأعراف من الآية

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.
(٢) سورة نوح، الآيات ١٠ ـ ١٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية ١٥٤.
(٤) سورة الشعراء، الآيات ١٤١ ـ ١٥٩.

[٧٣ ـ ٧٩] دعاهم فيها إلى عبادة الله وحده لأنَّه لا إله لهم غيره، وقد جاءتهم الآية البينة التي منه وهي الناقة، وحذرهم من أن يمسوها بسوء، كما ذكرهم بنعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكنهم في الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون في جبالها بيوتاً، وحذرهم من الفساد في الأرض، ولكن الملأ المستكبرين من قومه أنكروا رسالته وهزؤوا من المستضعفين المؤمنين به فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم: ﴿وقالُوا يا صالحُ ائْتِنَا بما تعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ المرْسَلِينَ﴾(١)، فجاءهم ما وعدهم به من عذاب الله ﴿فأخذتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِين﴾(٢) هامدين موتى لا حراك لهم.

وقد ذكرت صفة هلاكهم في سورة القمر. قال تعالى في معرض ذكر المكذبين لأنبيائهم من الأمم السابقة وما حل بهم من العذاب، تحذيراً لأمة محمد ﷺ من أن يصيبهم ما أصاب أولئك إذ لا فرق بين كفار هذه الأمة والأمم السابقة إذ الكفر ملة واحدة، قال: ﴿كَذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُر * فَقَالوا أَبَشَراً مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ إنَّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْننا بَلْ هُوَ كذَّابٌ أشِرٌ * سيعلمونَ غداً مَنِ الكذَّابُ الأشِرُ * إنَّا مرسلُوا النّاقَةَ فتنةً لهمْ فارتَقبْهُمْ واصْطَبِرْ * ونبِّئْهُمْ أنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فنادَوْا صاحِبَهُمْ فتعاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كانَ عَذَابي ونُذُرِ * إنَّا أرسَلْنَا عَلَيْهِمْ صيحةً واحدةً فكانوا كهَشيمِ المحْتَظِرِ﴾(٣).

٤ ـ **شعيب عليه السلام**: ونختم هذه النماذج بقصة شعيب مع قومه الذين أضافوا إلى الشرك بالله، الصدَّ عن سبيله وعمل الفساد في الأرض ببخس الناس أشياءهم، فقد دعاهم أولاً إلى عبادة الله وحده لأنه لا إله حق لهم سواه، مقدماً لهم الآيات البينات الواضحات على ذلك. ثم طلب منهم حسن المعاملة في مجتمعهم، وأن لا يظلم بعضهم بعضاً، فأمرهم بإيفاء الكيل والوزن في معاملاتهم في بيعهم وشرائهم، وأن لا يبخسوا الناس حقوقهم، لأن ذلك فساد في الأرض بعد صلاحها، ورغبهم أنهم إن أقاموا العدل بينهم

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٨.

(٣) سورة القمر، الآيات ٢٣ ـ ٣١.

كان خيراً لهم في دنياهم ومعادهم، لأن ذلك هو عمل المؤمنين بالله الذين يستحقون ثوابه، كما نهاهم عن غيهم واعتدائهم على المؤمنين في طرقاتهم مهددين لهم بالوعيد الشديد صادين عن سبيل الله من آمن به، سالكين في ذلك سبيل المفسدين في الأرض الذين لا يصلحون.

وبيَّن لهم أن عاقبة المفسدين الهلاك، فعليهم أن يتَّعظوا بما حلَّ بالمفسدين قبلهم. ولكن رؤساء الكفر والضلال - وهكذا هم في كل زمان ومكان - استكبروا عليه وعلى من آمن بدعوته، فهددوهم بإخراجهم جميعاً من قريتهم إن لم يعودوا معهم في ملة الكفر ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ اليهودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1]. ولكن شعيباً ومن معه من المؤمنين لم يزعزع إيمانهم بربهم هذا التهديد والوعيد، فأعلنوا لهم أنهم لن يعودوا إلى ملة الكفر أبداً بعد إذ نجاهم الله منها، ثم لجؤوا إلى الله تبارك وتعالى مولاهم فتوكلوا عليه توكل المخلصين، وطلبوا منه أن يحكم بينهم وبين هؤلاء الكفرة الطغاة، بالحق إذ هو خير حاكم في ذلك.

وقد تحول الملأ من الكفار إلى تخويف أتباع شعيب لزعزعة إيمانهم بالله قائلين لهم بأنهم إن استمروا على ذلك فسينالهم الخسران المبين، ولكن المؤمنين بالله حقاً لا يلتفتون إلى أكاذيب المرجفين. وحين تجاوز الكفار حدهم، وهموا بالنيل من المؤمنين، جاءهم نصر الله فحكم على الكافرين المكذبين بالهلاك، فأخذتهم الرجفة - وهي الزلزلة الشديدة - فأهلكتهم جميعاً فأصبحوا في دارهم جاثمين موتى، كأن لم يغنوا في ديارهم ناعمين مرفهين، فتبين بذلك أن المكذبين لشعيب هم الخاسرون.

وحين رآهم شعيب على تلك الحال تولى عنهم قائلاً: لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، ولكن كيف الأسى على قوم كافرين.

وهكذا يكون مصير كل ظالم واقف في طريق الحق صاد عن سبيل الله من آمن بالله ودعا إليه في كل عصر ومصر، فالعاقبة للمتقين[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٢) منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: للدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٨٤ - ١٩٩، بتصرف يسير.

البحث الرابع

دحض شبهات المكذّبين بالرُّسُل عليهم السلام

كانت بَشرِيَّة الرسل تبدو عائقاً للمكذبين عن التصديق بنبوتهم، وكان الكفار في كل جيل يعترضون على بشرية الرسول، ويقولون كما ذكر القرآن[1]: ﴿ولو شاءَ الله لَأَنْزَلَ ملائكةً ما سَمِعْنَا بهذا في آبائِنَا الأوَّلِين﴾[2].

فكانوا يتوهمون أن البشر ليسوا أهلاً لتلقي الرسالة، وأن الجديرين بها هم الملائكة، وهذا من قبيل العناد والتكذيب الذي لا مستند له من عقل أو حجة، فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله سبحانه إليهم رسلاً من الملائكة، كما قال الله سبحانه: ﴿وما منعَ النَّاسَ أنْ يُؤْمنُوا إذْ جاءَهُم الهدَى إلاَّ أَنْ قالُوا أبَعَثَ الله بشراً رسولاً * قُلْ لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مطمئنينَ لَنَزَّلْنا عليهم من السَّماءِ مَلَكاً رسولاً﴾[3]، بل إن القرآن قد كشفَ بواطن هؤلاء المكذبين للرسل. . المتعللين في تكذيبهم بأنهم بشر، إذ بين أنه لو جاءهم رسل من الملائكة لما آمنوا بهم كذلك. . فالعلَّة واحدة في كل حال وهي الجحود والتكذيب: ﴿وقالوا لَوْلا أُنزِلَ عليه مَلَكٌ، ولو أنزلْنَا ملكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرونَ * ولو جعلْناه مَلَكاً لجعلناه رجُلاً ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾[4] أي لو جاءهم الملك لتمثَّل لهم في صورة بشرية، فكذبوه أيضاً،

---

(١) الإيمان في القرآن: للدكتور مصطفى عبد الواحد، ط دار الرائد العربي ـ بيروت، ص ١٢٥ ـ ١٣٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان ٨ ـ ٩.

كما يكذبون الرسل من البشر . . لأنهم لا يطيقون رؤية الملك وهيئته . .

وأحياناً كان المشركون يطلبون من رسولهم أن يأتيهم بملائكة يشهدون له ويؤيدون دعواه، فقد قال فرعون عن موسى عليه السلام، كما ذكر القرآن: ﴿أمْ أنا خيرٌ مِنْ هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يُبينُ * فلَولا أُلقِيَ عليه أسْوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكةُ مُقترِنين﴾[1]، ولقي هذا المنطق المعوج قبولاً لدى قومه الذين استخفَّ عقولهم وخدعهم: ﴿فاستَخَفَّ قَوْمَهُ فأطَاعُوهُ إنَّهم كانوا قوماً فاسِقين﴾[2].

وكذلك كان منطق المشركين الذين واجههم خاتم النبيين محمد ﷺ، حين قالوا له، كما ذكر القرآن: ﴿لَوْ ما تأتِيْنَا بالملائكةِ إنْ كنتَ من الصَّادقين﴾[3] وجاء الجواب القرآني: ﴿ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بالحقِّ وما كانوا إذاً مُنظرين﴾[4] فإن الملائكة لو نزلوا كما يطلبون، لكان ذلك إيذاناً بعذابهم وهلاكهم لو كانوا يعقلون.

يكذِّبون الصادقين! إن مبعث العجب في موقف المكذبين بالرسل . . أنهم كانوا يعرفون صدق هؤلاء الرسل وأمانتهم، وكان هؤلاء الرسل يتكلمون بلسان أقوامهم ويظهرون لهم الآيات التي أيدهم الله تعالى بها ولكن الجاحدين أعرضوا عنها . . وأهملوا النظر في دلائلهم . . كما قال تعالى: ﴿ألَمْ يَأْتِكُم نَبَأُ الذينَ كفروا من قَبْلُ فذاقُوا وَبالَ أمْرِهم ولهُمْ عذابٌ أليمٌ * ذٰلكَ بأنَّه كانتْ تأْتِيهِمْ رُسُلُهمْ بالبَيِّناتِ فقالوا أَبَشَرٌ يهْدونَنَا فكفَرُوا وتوَلَّوْا واستغنى الله، والله غنيٌّ حميدٌ﴾[5].

وما أشقى الإنسانية في تاريخها الطويل إلا هذا التكذيب برسالات الأنبياء، واتباع الفلسفات الكاذبة والمدعوات الخادعة التي هي نتاج فكرٍ بشريّ قاصر! وهذا ما أشار إليه القرآن في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يا حَسْرَةً على العِبادِ ما يأتيهِم من رسولٍ إلاَّ كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[6] . . فقد كانت الإنسانية

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٥٤.
(٣) سورة الحجر، الآية ٧.
(٤) سورة الحجر، الآية ٨.
(٥) سورة التغابن، الآيتان ٥ ـ ٦.
(٦) سورة يس، الآية ٣٠.

هي الخاسرة في هذا البُعْد عن منهج الأنبياء، وهذه المعارضة لدعواتهم التي هي طريقة النجاة لمن أراد!.

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد كانوا أبْعَدَ ما يكونون عن النفع الشخصي أو الفائدة المادية.. أو المصلحة الذاتية في الدعوة.. ولهذا كانوا يقولون لأقوامهم، كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وما أَسْأَلُكُمْ عليهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلىٰ ربِّ العالَمِينَ﴾[1]. وقد أمر الله خاتمَ النبيين محمداً ﷺ أن يقول لقومه مثل هذا القول: ﴿قُلْ مَا سأَلْتُكُم مِنْ أجْرٍ فهُوَ لَكُمْ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ علىٰ الله﴾[2]، ﴿قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ من أجْرٍ وما أَنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾[3]، وليس وراء هذا غاية في التجرد للدعوة والارتفاع بها عن المصالح والمغانم، فهي دعوة خالصة لله تستهدف إنقاذ البشرية من الشقاء وحمايتها من الهلاك والخسران..

أما الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ علَيْهِ أجْراً إلاَّ الموَدَّةَ في القُرْبَى﴾[4] فليس فيه سؤال أجر أو ابتغاء نفع.. وإنما هو تذكير للمشركين بأنهم خرجوا في عداوتهم للنبي ﷺ عن كل حدٍّ، حتى نسوا ما تقتضيه القرابة والرحم من كف الأذى، فلم يكن هناك بطن من قريش إلا ولهم قرابة من رسول الله ﷺ.. لكنهم لم يَرْعَوا ذلك في علاقتهم به، فكذبوه، وافتروا عليه، بل حاولوا قتله، ثم حملوا السلاح عليه في حروب متلاحقة.. وكان عمه أبو لهب من أشد الناس عداوةً له وإيذاء لأصحابه. فلا يفهم من قوله سبحانه: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى﴾ أن الرسول ﷺ قد جعل هذه المطالبة برعاية هذه القربى أجراً له.. لأنَّ هذه الرعاية تقتضيها الأخلاق الإنسانية وتستشعرها الفطرة السليمة.. لكن المشركين خرجوا عن كل حد في حربهم لدعوة الإسلام، فقطوا الأرحام وخرجوا عن أخلاق الشهامة والنبل التي كانوا يفتخرون بها من قبل، كما وصفهم الله سبحانه:

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٠٩.

(٢) سورة سبأ، الآية ٤٧.

(٣) سورة ص، الآية ٨٦.

(٤) سورة الشورى، الآية ٢٣.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفسِدوا في الأرض وتُقَطِّعُوا أرحَامَكُم * أولئِكَ الذينَ لعنَهُمُ اللَّهُ فأصَمَّهُمْ وأعْمَى أبْصارَهَم﴾[1].

وفي القرآن آيات واضحة الدلالة على أن الرسول ﷺ لم يبتغِ من قومه أجراً من أي نوع كان: ﴿أمْ تسألُهُمْ أجْراً فهم مِنْ مَغْرمٍ مُثْقَلونَ﴾[2].

النبوة اصطفاء لا كَسْب: يقرر القرآن أن الله سبحانه قد اختار أنبياءه وفقاً لعلمه وحكمته، دون تطلُّع من هؤلاء المختارين ولا طموحٍ إلى مقام النبوة.

فهو اصطفاء مقصود له أسبابه التي لا يحيط بها البشر: ﴿الله يصْطفي من الملائكةِ رسُلاً ومِنَ الناسِ﴾[3]، ﴿إنَّ الله اصطفىٰ آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمْرانَ على العالمين * ذُرِّيةً بَعْضُها من بعضٍ والله سميعٌ عليم﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿أولئِكَ الذينَ أنعَمَ الله عليهِمْ مِنَ النبيينَ مِن ذُرِّيةِ آدمَ وممَّنْ حَملْنا معَ نوحٍ ومن ذريَّةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وممَّنْ هَدَيْنا واجتبيْنا إذا تُتلى عليهم آياتُ الرَّحْمٰنِ خرُّوا سُجَّداً وبُكيّا﴾[5].

ومن هنا أنكرَ القرآن على المشركين الذين ظنوا أن النبوة يمكن أن تُكْتَسب بالوجاهة والقوة والثراء، وغفلوا عن أسباب الاختيار الإلهي التي لا مدخل فيها لشيء مما تواضع عليه البشر في أنظمتهم الإجتماعية: ﴿وقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجُلٍ من القَريتينِ عَظيم * أهُمْ يَقْسِمُون رحمةَ ربِّكَ نحنُ قَسَمنا بينهُمْ معيشتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا ورفَعْنا بعضَهُمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتَّخذَ بعضُهُم بعضاً سُخرِيّاً ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ مما يَجْمَعُونَ﴾[6].

ويقول سبحانه: ﴿الله أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالتَهُ﴾[7] ولم يكن لخاتم النبيين محمد ﷺ قبل أن يُبعث رسولاً للعالمين، تطلع إلى مقام النبوة، ولا سعى لاكتساب ما يؤهله لها. كما بيَّنَ ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وكذلكَ أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً من أمرِنَا ما كُنْتَ تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ﴾[8].

(١) سورة محمد، الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) سورة القلم، الآية ٤٦.
(٣) سورة الحج، الآية ٧٥.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.
(٥) سورة مريم، الآية ٥٨.
(٦) سورة الزخرف، الآيتان ٣١ ـ ٣٢.
(٧) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.
(٨) سورة الشورى، الآية ٥٢.

وقال سبحانه: ﴿وما كُنْتَ ترجُو أن يُلْقَى إليكَ الكتابُ إلاَّ رحْمَةً من ربِّكَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وما كنتَ تتلُو من قبلِهِ من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينِكَ إذاً لارْتابَ المبْطِلُونَ﴾[2].

وبهذا لا يبقى شك في أن النبوة لم تكن لتنال باجتهاد أو سعي من النبي إليها.. بل كان المصطَفُوْن الأخيار لا يحدِّثون أنفسهم بها قبل أن ينالوها.. ولا يرجون أن تكون قبل أن يقع عليهم الاختيار..

ومن هنا تدرك لماذا أخطأتْ رجلاً مثل أمية بن أبي الصَّلْت الذي كان يسعى إليها ويُعِدُّ نفسه بقراءة الكتب السالفة ويسأل الأحبار والرهبان عن نبي آخر الزمان.. طمعاً في أن يكون هو ذلك النبي.. فلما بعث الله خاتم النبيين محمداً ﷺ امتلأ قلب أمية حسَداً وعداوة له، وكفر بدعوته مع وضوح دلائل نبوته!.

(١) سورة القصص، الآية ٨٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

البحث الخامس

أحوال الرُّسل في القرآن الكريم

قال شيخ الإسلام رضي الله عنه[1]: ومن آياته نصر الرسل على قومهم، وهذا على وجهين: تارة، يكون بإهلاك الأمم وإنجاء الرسل وأتباعهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى، ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف وهود ولا يذكر معها قصة إبراهيم، وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الأنبياء ومريم والشعراء والعنكبوت والصافات، فإن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم، بل في سورة الأنبياء كان المقصود ذكر الأنبياء، ولهذا سميت سورة الأنبياء فذكر فيه إكرامه للأنبياء، وإن لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب، وذكر آخر الكل إن هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ فيها بقصة إبراهيم، إذ كان المقصود ذكر إكرامه للأنبياء قبل محمد وإبراهيم، أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية، وهو أبو أكثرهم إذ ليس هو أبا نوح ولوط لكنْ لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الأنعام: ﴿ومن ذريتهِ داودَ وسليمانَ وأيوب﴾[2].

وأما سورة مريم فذكر الله تعالى فيها إنعامه على الأنبياء المذكورين فيها، فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحيى عليهما السلام وأنه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وأنه آتاه الحكم صبياً، وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو التوراة والنبوة، وأن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان وغير ذلك، وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لأبيه، وأن الله تعالى وهبه

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ ٥٣ ـ ٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٤.

إسحاق ويعقوب نبيّيْن، ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق علياً، ثم ذكر موسى وأنه خصَّه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغير ذلك، وذكر إسماعيل وأنه كان صادق الوعد، وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد به أباه من صبره عند الذبح فوفى بذلك، وذكر إدريس وأن الله تعالى رفعه مكاناً علياً ثم قال: ﴿أولئكَ الَّذينَ أنعَمَ اللَّهُ عليهِمْ﴾[1].

وأما سورة العنكبوت فإنه ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد، وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل، فذكر قصة إبراهيم لأنها من النمط الأول ونصرة الله له على قومه.

وكذلك سورة الصافات قال فيها: ﴿ولقد ضَلَّ قَبْلَهُمْ أكثرُ الأوَّلين * ولقد أرسَلْنا فيهِمْ مُنذِرينَ * فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المنذرين﴾[2]، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إمَّا بكونهم غلبوا وذلوا وإما بكونهم أهلِكوا ولهذا ذكر فيها قصة إلياس ولم يذكرها في غيرها ولم يذكر هلاك قومه بل قال: ﴿فكذَّبوهُ فإنَّهم لَمُحْضِرونَ * إلاَّ عبادَ الله المُخْلَصِينَ﴾[3].

وإلياس قد روي أن الله تعالى رفعه، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة فإنّ إلياس لم يقم فيهم، وإلياس المعروف بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال.

وبعد نوح عليه السلام لم يهلك جميع النوع وقد بعث في كل أمة نذيراً. والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم عليه السلام أنهم أهلكوا كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وأرادوا به كيداً فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين، وفي هذا ظهور برهانه وآيته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضاً بالقدوة حيث أذلهم ونصره، وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهد الذي قتل

(١) سورة مريم، الآية ٥٨.
(٢) سورة الصافات، الآيات ٧١ ـ ٧٣.
(٣) سورة الصافات، الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.

عدوه وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل، وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك.

ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل فإنهم إذا علَّموا الدعوة حصل المقصود، وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب.

وأمّا حال إبراهيم عليه السلام فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسعَ في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم. وقد قال تعالى: ﴿وقالَ الذينَ كفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أرضِنَا أو لتعودُنَّ في ملَّتِنَا فأوحَى إليهم ربُّهُمْ لنهلكنَّ الظَّالمينَ * ولنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ مِنْ بعدِهِمْ﴾[1] وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم يعاقبون بالهلاك.

[وهذا برهان على تأييد الله تعالى رسله ونصره لهم]!!..

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان ١٣ ـ ١٤.



الفصل الثالث

النّبوّة والرسالة ودلائلهما والفرق بينهما

وهو يشمل سبعة أبحاث:

البحث الأول : حقيقة النُّبوَّة.

البحث الثاني : النُّبوَّة تعليم من الله تعالى.

البحث الثالث : النُّبوَّة والرِّسالة.

البحث الرابع : الرُّسُل من البشر.

البحث الخامس : مجمل الفروق بين النُّبوَّة وغيرها.

البحث السادس : آيات الأنبياء دالة على صدقهم.

البحث السابع : الدَّلائل والآيات.



البحث الأول

حقيقة النُّبوَّة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كما أنَّ رسول الله لا يكون رسولاً لغيره، فلا يقبل أمرَ غيرِ الله[1]، فكذلك نبي الله لا يكون نبياً لغير الله[2]، فلا يقبل أنباءَ أحدٍ إلاَّ أنباءَ الله وإذا أخبر بما أنبأ الله، وجب الإيمان به فإنه صادق مصدوق، ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان، وهذا بخلاف غير النبي فإنه، وإن كان قد يُلهم ويُحدث ويُوحىٰ إليه أشياء من الله، ويكون حقاً، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء، ويشتبه هذا بهذا، فإنه ليس نبياً لله، كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله، بخلاف الرسول المبلِّغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وما أرسَلْنا من رسولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بإذْنِ الله﴾[4]. فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره، ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون فقال تعالى: ﴿قولوا آمَنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ من ربِّهم لا نفرِّقُ بين أحدٍ

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ٢٧١ ـ٢٧٧.

(٢) النبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عبيده لإزاحة عللهم في معاشهم ومعادهم، والنبي سُمِّي به لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الزكية/ التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ت ١٠٣١ هـ. ط عالم الكتب بيروت، ص ٣٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٤) سورة النساء، الآية ٦٤.

منهم ونحن له مسلمون﴾[1]، وقال تعالى: ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليهِ من ربِّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائكتهِ وكتبهِ ورسُلِهِ لا نفرِّقُ بينَ أحدٍ من رسلِهِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين﴾[3].

وليس كل من أُوحي إليه الوحي العام يكون نبياً فإنه قد يوحى إلى غير الناس قال تعالى: ﴿وأوحىٰ ربُّكَ إلى النَّحلِ أنِ اتخذِي من الجبالِ بُيوتاً ومنَ الشجرِ ومما يعرِشُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وأوحَى في كلِّ سماءٍ أمْرَها﴾[5]، وقال تعالى عن يوسف وهو صغير: ﴿فلَمَّا ذهبوا بهِ وأجمَعُوا أنْ يجعلُوهُ في غَيابةِ الجُبِّ وأوحَيْنا إليهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرِهِم هٰذا وهُمْ لا يشعرونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى أنْ أرْضِعِيهِ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريينَ أنْ آمنوا بي وبرسولي﴾[8]، وقوله: ﴿وما كانَ لبشرٍ أنْ يكلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وحياً﴾[9]، يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (قد كان في الأمم قبلكم محدَّثُونَ فإنْ يكُنْ في أمتي أحدٌ فعمر منهم).

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الربُّ عبده في منامه. فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الربِّ بل من إيحاء الشيطان، وإنَّما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء فهم الذين يفرقون بين

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٧.
(٤) سورة النحل، الآية ٦٨.
(٥) سورة فصلت، الآية ١٢.
(٦) سورة يوسف، الآية ١٥.
(٧) سورة القصص، الآية ٧.
(٨) سورة المائدة، الآية ١١١.
(٩) سورة الشورى، الآية ٥١.

وحي الرحمٰن ووحي الشيطان، فإنَّ الشياطين أعداؤهم، وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء قال تعالى: ﴿وكذلكَ جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً ولو شاءَ ربُّك ما فعلوهُ فذَرْهُمْ وما يفتَرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائِهِمْ ليُجَادِلُوكم وإنْ أطعتُموهُم إنَّكم لمشرِكُونَ﴾[2].

وقد غلط في النُّبوة طوائفُ غير الذين كذبوا بها، إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً كالمنافق المحض، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله، وهم خلق كثير، فهم شعبة نفاق، وإن لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه، بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور، وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثالُه الفيلسوفَ على النبي، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك، فجعل للنبي ثلاث خصائص:

١ ـ أن ينال العلم بلا تعلُّم، ويُسمِّيها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده.

٢ ـ أن يتخيَّل في نفسه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.

٣ ـ أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم بإحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية، أو ملكية أو طبعية كالنفس الفلكية والإنسانية والأشكال الفلكية

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

والطبائع التي للعناصر الأربعة والمولدات، لا يقرون بأن فوق الفلك نفس شيء يفعلُ، ولا يحدث شيئاً فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك، فضلاً عن رَبِّ العَالَم، والعقول التي يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال إلى حال ألبتة، لا بإرادة ولا قول ولا عمل، ولا غير ذلك.

وكذلك المبدأ الأول، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنَّما هو من فيض العقل الفعَّال، ثم أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء، وضلَّ بذلك طوائف، وهذا موجود في كلام ابن سينا، ومن أخذَ عنه، وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفاً بمذهبهم، وربما حذَّر منه، ووقع في كلامه طائفة من هذا في الكتب المضنون بها على غير أهلها، وفي غير ذلك، حتى في كتابه «الإحياء» يقول: الملك والملكوت والجبروت، ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذي أثبتته الفلاسفة، ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلكية، إلى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع، وهو في التهافت [أي: تهافت الفلاسفة] وغيره يُكفِّرهم.

وفي المضنون به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتى يذكر في النُّبوات عين ما قالوه، وكذلك في الإلهيات، وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبياء توجد لعموم الناس، بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل الكتاب، فإنَّه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادة ما يتميَّز به على غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره، وأمَّا التَّخييل في نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون، لكن هو يقول: إنَّ خاصَّة النَّبيِّ أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام، وهذا موجود لكثير من الناس، قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام، ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور، وللساحر.

ولكن قالوا: الساحر قصده فاسد، والممرور ناقص العقل، فجعلوا ما يحصل للأنبياء كما قال تعالى: ﴿كذلك ما أتَى الذينَ من قبلِهِم من رسولٍ إلاَّ

قالوا ساحرٌ أو مجنون * أَتَواصَوْا بِهِ بلْ هُمْ قومٌ طَاغُونَ﴾[1].

وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة والخطاب هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون، لكن الفرق بينه وبين الساحر أنَّه يأمر بالخير وذاك يأمر بالشر، والمجنون ما له عقل، وهذا القدر الذي فرَّقُوا به موجود في عامَّة الناس، فلم يكن عندهم للأنبياء مزية على السحرة والمجانين إلاَّ ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين، وكذلك ما أثبتوه من القوَّة الفعَّالة المتصرفة، هي عندهم تحصل للساحر وغيره، وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم، فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان، فما يأتي به الأنبياء من الآيات والسحرة والكهان وما يُخبر به المصروع والممرور، هو عندهم كلّه من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلكية، ويسمونها اللوح المحفوظ، والتصرف هو بالقوة النفسانية، وهذا حِذْقُ ابن سينا وتصرفه لما أخبر بأمور في العالم غريبة لما يمكنه التكذيب بها فأراد إخراجها على أصولهم، وصرَّح بذلك في إشارته، وقال: هذه الأمور لم نثبتها ابتداءً بل لما تحققنا في العالم أموراً من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها.

وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة، ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبياء، ولكن كان السحر موجوداً فيهم، وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والإلهية، فإن حدوث هذه الغرائب من الجن واقترانهم بالسحرة، والكهان ممَّا قد عرفه عامَّةُ الأمم، وذكروه في كتبهم غير العرب مثل الهند والترك وغيرهم من المشركين وعبَّاد الأصنام، وأصحاب الطلاسم والعزائم، وعرفوا أن كثيراً من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين، وهؤلاء الجهَّال لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبيّاً، وكذلك ابن سبعين وغيره. والنُّبوَّة الحق هي إنباء الله لعبده، ونبي الله من كان الله هو الذي يُنبئه، ووحيه من الله، وهؤلاء وحيهم من الشياطين، فهم من جنس المتنبِّئين الكذَّابين،

(١) سورة الذاريات، الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

كمسيلمة الكذاب وأمثاله، بل أولئك أحذق منهم، فإنَّهم كانت تأتيهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا، ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا، وكذلك صرعهم للإنس وتكلمهم على ألسنتهم، والفرق بين النَّبيِّ والساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار.

والنَّبيُّ يأتيه مَلَكٌ كريمٌ من عند الله ينبئه الله، والساحر والكاهن إنَّما معه شيطان يأمره ويخبره، قال تعالى: ﴿هلْ أُنبِّئُكُمْ على مَنْ تنزَّلُ الشياطينُ * تنزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلْقُون السمعَ وأكثرُهُم كاذِبُونَ﴾[1] فلا الخبر كالخبر، ولا الأمر كالأمر، ولا مخبر هذا كمخبر هذا، ولا آمر هذا كآمر هذا، كما أنَّه ليس هذا مثل هذا، ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمد وأنه ملك منفصل ليس خيالاً في نفسه كما يقوله هؤلاء، قال تعالى: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كريم * ذِي قُوَّةٍ عندَ ذِي العرشِ مَكِينٍ * مُطاعٍ ثم أمينٍ * وما صاحِبُكمْ بمجنونٍ * ولقد رآهُ بالأُفُقِ المبينِ * وما هُوَ على الغيبِ بضَنينٍ * وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم * فأينَ تذهبونَ * إنْ هُوَ إلاَّ ذِكرٌ للعالمينَ * لِمَنْ شاءَ منكم أنْ يستقيمَ * وما تشاؤونَ إلاَّ أنْ يشاءُ الله ربُّ العالمينَ﴾[2].
فالقرآن قول رسوله وهو كلام الله أرسله الله تعالى به ليبلِّغه للناس.

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.
(٢) سورة التكوير، الآيات ١٩ ـ ٢٩.

البحث الثاني

النُّبوَّة تعليم من الله تعالىٰ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: النبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلاَّ نبي مثله، قال الله تبارك وتعالى[1]: ﴿وما أرسلنا قبلك إلاَّ رجالاً نُوحِي إليهم فاسْألُوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتُمْ لا تعلمونَ﴾[2]، كما ذكره في سورة النحل والأنبياء، وقال في يوسف: ﴿وما أرسلنا منْ قبلِكَ إلاَّ رِجالاً نوحي إليهِمْ منْ أهلِ القُرى أَفَلَمْ يسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ منْ قبلِهِمْ ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتَّقَوْا أفَلا تعقِلُون﴾[3].

فإن الكفار كانوا يقولون: إنَّما يُرسل الله ملكاً، أو يُرسل مع البشر ملكاً كما قال فرعون: ﴿أمْ أنَا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يَكَادُ يُبينُ * فلَوْلا أُلقِيَ عليهِ أَسْورةٌ من ذهبٍ أو جاءَ معهُ الملائكةِ مقترنِينَ﴾[4]، وقال قوم نوحٍ: ﴿ما هٰذا إلا بشَرٌ مثلكُم يريدُ أنْ يتفضَّلَ عليكُمْ ولو شاءَ الله لأنزلَ ملائكةً ما سمعْنا بهٰذا في آبائِنا الأَوَّلينَ﴾[5]، وقال مشركو العرب لمحمد: ﴿ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطَّعامَ ويمشي في الأسواقِ لولا أُنْزِلَ إليهِ مَلَكٌ فيكونَ معَهُ نذيراً * أوْ يُلقىٰ إليهِ كَنزٌ أو تكونَ له جَنَّةٌ يأكلُ منها﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وما منعَ النّاسَ أنْ يُؤمِنُوا إذْ جاءَهُم الهُدَى إلاَّ أنْ قالوا أبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً * قُلْ لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشونَ مطمئنينَ لنَزَّلْنا عليهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ ٣٥ ـ ٤٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٧.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٩.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

(٥) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

(٦) سورة الفرقان، الأيتان ٧ ـ ٨.

رسولاً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وقالوا لَوْلا أُنزلَ عليهِ مَلَكٌ ولَوْ أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرونَ * ولو جعلناهُ مَلَكاً لجعلناهُ رجُلاً ولَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُون﴾[2]. بيَّن أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس.

وقال تعالى: ﴿أكانَ للنَّاسِ عَجَباً أنْ أوحَيْنا إلى رجلٍ مِنهمُ أنْ أنذِرِ النَّاسَ﴾[3]. وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم: ﴿فاسْألُوا أهلَ الذكرِ﴾ يعني أهل الكتاب ﴿إنْ كنتم لا تعلَمونَ﴾[4]. هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة، ولهذا قال له: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعَاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[5]، وقال: ﴿وما محمدٌ إلاَّ رَسُولٌ قد خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُلُ﴾[6]. بيّن أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عمّا عندهم من العلم من أُمور الأنبياء، هل هو من جنس ما جاء به محمَّدٌ، أو هو مخالف له ليتبيَّن بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء، وحينئذٍ فيعرف قطعاً أن محمَّداً نبيٌّ! بل هو أحقُّ بالنُّبوَّة من غيره!! والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفاً كالأول يعرفه كل كتابيٍّ، قال تعالى: ﴿قُلْ أرَأَيْتُم إنْ كانَ من عِنْدِ الله وكفرتُمْ بهِ وشَهِدَ شاهِدٌ من بني إسرائيلَ على مثلهِ﴾[7].

وقوله: ﴿شَهِدَ شاهدٌ﴾ ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً، بل ولا يحتمل كونه واحداً. وقوله من قال: إنه عبد الله بن سلام ليس بشيء، فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام، ولكن المقصود جنس الشاهد كما

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان ٨ ـ ٩.
(٣) سورة يونس، الآية ٢.
(٤) سورة النحل، الآية ٤٣.
(٥) سورة الأحقاف، الآية ٩.
(٦) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.
(٧) سورة الأحقاف، الآية ١٠.

تقول: قام الدليل، وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول، فإن خبرك بهذا صادق. وقوله: ﴿على مِثْلِهِ﴾ فإن الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهو أن الله بعث بشراً وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك.

وقد ذكر في أول هذه السورة التوحيد، وبيَّن أن المشركين ليس معهم على الشرك لا دليل عقلي، ولا سمعي، فقال تعالى: ﴿ما خَلَقْنا السَّمٰواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ، وأجلٍ مُسمًّى، والذين كفروا عمَّا أُنذِروا معرضون * قُلْ أرأيتُمْ ما تدعونَ مِن دونِ الله أروني ماذا خلَقُوا مِنَ الأرضِ أمْ لهُمْ شِرْكٌ في السمٰواتِ، ٱئْتُوني بكتابٍ من قَبْلِ هذا أو أثَارةٍ من عِلْم، إنْ كنتُمْ صادقينَ * ومَنْ أضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ الله من لا يستجيبُ لَهُ إلى يوم القيامَةِ وهم عَنْ دعائِهِم غافلُونَ * وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءاً وكانوا بعبادتِهم كافرينَ * وإذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُنَا بَيِّناتٍ قالَ الذينَ كفروا للحقِّ لمَّا جاءَهُم هذا سحرٌ مُبينٌ * أمْ يقولونَ افتراهُ، قُلْ إنِ افتريتُهُ فلا تملكونَ لي منَ الله شيئاً هُوَ أعلَمُ بِمَا تُفيضُونَ فيه كفىٰ به شهيداً بيني وَبَيْنَكُمْ وهو الغفورُ الرحيمُ * قُلْ ما كنتُ بِدْعَاً مِنَ الرسلِ وما أدْري ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمْ إنْ أتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ وما أنا إلاَّ نذيرٌ مبينٌ * قلْ أرأيتم إن كان من عندِ الله وكفرتُمْ بهِ وشهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيلَ على مثلهِ﴾[1] إلى آخره.. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ويقولُ الذينَ كَفَروا لسْتَ مُرْسلاً قُلْ كفَى باللَّهِ شهيداً بيني وبينَكم ومَنْ عندَهُ علمُ الكتابِ﴾[2]. فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل[3]، ويشهد أيضاً بالعين،

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات ٢ ـ ١٠.

(٢) سورة الرعد، الآية ٤٣.

(٣) لأنه يشهد بالمثل، ويشهد أيضاً بالعين: هذا بعض معنى قوله تعالى: ﴿والذين يُحاجُون في الله من بعد ما استجيب لهم حجتهم دَاحِضَةٌ عند ربِّهم﴾. فإيمان واحد حجة على الكل، ولا عذر لكافر بعد ذلك، وقد اقتضت حكمته تعالى أن يرسل رسلاً متتابعين لتكون الحجة أبلغ على مرِّ الأجيال.

وكل من الشهادتين كافية فمتى ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى: ﴿فإنْ كنتَ في شَكٍ بما أنزلنَا إليكَ فاسألِ الذينَ يقرؤونَ الكتابَ من قبلِكَ لقدْ جاءَكَ الحقُّ من ربِّكَ فلا تكوننَّ من الممترينْ * ولا تكونَنَّ من الذين كذَّبُوا بآياتِ الله فتكونَ مِنَ الخاسرين﴾[1]، ﴿إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قبلهِ إذا يُتْلى عليهم يخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً * ويقولون سبحانَ ربِّنَا إنْ كانَ وعدُ ربِّنَا لمفعولاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهُمُ الكتابَ من قبلِهِ هُمْ بِهِ يُؤمنون * وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنَّا بهِ إنَّهُ الحقُّ من ربِّنَا إنَّا كنَّا من قبلِهِ مُسلمينَ * أولئِكَ يُؤْتُونَ أجْرَهُمْ مرَّتين بما صبرُوا﴾[3]، وهذا كله في السور المكية، والمقصود الجنس، فإذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب.

لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد، فإن هذا متعذر، ومَنْ أنكر أو قال لا أعلم لم يضر إنكاره، وإن قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم افتراؤه في الجنس، وعلم في الشخص إذ كان لم يُحِطْ علماً بجميع نُسَخ الكتب المتقدمة، وما في النبوات كلها، فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أنَ يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة بكل كتاب من كتب الأنبياء إذ العلم بذلك متعذر، ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع.

والمقصود أن الله قال لمحمد: ﴿قُلْ ما كنتُ بِدْعاً من الرسلِ﴾[4]، وقال: ﴿وما محَمَّدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبلِهِ الرسُلُ﴾[5] فبيَّن أنَّ هذا الجنس من النَّاس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم. وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما

---

(١) سورة يونس، الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) سورة القصص، الآيات ٥٢ ـ ٥٤.

(٤) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

يعرفون أنَّ الله صدَّقَه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص إذِ النَّوع قد عُرف قبل هذا، فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

وقد قلنا إن ما يأتي به أتباع الأنبياء من ذلك هو مختص بالنوع، فإنا نقول هذا لا يكون إلاَّ لمن اتَّبع الأنبياء فصار مختصاً بهم، وأمَّا ما يوجد لغير الأنبياء وأتباعهم فهذا هو الذي لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان.

وقد عرف الناس أنَّ السحرة لهم خوارق، ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا: هو ساحر، كما قال فرعون لموسى: ﴿إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ * يُريدُ أنْ يُخرجَكُم من أرضِكُم بسحرِهِ فماذا تأمرُونَ﴾[1]، وقال للسحرةَ لما آمنوا: ﴿إنَّه لكبيرُكُم الذي علمكم السِّحْرَ﴾[2] و﴿إنَّ هذا لَمَكْرٌ مكرتموهُ في المدينةِ لتخرجُوا منها أهلَها﴾[3]. كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون: ﴿يا أيها الساحرُ ادعُ لنا ربَّكَ﴾[4]، وكذلك المسيح، قال تعالى: ﴿وإذْ قال عيسى ابنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ الله إليكُمْ مصدِّقاً لما بينَ يديَّ من التَّوارةِ ومبشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسْمُهُ أحمدُ، فلمَّا جاءَهُم بالبيناتِ قالوا هذا سحرٌ مبينٌ﴾[5]، وقال تعالى عن كفار العرب: ﴿وإنْ يَرَوْا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سِحْرٌ مستَمِرٌ﴾[6]، وإن نسبوه إلى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح: ﴿مجنونٌ وازْدُجِر﴾، وقالوا عن موسى: ﴿إنَّ رسولَكُمُ الذي أُرسلَ إليكم لمجنون﴾، وقال عن مشركي العرب: ﴿وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونَكَ بأبصارِهم لمَّا سمِعُوا الذِّكر ويقولون إنَّه لمجنونٌ﴾[7]، وقال

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) سورة طه، الآية ٧١.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٣.
(٤) سورة الزخرف، الآية ٤٩.
(٥) سورة الصف، الآية ٦.
(٦) سورة القمر، الآية ٢.
(٧) سورة القلم، الآية ٥١.

تعالى: ﴿ما أتى الذينَ مِنْ قبلهم من رسولٍ إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ ۞ أتَوَاصَوْا بهِ بَلْ هُمْ قومٌ طَاغُون﴾[1] . فالسحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة معتادة فيهم، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم.

(١) سورة الذاريات، الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

البحث الثالث

النُّبوَّة والرسالة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: المقصود هنا[1]: الكلام على النبوة. فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأمَّا إذا كان إنَّما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي، وليس برسول، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلكَ مِنْ رسولٍ ولا نبي إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطانُ في أُمنيتهِ﴾[2]، وقوله: ﴿مِنْ رسولٍ ولا نبيٍ﴾. فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح، عشرة قرون كلهم على الإسلام فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يُوحىٰ إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن، كما فهم الله سليمان

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ ٢٨٠ ـ ٤٨٤.

(٢) سورة الحج، الآية ٥٢.

الحكيم القضية التي حكم فيها هو وداود، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسلَ قومٌ، قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذينَ من قبلهِمْ من رسولٍ إلاَّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ﴾[1]، وقال: ﴿ما يُقالُ لكَ إلاَّ ما قدْ قِيلَ للرسُلِ من قبلِكَ﴾[2]، فإن الرسلِ ترسلِ إلى مخالفين، فيكذبهم بعضهم وقال: ﴿وما أرسَلْنا من قبلِكَ إلاَّ رجالاً نُوحِي إليهم مِنْ أهلِ القُرَى أفلَمْ يسيروا في الأرضِ فينظرُوا كيفَ كان عاقبةُ الَّذينَ من قبلِهم، ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتَّقَوْا أفلا تعقِلونَ * حتى إذا استيأسَ الرسُلُ وظنُّوا أنَّهم قد كُذِبُوا جاءَهُمْ نصرُنَا فننجِّي مَنْ نشاءُ ولا يُرَدُّ بأسُنَا عن القومِ المجرمينَ﴾[3]، وقال: ﴿إنَّا لننصرُ رُسُلَنَا والَّذين آمَنُوا في الحياة الدنيا ويوم يَقوم الأشهاد﴾[4].

فقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍ﴾[5] دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنَّه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء[6]. وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدةٍ، فإن يوسف كان رسولاً وكان على ملَّة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة. قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿ولقدْ

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٢.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٣.

(٣) سورة يوسف، الآيتان ١٠٩ ـ ١١٠.

(٤) سورة غافر، الآية ٥١.

(٥) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٦) هذا من حديث طويل: «من سَلكَ طريقاً يطلب فيه علماً سَلكَ الله به طريقاً من طرق الجنّة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحها رضاً لطالب العلم، وإن العالِمَ يستغفرُ له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلةَ البدرِ على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثةُ الأنبياء...» أخرَجه أحمد ج ١٩٦/٥/ والدارمي ج ٩٨/١/ وأبو داود برقم / ٣٦٤١/ والترمذي برقم ٢٦٨٢/ وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن رقم ٨٠/.

جاءَكُمْ يوسفُ من قبلُ بالبيِّناتِ فما زلتُمْ في شَكٍّ ممَّا جاءَكُم بهِ حتى إذا هلَكَ قلتُمْ لنْ يبعثَ الله من بعدهِ رسولاً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إنَّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنَّبيِّينَ من بعدِهِ، وأوحينَا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويُونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينَا دوادَ زبوراً * ورُسُلاً قد قَصَصْنَاهُمْ عليكَ مِنْ قبلُ ورُسُلاً لم نَقْصُصْهُمْ عليك وكلَّمَ الله موسى تكليماً﴾[2].

والإرسال اسم عام يتناول إرسال الملائكة، وإرسال الرياح، وإرسال الشياطين، وإرسال النار. قال تعالى: ﴿يُرسلُ عليكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿جاعلُ الملائكةِ رُسلاً أُولي أجنحةٍ﴾[4]. فهنا جعل الملائكة كلهم رسلاً، والملك في اللغة هو حامل الألوكة وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر: ﴿والله يصطفي من الملائكةِ رسُلاً ومن النَّاس﴾[5]، فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي، كما قال: ﴿وما كانَ لبشرٍ أن يُكلِّمَهُ الله إلاَّ وَحْياً أو من وراءِ حِجَابٍ أو يُرسلَ رسولاً فيُوحِي بإذنِهِ ما يشاءُ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وهو الذي يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يدَيْ رحمتِهِ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿أنَّا أرْسَلنا الشَّياطين على الكافرين تؤزُّهُم أزّاً﴾[8].

لكن الرسول المضاف إلى الله إذا قيل: رسول الله، فهو من يأتي برسالة من الله من الملائكة والبشر، كما قال: ﴿الله يصطفي مِنَ الملائكةِ رُسُلاً ومن النَّاس﴾[9]، وقالت الملائكة: ﴿يا لوطُ إنَّا رسلُ ربِّكَ لن يصلوا إليك﴾[10].

---

(١) سورة غافر، الآية ٣٤.
(٢) سورة النساء، الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣) سورة الرحمن، الآية ٣٥.
(٤) سورة فاطر، الآية ١.
(٥) سورة الحج، الآية ٧٥.
(٦) سورة الشورى، الآية ٥١.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٥٧.
(٨) سورة مريم، الآية ٨٣.
(٩) سورة الحج، الآية ٧٥.
(١٠) سورة هود، الآية ٨١.

وأما عموم الملائكة والرياح والجن، فإن إرسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة، قال تعالى: ﴿اذكُرُوا نعمةَ الله عليكُم إذْ جاءتْكم جنودٌ فأرسلنَا عليهم ريحاً وجنوداً لم ترَوْها وكانَ الله بما تعملونَ بصيراً﴾[1] . فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الإطلاق، وأما من أرسله الله ليفعل فعلاً بمشيئة الله وقدرته، فهذا عام يتناول كل الخلق، كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وإذنه المتضمن لمشيئته، لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله، والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته، وهذا كلفظ البعث يتناول البعث الخاص، البعث الشرعي كما قال: ﴿هو الذي بعثَ في الأمِّيِّين رسولاً منهم﴾[2]، ويتناول البعث العام الكوني كقوله: ﴿فإذا جاءَ وعدُ أُولاَهُمَا بعثنَا عليكم عباداً لنا أُولي بأْسٍ شديد فجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَار﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وإذْ تأذَّنَ ربُّكَ ليبعثَنَّ عليهمْ إلى يومِ القيامةِ مَنْ يسومُهُمْ سُوءَ العذاب﴾[4] . فالعام بحكم مشيئتَه وقدرته، والخاص هو أيضاً بحكم مشيئته وقدرته، وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته، وصاحب الخاص من أولياء الله يكرمه ويثبته، وأما من خالف أمره فإنه يستحق العقوبة، ولو كان فاعلاً بحكم المشيئة فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً، ولا يحتج بالمشيئة على المعاصي إلا من تكون حجته داحضة، ويكون متناقضاً متبعاً لهواه، ليس عنده علم بما هو كالمشركين الذين قالوا: ﴿لو شاءَ الله ما أشرَكْنا ولا آباؤُنَا ولا حرَّمنا مِنْ شيءٍ﴾[5]، كما قد بسط في غير هذا الموضع، والله أعلم[6] .

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٦٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٤٨.

(٦) النبوات: ٢٨٤.

البحث الرابع

الرسل من البشر

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمّا حكمته سبحانه في إرسال بشر[١]، فقد ذكر أنه من جنسهم، وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك، وأنه لو نزَّل ملكاً لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه، ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين، كما كان جبرائيل يأتي في صورة دحية الكلبي، وكما أتى مرة في صورة أعرابي، ولما جاؤوا إبراهيم وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر، وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿وما منعَ الناسَ أنْ يُؤمنوا إذْ جاءَهُمُ الهُدى إلاَّ أنْ قالوا أبعثَ الله بشراً رسولاً * قُلْ لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يمشونَ مطمئنِّينَ لنزَّلْنا عليهم مِنَ السماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾[٢].

وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيُّهُ، فكما تقدم فإنه إذا كان قادراً على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعاماً عليه، وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه، فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه، وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه، والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم، فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول الله من أرسله إليه بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول، وإن كان لم تتقدم مواطأة وموافقة بين المرسل والمرسل إليهم، فمن هدى عباده إلى

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

أن يرسلوا رسولاً بعلامة ويعلم المرسل إليها أنها علامة تدل على صدقه قطعاً، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله، وهذا كمن جعل غيره قديراً عليماً حكيماً، فهو أولى أن يكون قديراً عليماً حكيماً. فمن جعل الناس يعلمون صدق رسوله يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله، فمن هدى العباد إلى هذا فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة، وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول: طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضاً ما يفعل، وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل وطريق الرحمة وكلها طرق صحيحة، وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود فإنَّه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله، وأن ما جاء به من الآيات آية من الله وهي شهادة من الله له بصدقه، وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من هذا، وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه، وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه، وما لا يقدرون على أن يعلموه، وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه، فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد علم من سنته سبحانه أنَّه لا يؤيد الكذاب بمثل ما أيَّدَ به الصادق قط، بل لا بدَّ أن يفضحه ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه، وإذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه بل هو ظالم سلَّطه على ظالم كما قال تعالى: ﴿وكذلكَ نُولي بعضَ الظَّالمينَ بعضاً﴾[1]، بخلاف من قال إنَّه أرسله، فهذا لا يؤيِّده تأيِّيداً مستمراً إلا مع الصدق، لكن قد يمهله مدة، ثم يهلكه كما فعل بمن كذب الرسل ﴿إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٩.

(٢) سورة الطارق، الآيات ١٥ ـ ١٧.

ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل إنَّما قيل مضافاً إلى الله فيُقال رسول الله، ثم عُرِّف باللام فكانت اللام تعقب الإضافة كقوله: ﴿أرسَلْنا إلى فِرعونَ رسولاً * فعصى فرعونُ الرسولَ﴾[1]، وقوله: ﴿لا تجعلُوا دُعاءَ الرسولِ بينَكُم كدعاءِ بعضِكم بعضاً، قد يعلمُ اللهُ الذينَ يتسلَّلون منكم لِوَاذاً﴾[2]. وكذلك اسم النبي يقال: نبي الله كما قال: ﴿فلِمَ تقتلونَ أنبياءَ الله من قبلُ إن كنتُمْ مؤمنينَ﴾[3]، وقيل لهم: ﴿لا تجعلوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بينكم كدعاءِ بعضِكم بعضاً﴾، فتقولون يا محمد، بل قولوا يا نبي الله، يا رسول الله. ورسول فعول بمعنى مفعول أي مرسل، فرسول الله الذي أرسله الله، فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول، أي مُنبَّأ الله الذي نَبَّأَهُ الله، وهذا أجود من أن يقال إنَّه بمعنى فاعل، أي منبِّىء، فإنَّه إذا نبَّأه الله فهو نبي الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه، فالذي صار به النَّبيُّ نبياً أن ينبِّئَه الله، وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره، فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أنَّ الرسول هو الذي يرسله الله، فما نبأ الله حقٌّ وصدقٌ ليس فيه كذب، لا خطأً ولا عمداً، وما يُوحيه الشيطانُ هو من إيحائه ليس من أنباء الله، فالذي اصطفاه الله لأنبيائه، وجعله نبياً له كالذي اصطفاه لرسالته، وجعله رسولاً له!.

(١) سورة المزمل، الآيتان ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة النور، الآية ٦٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٩١.

البحث الخامس

مجمل الفروق بين النُّبوَّة وغيرها

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: النبوة لا تنال بكسب العبيد ولا آياتها تحصل بكسب العباد، وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبين السحر والكهانة، وبينهما فروق كثيرة أكثر من عشرة[1]، منها:

١ ـ أن ما تخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقاً، وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور من المسلمين فإنه لا بد فيه من الكذب.

٢ ـ أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا بالعدل، وهؤلاء المخالفون لهم لا بدَّ لهم من الظلم، فإن ما خالف العدل لا يكون إلاَّ ظلماً فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما حرَّمَ ربِّي الفَواحِشَ ما ظهرَ منها وما بطَنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشْرِكُوا باللهِ ما لم ينزِّلْ بهِ سلطاناً وأنْ تقولُوا على الله ما لا تعلَمُونَ﴾[2].

٣ ـ أن ما يأتي به من يخالفهم معتاد لغير الأنبياء، كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور، وآيات الأنبياء هي معتادة أنَّها تدل على خبر الله وأمره على علمه وحكمه، فتدل على أنَّهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوَّتهم سواء كانوا هم المخبرين أو

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٣٩ ـ ٤٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

غيرهم، وكرامات الأولياء هي من هذا، فإنَّهم يخبرون بنبوة الأنبياء، وكذلك أشراط الساعة هي أيضاً تدلُّ على صدق الأنبياء إذ كانوا قد أخبروا بها، فالذي جعله أولئك من كرامات الأولياء وأشراط الساعة ناقضاً لآيات الأنبياء إذْ هو من جنسها، ولا يدل عليها، فأولئك كذبوا بالموجود، وهؤلاء سوَّوْا بين الآيات وغيرها، فلم تكن في الحقيقة عندهم آية وكانت الآيات عند أولئك منتقضة، وأولئك نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق، وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً بقول الباطل فقالوا: إن الآية هي المقرونة بالدعوة التي لا تعارض، وزعموا أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة إذا جعل آية، وأنه إذا لم يعارض كان آية وهو تكذيب بالحق أيضاً، فإنَّه قد ادعاه غير نبي ولم يعارض، فالطائفتان أدخلت في الآيات ما ليس منها، وأخرجت منها ما هو منها، فكرامات الأولياء وأشراط الساعة من آيات الأنبياء وأخرجوها، والسحر والكهانة ليس من آياتهم وأدخلوها أو سوَّوْا بينها وبين الآيات بل وفوا بها[1].

٤ ـ إن آيات الأنبياء والنبوة لو قدر أنها تنال بالاكتساب فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته، فإنه لا يقول عاقل إن أحداً يصير نبياً بالكذب والظلم، بل بالصدق والعدل سواء قال: إن النبوة جزاء على العمل، أو قال إنه إذا زكى نفسه فاض عليه ما يفيض على الأنبياء، فعلى القولين هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل، وحينئذ فيمتنع أن صاحبها يكذب على الله، فإن ذلك يفسدها بخلاف من خالف الأنبياء من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل البدع والفجور من أهل الملل وأهل الكتاب والمسلمين، فإن هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والإثم، بل خوارقهم مع ذلك أشد لأنهم يخالفون الأنبياء وما ناقض الصدق والعدل لم يكن إلا كذباً وظلماً.

٥ ـ أن ما تأتي به السحرة والكهان، والمشركون وأهل البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدوراً للإنس والجن، وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[2].

---

(١) هكذا الأصل ولعله بل قدموها.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

٦ ـ أن ما يأتي به السحرة والكهان، وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب، وآيات الأنبياء لا يمكن أحد أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها، وكذلك كرامات الصالحين لا تعارض بمثلها ولا بأقوى منها، بل قد يكون بعضها آيات أكبر من بعض، وكذلك آيات الصالحين لكنَّها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد، وهو عبادة الله وتصديق رسله، فهي آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد، والأدلة بعضها أدل وأقوى من بعض، ولهذا كان المشايخ الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضاً بخوارق إما بقتل وأمراض، وإما بسلب حاله وعزله عن مرتبته، وإما غير ذلك، خوارقهم شيطانية ليست من آيات الأنبياء والأولياء، وكثير من هؤلاء يكون في الباطن كافراً منافقاً وكثير منهم يموت على غير الإسلام، وكثير منهم يكون مسلماً مع ظلم يعرف أنه ظلم، ومنهم من يكون جاهلاً يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله، وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض، فهذا خارج عن سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين.

٧ ـ أن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادات، عادات الإنس والجن، بخلاف خوارق مخالفيهم، فإنَّ كل ضرب منها معتاد لطائفةٍ غير الأنبياء، وآيات الأنبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصدقون من صدق على الله، وهم الذين جاؤوا بالصِّدق وصدقوا، وتلك معتادة لمن يفتري الكذب على الله، أو يكذب بالحق لما جاءه، فتلك آيات على كذب أصحابها، وآيات الأنبياء آيات على صدق أصحابها، فإن الله سبحانه لا يُخْلِي الصّادقَ ممَّا يدلُّ على صدقه، ولا يُخْلِي الكاذبَ ممَّا يدلُّ على كذبه.

البحث السادس

آيات الأنبياء دالة على صدقهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، وإن النبي الصادق خير الناس، والكاذب على الله شر الناس، وبينهما من الفروق ما لا يحصيه إلا الله. فكيف يشتبه هذا بهذا، بل لهذا من دلائل صدقه، ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن إحصاؤه، وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقط غلط، بل آيات الأنبياء هي من آيات الله الدالة على أمره ونهيه ووعده ووعيده، وآيات الله كثيرة متنوعة كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى.

والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الأمثال في ذلك، وهو يسميها آيات وبراهين[1]، وهي المعجزات[2].

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المعجزة هي أمرٌ يُظهره الله بخلاف العادة على يَدِ صاحب النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يُعجز المنكرين عن الإتيان بمثله. والمعجزات تفضُّلٌ من الله على أنبيائه ليذعن النَّاسُ لهم ويقبلوا دعوتهم.. وهي ليست واجبه على الله كما يرى المعتزلة والفلاسفة، لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء قال تعالى: ﴿وربُّكَ يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ..﴾ وقال ﴿فعَّال لما يريد﴾.. وليست مستحيلة لوقوعها وتحققها، فهي ممكنة عقلاً، واقعة فعلاً.

وقد ثبتت معجزة القرآن بالتواتر وثبت فيه معجزات الأنبياء ومعجزة كل نبي موافقة لحال القوم الذين بعث إليهم، ومن جنس ما عرفوا. قال القاضي عبد الجبار بن أحمد: جعل الله سبحانه وتعالى معجزة كل نبي مما يتعاطاه أهل زمانه، فجعل معجزة موسى عليه السلام قلب العصا حية لما كان الغالب على أهل ذلك الزمان السحر.

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنَ الأنبياء نبيٌ إلاَّ قد أُعطي من الآيات ما أمن على مثلِهِ البشرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحَاهُ الله إليَّ فأرجُو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة).

آيات النّبوّة ومعجزاتها وبراهينها:

وحقيقة الأمر[1] أنَّ ما يدلُّ على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصاً بها لا يكون مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الأنبياء، لكن إذا كانت معتادة لكل نبي أو لكثير من الأنبياء لم يقدح هذا فيها فلا يضرها أن تكون معتادة للأنبياء، وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث، ولا السلف، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط وهو عديم التأثير، فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم.

إن كون الشخص يخبره الله بالغيب خبراً معصوماً هذا مختص بهم، وليس هو موجوداً لغيرهم فضلاً عن كونه معتاداً.

حقيقة معجزة الأنبياء:

فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين وذلك لأنها حينئذٍ لا تكون مختصة بالنَّبيِّ بل مشتركة، وبهذا احتجوا على أنه لا بد أن تكون خارقة للعادة، لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق آية، فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم، كما أن ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم. ولهذا إذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجَّب الناس إذا كانوا لا يعرفون طريقه، فليس في هذا ما يختص بالنبي، وكذلك قراءة القرآن بعد أن بعث محمد ﷺ صارت مشتركة بين النبي وغيره. وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي، وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الأنبياء لما صار مشتركاً بين النبي وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به.

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٠ ـ ٣٢.

فالكهانة مثلاً، وهو الإخبار ببعض الغائبات عن الجن، أمر معروف عند الناس وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى، ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول، لأن هؤلاء أعداء الأنبياء، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبياء فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم على مَنْ تنزَّلُ الشَّياطينُ * تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وأكثرُهُمْ كَاذِبُون﴾[1].

فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يناقض النبوة، فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهان، وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم لوجود هذا الجنس لغير الأنبياء كالذين صدقوا مُسَيْلَمَة الكذاب، والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذَّابين، وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم، لكن ليستْ خارقةً لعادةِ جنسهم ممن ليس بنبي، فمن صدَّقهم ظنَّ أنَّ هذا مختص بالأنبياء، وكان من جهله بوجود هذا لغيرِ الأنبياء، كما أنَّهم كانوا يأتون بأمور تناقض النُّبوَّة.

وفي صحيح الجامع الصغير ج٢/ ١٠٣١/ برقم ٥٩٣٩: عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أتَى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقَهُ بما يقُولُ، فقدْ كفرَ بما أُنزِلَ على محمّدٍ». أخرجه أحمد والحاكم، وهو حديث صحيح.

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

البحث السابع

الدلائل والآيات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الدليل الذي هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم[1]، فإنه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه، وتارة يتحقق مع عدمه، فإذا تحقق لم يعلم هل وجد المدلول أم لا، فإنه كما يوجد مع وجوده يوجد مع عدمه، ولهذا كان الدليل إما مساوياً للمدلول عليه، وإما أخص منه لا يكون أعم من المدلول، ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص، كطلوع الشمس، والقمر والكواكب، لا يدل على صدق أحد ولا كذبه، لا مدعي النبوة ولا غيره، فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق، لكن يدل على ما هو أعم منها هو وجود الربِّ، وقدرته ومشيئته وحكمته، فإن وجود ذاته وصفاته ثابت، سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن، فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه، ولا يلزم من عدمه عدم خالقه، فلهذا كانت المخلوقات كلها آياتٍ للرب، فما من مخلوق إلا وهو آية له، هو دليل وبرهان، وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته، وإذا عدم كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه، ويجتمع على المعلوم الواحد من الأدلة ما لا يحصيه إلا الله، وقد يكون الشيء مستلزماً لدليل معين، فإذا عدم عُرف انتفاؤه، وهذا مما يكون لازماً ملزوماً، فتكون المّلزَامة من الطرفين فيكون كل منهما دليلاً، وإذا قُدِّر انتفاؤه كان دليلاً على انتفاء الآخر كالأدلة على الأحكام الشرعية، فما من حكم إلا جعل الله عليه دليلاً، وإذا قُدِّرَ انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم علم أنه ليس حكماً

(١) النبوَّات: لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦/.

شرعياً، وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فإنَّه إذا نقل دل التواتر على وجوده، وإذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعي على نقله لو كان موجوداً علم أنه لم يوجد كالأمور الظاهرة التي يشترك فيها الناس، مثل موت ملك، وتبدل ملك بملك، وبناء مدينة ظاهرة، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد، فمثل هذه الأمور لا بد أن ينقلها النَّاس إذا وقعت، فإذا لم تنقل نقلاً عاماً بل نقلها واحد علم أنَّه قد كذب.

الفصل الرابع

رسالة النّبيّ ﷺ

«تضمنتْ أُصولَ الدينِّ وحَوَتِ الحقَّ اليَقِين»

وهو يشمل أربعة أبحاث:

البحث الأول : أُصول الدِّين قد بيَّنها الرسول ﷺ.

البحث الثاني : رسالة النَّبيِّ ﷺ وما تتضمنه من بيان الحق في أصول الدِّين وفروعه.

البحث الثالث : الحقُّ في اتِّباع الرَّسول ﷺ.

البحث الرابع : النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون المهتدُون.



البحث الأول

أُصول الدِّين قد بيّنها الرسول ﷺ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: المراد بأُصول الدين[١]:

هي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر، فلا بُدَّ أن يكون قد بيَّن الدلائل على صدقه في كل ما أخبر، ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر، ومن أعظم أصول الضلال الإعراض[٢] عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج، فإن المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله، ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم، وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته، فإن لم يكونوا عالمين بصدقه فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بُعث فيكم، فأمَّا المؤمن أو الموقن[٣] فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه، وأما المنافق أو المرتاب[٤] فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمزربَّة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين[٥].

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية/ ٧٤ ـ ٧٦ و ٨١ ـ ٩١.

(٢) الإعراض: الإنصراف عن الشيء مع القدرة عليه.

(٣) الموقن: أي المتثبت ـ مأخوذ من اليقين.

(٤) المرتاب: المتشكك من الريبة.

(٥) معنى حديث طويل رواه المنذري في الترغيب من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال الترمذي: حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح. والحديث في الصحيحين ولفظ البخاري: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم، إذا انصرفوا، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل (يعني النبي محمد؟) فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال =

وإن استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً، لا بُدَّ أن يخطىء ويضلَّ فإن ظنَّ الظانُّ أنه أتى بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده، وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغَالِطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر، كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالِطين أصحاب الإرادة والمحبة والزهد.

وقوله ﷺ في خطبته يوم الجمعة: (خيرُ الكلام كلامُ الله، وخيرُ الهَدْي هدي محمَّدٍ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعةٍ ضلالَة)[1] يتناول هذا وهذا، وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق، فإن أرباب العبادة والمحبة والإرادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلَّت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والاستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضاً ضلوا، قال تعالى: ﴿فإمَّا يأتيَنَّكُم مني هُدىً فمنِ اتَّبعَ هُدَايَ فلا يضِلُّ ولا يشقَى * ومَنْ أعرضَ[2] عن ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً[3] ونحشرُهُ يومَ القيامة أعمى * قال: ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتْكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسىٰ﴾[4].

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد أصول الإسلام أربعة: دَالٌّ ودليلٌ ومبيِّنٌ ومُسْتَدِلٌّ. فالدَّالُّ: هو الله، والدليل: هو القرآنُ، والمبيِّنُ: هو

= له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال ﷺ: فيراهما جميعاً، وأمَّا الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعه من يليه إلاَّ الثقلين).
قوله «هاه هاه» كلمة تقال في الضحك والإبعاد وقد تقال للتوجع وهو أليق بمعنى الحديث.

(١) الابتداع هو الاختراع ويعني القول بلا دليل قال ﷺ: (... وكل بدعة ضلالة). ومقال «البدعة» جهر المؤذن بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ عقب الأذان وتكرار ذلك. وهذا الحديث أخرجه الترمذي في سننه ج ٢/ ١٧/ بإسنادٍ صحيح، وتمامه (وكلّ ضلالة في النار).

(٢) أعرض: استهان وانصرف.

(٣) ضنكاً: الضنك الضيق، ويكون أكثر ما يكون في الصدر والنفس. وتُنْسَى: تُتْرَك من الرحمة.

(٤) سورة طه، الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦.

الرَّسُولُ!!. قال الله تعالى: ﴿لتبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ﴾[١]، والمستدِل: هم أُولو العلم، وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم[٢]، وقد ذكره ابن المُنَى عن أحمد وهو مذكور في العدَّة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، أو أن أحمد قال له، أو قيل له فاستحسنه. ولهذا صار كثير من النُّظار يوجبون العلم والنظر والاستدلال وينهون عن التقليد[٣]، ويقول كثير منهم إنَّ إيمان المقلد لا يصح[٤]، أو أنه وإن صح، لكنه عاص بترك الاستدلال ثم النظر.

حقيقة الاستدلال عند المتكلمين:

والاستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعُوه ليسَ هو المشروع لا خبراً ولا أمراً وهو استدلال فاسدٌ لا يُوصل إلى العلم، فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها، ثم استدلوا على حدوث الأعراض[٥].

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٢) الدراية: العلم والخبرة والفهم العميق.

(٣) النهي عن التقليد للقادر على الاجتهاد والنظر أما من لم تتوافر له شروط ذلك وعدته فالتقليد أولى له. وهذا في الأحكام، أما في الاعتقاد فيجب أخذ العقيدة من القرآن والسّنة.

(٤) بل هو صحيح إذا كان عن يقين، وفي مثل هذا القول تنبيه للقادرين على التأمل والتدبر في آيات الله حتى لا ينصرفوا عنها.

(٥) هذا متفرع عنه أصل في مذهب الأشاعرة. ذلك الأصل هو أنهم استدلوا على وجود الله بحدوث العالم، فاضطروا إلى التدليل على صحة هذه القضية الأخيرة بإثبات حدوث الجوهر الفرد، وقالوا إن الأجسام التي نشاهدها في العالم ليست بسيطة وإنَّما هي مركبة من أجزاء لا تتجزأ (إن لله جواهر فردة).. وقالوا: إنَّ الجواهر لا تنفك عن الأعراض (بمعنى أنَّ كل جوهر له صفات عارضة لا يمكن أن يوجد دونها)، وإن هذه الأعراض حادثة لأنها تتغير، وإنَّ مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث. فإذا كانت هذه الجواهر حادثة كان العالم الذي يتألف منها محدثاً، واحتاج إلى سبب قديم هذا السبب هو الله سبحانه. وقد رأى العلامة ابن رشد أن هذه حجة غير منطقية أو برهانية، وهي إلى جانب ذلك معقدة يعسرفهمها، وهذا العسر في الفهم لأنها تُفضي إلى نتيجة يعجز أصحابها عن حلها وذلك أننا نستطيع أن نتبع =

والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم، وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل، فإما أن لا يصح إيمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصياً على قول آخرين، وإما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص.

نقض دعوى وجوب النظر لصحة الإيمان:

والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان، هو هذا النظر في هذا الدليل[1]، فإن علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أنَّ الرسول ﷺ لم يَدْعُ الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل، لا عامة الخلق ولا خاصتهم، فامتنع أن يكون هذا شرطاً في

= معهم طريقة الجدل أو القسمة العقلية فنقول: إنّه لا يمكن اعتبار الخالق قديماً أو حادثاً على مذهبهم لأنّه لو كان حادثاً لوجب أن يحتاج إلى محدث إلى مالا نهاية.. وكذلك لا يمكن اعتباره قديماً لأنَّ فعله - وهو الخلق - لا بّد أن يكون قديماً مثله، وبناء على ذلك يجب أن تكون الأشياء التي ينصب عليها هذا الفعل قديمة أيضاً.. فإن قالوا إنَّها حادثة بأفعال قديمة لم يسلموا من التناقض لأنَّ من أصولهم الأساسية أنَّ كلَّ ما يقترن بالحوادث فهو حادث مثلها، أي أنهَّم يضطرون إلى القول بأنَّ لله سبحانه أفعالاً تحدث في الزمن، وهذا أمر لا يرتضونه..

وقد حاولوا الخروج من هذا المأزق ويدفعون هذه الشبهة فقالوا: إن الله يخلق الأشياء الحادثة بإرادة قديمة، وليس هذا في الحقيقة حَلاً لها، وإنما هو ترك للمشكلة كما هي... بل ربما كان ذلك الجواب سبباً في زيادة تعقيدها... لأننا سواء أفرضنا الإرادة قديمة أم حادثة فإننا نجد أنفسنا دائماً أمام ثلاثة أمور: فإما أن ننسب لله تعالى أفعالاً حادثة وإرادة حادثة، وإمَّا أفعالاً حادثة وإرادة قديمة، وإمَّا أفعالاً قديمة وإرادة قديمة، وبديهي أن الأشاعرة لا يسلمون بصحة الفرضين الأولين حسب مقدماتهم، ولو سلموا بالفرض الثالث لكان في ذلك رجوعاً بالمشكلة إلى صعوباتها... وهذه من معضلات علم الكلام.

(١) وقد أشار إليه المصنف بقوله سالفاً «وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه... إلى أن قال هو الاستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض...» إلى آخره.

وهو حقاً من ابتداعهم إذ لم يستندوا في ذلك إلى نصٍّ من القرآن والسنة، والعجيب أنهم جعلوه شرطاً للإيمان، ومثل هذا لا يؤخذ إلاً عن صاحب الشريعة ﷺ.

الإيمان والعلم، وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول ﷺ وبما جاء به، وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله، ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى: ﴿ويرىٰ الذينَ أُوتُوا العِلمَ الذي أُنزلَ إليكَ من ربِّك هو الحقَّ ويهدِيْ إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ﴾[1]، وقال: ﴿شهِدَ الله أنَّهُ لا إلٰه إلاَّ هو والملائكةُ وأُولوا العلم قائماً بالقسطِ﴾[2]، وقال: ﴿أفمنْ يعلمُ أنَّ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّك الحقُّ كمنْ هو أعمَى﴾[3].

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله: ﴿وبالآخرةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وقوله: ﴿أولئك على هدىً من ربهم﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ هذهِ سبيلي أدْعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعَني﴾[5]، وأمثال ذلك، فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذي أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس ممَّا أوجبه الله ورسوله، ولو قدر أنه صحيح في نفسه، وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه، إذْ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة، ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله أنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق، وقالوا هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر، وسلكوا هم طرقاً أخر. فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلاً، وقد شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى، كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالَّة على الهدى.

ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي ﷺ قبل أن ينزل سائر القرآن، فالدليل يجب طرده لا يجب

(١) سورة سبأ، الآية ٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٣) سورة الرعد، الآية ١٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ٥.
(٥) سورة يوسف، الآية ١٠٨. والبصيرة هنا براهين الكتاب والسنة.

عكسه[١]. ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم، والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللمع في الرد على أهل البدع، وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحاً كثيرة، والقاضي أبو بكر شرحه، ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنَّفه في نقضه وسماه نقض اللمع. وأمَّا أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة، والكلابية، والكرامية[٢]، ومن تبعهم من

---

(١) قوله يجب طرده لا عكسه... أي ينبغي أن يفتح الباب لغيره من الأدلة... لا عكسه: أي لايغلق الباب أمام غيره من الأدلة فيسلب الإيمان ممن لا يعتبر به.

(٢) الجهمية والمعتزلة، والكلابية والكرامية.

أوضح الإمام ابن حزم والإمام الشهرستاني في كتابيهما في العقائد (الفصل ـ والملل والنحل) كيف زاغت الفرق المختلفة عن طريق الإسلام وكيف لعبتّ العصبية والشعوبية دوراً هاماً في الكيد للإسلام والمسلمين، فلبس أعداء الإسلام ثوب التشيع... أو غيره من الأثواب فأثارت زوابع الجدل والشبهات على المسلمين، وقد رأى هؤلاء الزائغون أن الكيد للإسلام واستخدام الحيلة من أنجح الوسائل لإضعافه. راجع الفصل ٢/ ٩١/.

أما الجهمية فهم أصحاب جهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أحوز المارني بمرو في آخر ملك بني أمية، نفى الصفات الأزلية، وقال لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيها، فنفى كونه حياً عالماً وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق، ومنها إثباته علوماً حادثة للباري تعالى لا في محل... فقال لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه لأنَّه لو علم ثم خلق أفبقي علمه على ما كان أو لم يبق.. إلى آخر ما قال:

أما المعتزلة: ويُسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب إذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبي ﷺ: (القدرية مجوس هذه الأمة). وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفاق على أن الجبرية والقدرية ضدان متقابلان والذي يعم المعتزلة من =

الطوائف، وإن لم يعرفوا غورها[1] وحقيقتها، فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازماً له ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضاً في مخالفة الشرع والعقل[2].

والمقصود هنا أن الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل، وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروعه فاسدة إن قالوا إن من لم يسلكها كفر أو عصى، فقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة، وإن قالوا إن من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان، بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة يكون مؤمناً فالكتاب والسنة يخالف ذلك. ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض، فإن ما جاء به الرسول جاء من عند الله، وما ابتدعوه جاؤوا به من عند غير الله، وقد قال تعالى: ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[3]، وهؤلاء بنوا دينهم على النظر، والصوفية بنوا دينهم على الإرادة، وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل، فالحق هو النظر الشرعي والإرادة الشرعية، فالنظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى، كما قال: ﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ هدىً للنَّاسِ وبيناتٍ من الهدى والفُرقانِ﴾[4].

= الاعتقاد بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته.. إلى آخر ما قالوا.

أمّا الكرامية: وهم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام وإنّما عدوه من الصفاتية فإنه كان ممن يُثبتُ الصفات إلاّ أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه.

(١) غورها: عمقها وأساسها.

(٢) ومعناه أن الجدل قد أخذهم إلى نقض الأقوال، وينسون أصل الشريعة، فيكون النهاية الوصول إلى البدع والضلال.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٢. إنّ الآية قد نفت الاختلاف عن القرآن، إلاّ أن أفهام النّاس تختلف، فمنهم من يدرك المراد ومنهم من لا يدرك المراد، فيكون الاختلاف ناشئاً عن اختلاف الأفهام، وكثير ما يكون اختلافها اختلاف تنوّع لتعدّد المعاني في الآيات.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

والإرادة الشرعية إرادة ما أمر الله به ورسوله، والسماع الشرعي سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن، والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي وهو الذي دلَّ الله به عباده، وهداهم به إلى صراط مستقيم، فإنه لما ظهرت البدع والْتبس الحق بالباطل صار اسم النظر والدليل والسماع والإرادة يطلق على ثلاثة أمور.

منهم من يريد به البدعي دون الشرعي فيريدون بالدليل ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة والنظر، ومن السماع والإرادة ما ابتدعوه من اتباع ذوقهم ووجدهم، وما تهواه أنفسهم وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله.

ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والإرادة من غير تقييدها لا بشرعي ولا ببدعي، فهؤلاء يفسرون قوله: ﴿الذين يستمعون القول﴾ بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون إلى هذا وهذا، وأولئك يفسرون الإرادة بمطلق المحبة للإله من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول، أو كان عابداً للشيطان مشركاً عابداً بالبدع، وهؤلاء أوسطهم، وهم أحسن حالاً من الذين قيدوا ذلك بالبدعي.

وأما القسم الثالث: فهم صفوة الأمة وخيارها المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهي محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله، فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[1] وهو الذي قال فيه: ﴿فبشِّرْ عبادِ * الذينَ يستمعُونَ القولَ فيتَّبِعُون أحسنَهُ﴾[2]،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآيتان ١٧ ـ ١٨.

كما قال: ﴿واتَّبِعوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكُم مِنْ ربِّكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وكتبنا له في الألواحِ من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ فخُذْها بقوَّةٍ وأْمُرْ قومَكَ يأخُذوا بأحسنِها﴾[2].

(١) سورة الزمر، الآية ٥٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٥.

البحث الثاني

رسالة النّبيّ ﷺ وما تتضمنه من بيان الحق في أصول الدّين وفروعه

رسالة النَّبيِّ ﷺ تتضمَّنُ شيئين: هما العلمُ النافعُ والعملُ الصالح كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودِيْنِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه ولو كَرِهَ المشرِكُون﴾[1].

فالهُدَى هو العلمُ النافعُ، ودينُ الحقِّ هو العملُ الصَّالحُ الَّذي اشتملَ على الإخلاصَ لله والمتابعةِ لرسولهِ ﷺ. والعلمُ النافعُ يتضمَّنُ كلَّ علم يكون للأمَّة فيه خيرٌ وصلاح في معاشها ومعَادِها، وأوَّلُ ما يدخل في ذلكَ العلمُ بأسماءِ الله وصفاته وأفعاله، فإنَّ العلمَ بذلك أنفعُ العلوم، وهو زبدةُ الرسالة الإلـهية وخلاصة الدعوة النَّبويَّة، وبه قِوَام الدِّين قولاً وعملاً واعتقاداً. ومن أجلِ هذا كان من المستحيل أن يُهمِلَهُ النَّبيُّ ﷺ ولا يبيِّنه بياناً ظاهراً ينفي الشَّكَّ ويدفع الشُّبهةَ، وبيانُ استحالته من وجوهٍ:

١ ـ أنَّ رسالة النَّبيِّ ﷺ كانت مشتملةً على النور والهُدَى؛ فإنَّ الله تعالى بعثه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنهِ وسِرَاجاً منيراً، حتى ترك أُمَّتَه على المحجَّةِ البيضاء ليلهَا كنهارِها لا يزيغُ عنها إلاَّ هَالِكٌ[2]، وأعظمُ النُّور

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٣.

(٢) وهذا من قول رسول الله ﷺ: (وَايْمُ اللهِ لقدْ تركْتُكُمْ على مثلِ البَيْضاءِ، ليلهُا ونهارُها سواءٌ) قال أبو الدرداء: صدق رسول الله ﷺ، تركنا والله على مثلِ البيضاء، ليلهُا ونارُها سواءٌ!! صحيح ابن ماجه: للشيخ محمد ناصر الدِّين الألباني ج١ /٦/ رقم ٥/ . وفي مسند الإمام أحمد ج ٤ /١٢٦ من حديث العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً ذرفت =

وأبلغُه ما يحصل للقلب بمعرفةِ الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا بُدَّ أن يكونَ النَّبيُّ ﷺ قد بيَّنَهُ غايةَ البيان!!..

٢ ـ أنَّ النبي ﷺ علَّم أمتَهُ جميعَ ما تحتاجُ إليه من أمور الدِّين والدُّنيا، حتى آداب الأكل والشرب والجلوس والمنام وغير ذلك. قال أبو ذَرٍّ رضي الله عنه: «لقد توفي رسولُ الله ﷺ وما طائر يُقلِّب جناحيه إلاَّ ذكر لنا منه علماً»(١)، ولا ريب أنَّ العلمَ بالله وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه داخلٌ تحتَ هذه الجملة العامَّة، بل هو أوَّل ما يدخل فيها لشدة الحاجة إليه.

٣ ـ أنَّ الإيمان بالله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه هو أساس الدِّين وخلاصة دعوة المرسلين، وهو أوجب وأفضل ما اكتسبتْهُ القُلوبُ وأدركتْهُ العقولُ، فكيف يهمله النَّبيُّ ﷺ من غير تعليمٍ ولا بيان، مع أنَّه كان يعلم ما هو دونه في الأهمية والفضيلة.

٤ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أعلم النَّاس بربِّه، وهو أنصحهم للخلق وأبلغهم في البيان والفصاحة، فلا يمكن مع هذا المقتضى التام للبيان أن يتركَ بابَ الإيمانِ بالله وأسمائِه وصفاتِه ملتبساً مشتبهاً(٢).

= منها العيون، ووجلت منها القلوب قلنا: يا رسول الله إنَّ هذه لموعظة مودِّع، فماذا تعهدُ إلينا؟ قال: (قد تركتكم على البيضاء، ليلهُا كنهارِها لا يزيغ عنَّها إلاَّ هالكٌ..) ثم قال: (فعليكم بما عرفتم من سنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين..).

(١) تفسير الإمام ابن كثير ج ٢ / ١٣١.

(٢) الأصل في الدِّين أنّ معرفة أسماء الله تعالى وصفاته من شؤون الغيب التي لا تدخل في نطاق قدرة العقل، لأنَّ وظيفة العقل الفهمُ والإدراك، وأسماء الله تعالى كذاته لا نعلم شيئاً منها إلاَّ بوحيه سبحانه. ومعلوم أنَّ الله تعالى أعلم بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنَّ رسوله المبلِّغ عنه أعلم به كذلك، وهو أقدر الخلق على بيان ذلك وأحرصهم على هداية الخلق إليه، فلا يجوز الاعتماد في هذا الشأن على غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فحسب؛ فإن الله تعالى لم يكلنا في معرفة شيء من أسمائه وصفاته إلى غيرهما، فَمنْ عوَّل في شيءٍ من ذلك على قضية عقل أو استحسان برأي أو دعوى إلهام أو كشف، أو غير ذلك من مزاعم الفلاسفة والمتكلمين والصوفيين، فقد قال على الله تعالى بغير علم، وضلَّ عن سواء السبيل.

وإن الله تعالى في كل ما ثبتَ له من الأسماء والصفات لا يماثل شيئاً من خلقِه ولا يُماثله شيءٌ، بل كلُّ ما ثبت له من صفات الكمال التي وردت بها نصوص الكتاب الحكيم والسنة النبوية الصحيحة، فهو مختصٌ به سبحانه، لا يُشركُهُ فيه أحدٌ من خلقِه. [انظر: دلائل التوحيد: للشيخ جمال الدين القاسمي / تخريج خالد عبد الرحمن العك ص ٥٣ ـ ٦٧ / ط دار النفائس ـ بيروت].

٥ ـ أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لا بدَّ أن يكونوا قائلين بالحقِّ في هذا الباب؛ لأنَّ ضدَّ ذلك إمَّا السكوت وإمَّا القول بالباطل، وكلاهما ممتنعٌ عليهم، والحمدُ لله رب العالمين.

أمَّا امتناع السُّكوت فوجهه: أنَّ السكوت إمَّا أن يكونَ عن جهلٍ منهم بما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، وما يجوز عليه منها ويمتنعُ، وإمَّا أن يكون عن علم منهم بذلك ولكن كتموه وكل منهما ممتنع.

أمَّا امتناع الجهل فلأنَّه لا يمكن لأيِّ قلبٍ فيه حياةٌ ووعي وطلبٌ للعلم ونهمةٌ في العبادة إلاَّ أن يكون أكبرُ همِّه هو البحثُ في الإيمان بالله تعالى ومعرفته بأسمائه وصفاته، وتحقيق ذلك علماً واعتقاداً، ولا ريبَ أنَّ القرون المفضَّلة، وأفضلهم الصحابة، هم أبلغُ النَّاس في حياة القلوب، ومحبَّة الخير وتحقيق العلوم النَّافعة، كما قال النبي: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثم الَّذينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ)[1]، وهذه الخيريَّة تعمُّ فضْلَهم في كل ما يُقرِّبُ إلى الله من قولٍ وعملٍ واعتقادٍ.

ثم لو فرضنا أنَّهم كانوا جاهلين بالحق في هذا الباب لكان جهل من بعدهم من باب أولى، لأنَّ معرفة ما يثبت لله تعالى من الأسماء والصِّفات أو ينفى عنه إنما تتلقَّى من طريق الرسالة، وهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين الأُمَّة، وعلى هذا الفرض يلزم أن لا يكون عندَهم علم في هذا الباب وهذا ظاهر الامتناع.

وأمَّا امتناع كتمان الحق فلأنَّ كل عاقل منصِف عرف حال الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم على نشر العلم النافع وتبليغه الأُمَّة فإنه لن يمكنه أن ينسب إليهم كتمان الحق ولا سيما في أوجب الأمور وهو معرفة الله وأسمائه وصفاته، وقد قاموا بتبليغ ذلك أتمَّ القيام وأكمله[2].

---

(١) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه ج ٧ /٣/ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ /٦٣/ ومسلم في صحيحه ج ٤/ ١٩٦٣/ كتاب فضائل الصحابة ٤٤/ باب ٥٢/ الحديث رقم ٢٥٣٣.

(٢) وأهل السُّنَّة والجماعة أوَّل ما يمِّيزهم عن غيرهم هو منهاج التلقي لعلوم الدِّين التي ينهلون منها عقائدهم وعبادتهم ومعاملاتهم وسلوكهم وأخلاقهم. فمصدر العلم والحق في سائر فروع المعرفة في الدِّين عندهم هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فلا كلام لأحدٍ قبل كلام الله تعالى، ولا هَدْيَ لأحدٍ قبلَ هَدْي محَّمد ﷺ، وهم يأخذون كل ذلك عن السَّلف =

المبحث الثالث

الحق في اتباع الرّسول ﷺ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: السعادة[1]: هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحاً فلم يتفجر لي شيء! فقال: يا بني أنت أخلصت للحكمة لم يكن الله هو مرادك، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده. ثم مع هذا يكون العلم حقاً وهو ما أخبرت به الرسل، فالعلم الحق هو ما أخبروا به والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنَّما يكون بتصديق رسله وطاعته، فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال تعالى: ﴿فلنسألَنَّ الذينَ أُرسِلَ إليهم ولنسألَنَّ المرسَلِينَ﴾[2]. قال أبو العالية: هما خصلتان يُسأل عنهما كلُّ أحدٍ، يُقال: لمن كنتَ تعبدُ؟ وبماذا أجبتَ المرسلين؟..

والأتْبَعُ لها أسعدُ الناس في الدنيا والآخرة، وخير القرون القرن الذين

= الصَّالح وبطريقتهم، وهم يزنون كل الأمور بميزان الكتاب والسُّنَّة ومذهب السلف فيما كانوا عليه من الدِّين القويم والصراط المستقيم.

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية /١٤٨ ـ ١٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٦.

شاهدوه مؤمنين به وبما يقول، إذ كانوا أعرف الناس بالفَرْقِ بين الحقِّ الذي جاء به وبين ما يُخالفه، وأعظم محبة لما جاء به، وبُغْضاً لِما خَالَفَهُ، وأعظم جهاداً عليه؛ فكانوا أفضل ممَّن بعدَهُم في العلم والدِّين والجهاد، أكملَ علماً بالحق والباطل وأعظم محبة للحق، وبغضاً للباطل، وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذى فيه، وموالاة أهله ومعاداة أعدائه، واتصل بهم ذلك إلى القرن الثاني والثالث، فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها، كما قال ﷺ: (زُويتْ لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمَّتي ما زُويَ لي منها)[1].

وكان لا بدَّ أن يظهر في أمته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والاختلاف كما كان فيما غبر، لكن كانت أمته خير الأمم، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم، والشر فيهم أقل منه في غيرهم، كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم، وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم: ﴿ولقَدْ آتينا بني إسرائيلَ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبوَّةَ وَرزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وفضَّلْنَاهُمْ على العَالَمِين * وآتينَاهُم بيِّناتٍ من الأمرِ فما اختلفُوا إلاَّ مِنْ بعدِ ما جاءَهُمْ العِلْم بغياً بينهم، إن ربَّكَ يقضي بينهُمْ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلنَاكَ على شريعةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يعلمونَ * إنَّهم لنْ يُغْنُوا عنكَ مِنَ الله شيئاً وإنَّ الظَّالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ والله وليُّ المتّقين﴾[2]. وقال لهم موسى: ﴿يا قوم اذكُرُوا نعمةَ الله عليكُمْ إذْ جعلَ فيكُم أنبياءَ وجعلكُم مُلُوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين﴾[3].
فإذا كان بنو إسرائيل الذين فضَّلهم على العالمين في تلك الأزمان، وكانت هذه الأمة خيراً منهم كانوا خيراً من غيرهم بطريق الأولى، فكان ممَّا خصهم الله به أنه لا يعذِّبهم بعذاب عام لا من السماء ولا بأيدي الخلق، فلا يهلكهم بسنةٍ عامَّة، ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، كما كان يُسلِّط على بني

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن / ١٩. وأحمد في مسنده ج ٥ / ٢٧٨، ٢٨٤. وأبو داود في سننه: كتاب الفتن / ١. والترمذي في سننه: كتاب الفتن / ١٤.
(٢) سورة الجاثية، الآيات ١٦ ـ ١٩.
(٣) سورة المائدة، الآية ٢٠.

إسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقىٰ لهم دِينٌ قائم منصور، ومن لا يُقتل منهم يبقى مقهوراً تحتَ حكم غيرهم.

بل لا تزال في هذه الأمة طائفة ظاهرة على الحقِّ إلى يوم القيامة ولا يجتمعون على ضلالة، فلا تزال فيهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (سألتُ ربِّي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني عن واحدةٍ، سألتُ ربِّي أن لا يسلِّطَ عليهم عدوّاً من غيرهم فيجتاحهم، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلكهم بسَنَةٍ عامَّةٍ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسَهُمْ بينهم، فمنعنيها)[1].

وهذا البأس نوعان: **أحدهما**: الفتن التي تجري عليهم والفتنة ترد على القلوب فلا تعرف الحق ولا تقصده فيؤذي بعضهم بعضاً بالأقوال والأعمال.

والثاني: أن يعتدي أهل الباطل منهم على أهل الحق منهم فيكون ذلك محنة في حقهم يكفِّر الله بها سيئاتهم ويرفع بالصبر عليها درجاتهم، ويصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقوى، ويكونون من أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين، وجند الله الغالبين إذا كانوا من أهل الصبر واليقين، فإنه من يتقِّ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

والمتعدي منهم إمَّا أن يتوب الله عليه كما تاب على أخوة يوسف بعد عدوانهم عليه وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لمّا: ﴿قالوا: أئِنَّكَ لأنتَ يوسفُ قالَ أنا يوسُفُ وهذا أخي قدْ منَّ الله علينا، إنَّه مَنْ يتَّقِ ويصبرْ فإنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنينَ * قالوا تالله لقد آثَرَكَ اللَّهُ علينا وإنْ كنَّا لخاطِئينَ * قالَ لا تثريبَ عليكُمُ اليومَ يغفِرُ الله لكمْ وهوَ أرْحَمُ الرَّاحمينَ﴾[2]، وكما فعل سبحانه بقادة الأحزاب الذين كانوا عدواً لله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٨٩٠/ في كتاب الفتن / ٥٢ ـ باب / ٥/.

(٢) سورة يوسف، الآيات ٩٠ ـ ٩٢.
وقوله: ﴿قد منَّ الله علينا﴾ أي تفضل علينا.
وقوله: ﴿لقد آثرك الله﴾ أي اختصك وفضلك.
وقوله: ﴿لا تثريب﴾ التثريب: التعبير والاستقصاء في اللوم. وثرب عليه تثريباً: قبَّح عليه فعله.

وللمؤمنين وقال فيهم: ﴿لا تَتَّخِذُوا عدوِّي وعدوَّكم أولياءَ﴾[١]، ثم قال: ﴿عسىٰ الله أن يجعلَ بينكُم وبينَ الذينَ عادَيْتُمْ منهم مودَّةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ﴾[٢]، وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدواً لله، ثم يصير ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين، فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن لم يتب فإلى الله إيابه، وعليه حسابه، وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما أمر الله ورسوله لا اتباعاً للظنِّ وما تهوى الأنفس حتى يكون من خير أمَّةٍ أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه ويرحمون الخلق، وهم أهل صدق وعدل، أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى: ﴿لِيبلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾[٣]. قال ابن عياض وغيره أخلصه وأصوبه، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهو كما قالوا، فإن هٰذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال: ﴿ومَن أحسنُ ديناً مِمَّنْ أسلمَ وَجْهَهُ لله وهو محسنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إبراهيم حنيفاً واتخذَ الله إبراهيمَ خليلاً﴾[٤]. فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله، ويبتغي بعمله وجه الله، والمحسنُ هو الذي يُحسن عمله فيعمل الحسنات، والحسنات هي العمل الصَّالح، والعمل الصَّالح هو ما أمر الله به ورسوله من واجبٍ ومستحبٍ، فما ليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً.

وكذلك قال لمن قال: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوْدَاً أو نَصَارَى﴾[٥] قال: ﴿تلك أمانيُّهم قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كنتُمْ صَادِقِين * بلىٰ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية ١.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ٧.

(٣) سورة هود، الآية ٧. وقوله ﴿ليبلُوَكم﴾: أي ليمتحَنكم ويختبركم.. الملك: الآية ٢. ﴿أيُّكم أحسنُ عملاً﴾... أي بعد الاختيار، والله أعلم.

(٤) سورة النساء، الآية ١٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية ١١١.

مَنْ أسلمَ وَجْهَهُ لله وهو محسنٌ فله أجرُهُ عندَ ربِّهِ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنُون﴾[1]، وقد قال تعالى: ﴿ومَنْ يبتغ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهُوَ في الآخِرَةِ من الخاسرين﴾[2]. والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم، كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين، وكذلك عن أتباع موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهم. والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه لله بل يحب لله ويبغض لله ويوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومَنْ عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً، وإنما تكون عبادته بطاعته وهو طاعة رسله، من يطع الرسول فقد أطاع الله، فكل رسول بُعِثَ بشريعةٍ، فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام، وأمَّا ما بُدِّلَ منها فليس من دين الإسلام، وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً، ثم الأمر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الإسلام، فبعد النسخ لم يبقَ دين الإسلام، إلاَّ أن يولِّي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام. فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره، وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول، إما أن تكون من الدين المبدل الذي ما شرَّعه الله قط، أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه كالتوجه إلى بيت المقدس، فلهذا كانت السنة في الإسلام كالإسلام في الدين هو الوسط كما قد شُرح هذا في غير موضع.

والمقصود هنا أنه إذا رُدَّ ما تنازع فيه الناس إلى الله والرسول، سواء كان في الفروع أو الأصول، كان ذلك خيراً وأحمد عاقبة كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا أطيعُوا الله وأطيعُوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم، فإنْ تنازَعْتُمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى الله والرسولِ إن كنتُمْ تُؤْمنونَ بالله واليومِ الآخر ذلك خيرٌ

(١) سورة البقرة، الآيتان ١١١ ـ ١١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

وأحسنُ تأويلاً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً فبعثَ الله النَّبيِّين مبشِّرين ومنذِرِينَ وأنزلَ معهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليحكُمَ بينَ النَّاسِ فيما اختلفُوا فيه وما اختلفَ فيهِ إلاَّ الذينَ أُوتُوهُ من بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّناتُ بغياً بينهم فهدَى الله الذينَ آمنوا لِما اختلفوا فيهِ من الحقِّ بإذنهِ والله يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾[2].

وفي صحيح مسلم عن عائشة، فإن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (اللَّهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض، عَالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ أنتَ تحكمُ بينَ عبادِكَ فيما كانُوا فيه يختلِفُون، اهْدِني لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحقِّ بإذنِكَ إنَّك تهدي من تشاءُ إلى صراط مستقيم)[3]، وهذه حال أهل العلم والحق والسُّنَّة يعرفون الحق الذي جاء به الرسول وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول ويدعون إليه، ويأمرون به نصحاً للعباد وبياناً للهدَى والسَّدَاد.

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.
هذا وقد عطف ﴿وأُولي الأمرِ منكُمْ﴾ على الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول، وقد ذكر فعل الأمر ﴿أطيعوا﴾ مع الله ورسوله.. في حين لم يذكره مع أولي الأمر إشعاراً بأن طاعة ولي الأمر لا تجب إلا إذا كانت وفق أحكام الله ورسوله، فإن خالف فلا طاعة في معصية.
كما علق الإيمان على رد الأمر لله والرسول عند التنازع ومتقضاه أن يفقدوا إيمانهم إذا تمردوا على حكم الله واتبعوا الهوى. قوله: ﴿أحسنُ تأويلاً...﴾ أي أفضل تفسيراً... وعملاً.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٣. بغياً: ظلماً وعدواناً.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٦ الدعاء في صلاة الليل رقم / ٧٧٠.

البحث الرابع

النّبيُّ ﷺ والمؤمنون المهتدون

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنّ النبي ﷺ هو وسائر المؤمنين لا يُخبرون إلاً بحق، ولا يأمرون إلاً بعدل، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد[١]، لا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم، فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول، فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يناقض بعضهم بعضاً، بل دينهم وملتهم واحد، وإن تنوَّعت الشرائع فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية لا يناقضونها قط، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم، وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة لا يناقض بعضها بعضاً كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع، والذين يخالفون الأنبياء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحرة والكهان وسائر أنواع الكفار وكالمبتدعين من أهل الملل أهل العلم وأهل العبادة فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية والعقلية للسماعية والعيانية مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿كُلَّما أُلقِيَ فيها فوجٌ سألهُمْ خزنَتُها أَلَمْ يأتِكُمْ نذيرٌ﴾[٢]، الآية. فهؤلاء يخالفون أقوال الأنبياء، إما بالتكذيب وإما بالتحريف من التأويل، وإما بالإعراض عنها وكتمانها، فإما أن لا يذكروها أو يذكروا ألفاظها ويقولون ليس

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٢) سورة الملك، الآية ٨.

لها معنى يعرفه مخلوق، كما أخبر الله عن أهل الكتاب أن منهم من يكذب في اللفظ، ومنهم من يحرِّف الكلم في المعنى، ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرأون قال تعالى: ﴿أَفتطمَعُونَ أنْ يؤمِنُوا لكُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿فويلٌ لهم مِمَّا كتبتْ أيديهِمْ وويلٌ لهم مِمَّا يكسِبُون﴾[2]. وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية فالأنبياء كملوا الفطرة وبصروا الخلق كما ذكرنا في صفة محمد ﷺ أن الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، ومخالفوهم يفسدون الحسَّ والعقل كما أفسدوا الأدلة السمعية، والحسَّ والعقلَ بهما تعرف الأدلة، والطرق ثلاثة: الحس، والعقل، والخبر، فمخالفو الأنبياء أفسدوا هذا وهذا، أمَّا إفسادهم لما جاء عن الأنبياء فظاهر، وإمَّا إفسادهم للحس والعقل فإنَّهم قسمان: قسم أصحاب خوارق حسية كالسحرة والكهان وضلال العباد، وقسم أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول، وكل منهما يفسد الحس والعقل.

أمَّا أصحاب الحال الشيطاني فقد عرف أن السحر يغيِّر الحس والعقل حتى يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو، وكذلك سائر الخوارق الشيطانية لا تأتي إلا مع نوع فساد في الحس أو العقل كالمؤلهين الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم، وآخرين لا تأتيهم إلا في الظلام، وآخرين تتمثل لهم الجن في صورة الإنس فيظنون أنهم إنس، أو يرونهم مثال الشيء فيظنون أن الذي رأوه هو الشيء نفسه، أو يسمعونهم صوتاً يشبه صوت من يعرفونه فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم، وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التي فيها نوع من الشرك ومخالفة للشريعة.

وأمَّا أصحاب الكلام والمقال البهتاني فإنَّهم بنوا أصولهم العقلية وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحسِّ والعقل، فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحس والعقل، فإنهم يقولون إنا لا نشهد بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها، بل كل ما نشهد حدوثه، بل كل ما حدث من قبل أن يخلق آدم إنَّما تحدث أعراض في الجواهر التي هي باقية لا تستحيل قط، بل تجتمع وتتفرق، والخلق عندهم

(١) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧٩.

الموجود في زماننا، وقبل زماننا إنَّما هو جمع وتفريق لا ابتداع عين وجوهر قائم بنفسه، ولا خلق لشيء قائم بنفسه لا إنسان ولا غيره، وإنما يخلق أعراضاً، ويقولون إن كل ما نشاهده من الأعيان فإنها مركبة من جواهر كل جوهر منها لا يتميز بيمينه عن شماله، وهذا مخالفة للحس والعقل كالأول، ويقول كثير منهم إن الأعراض لا تبقى زمانين، ويقولون إنه لا يفنى ويعدم في زماننا شيء من الأعيان، بل كما لا يحدث شيء من الأعيان لا يفنى شيء من الأعيان، فهذا أصل علمهم ودينهم ومعقولهم الذي بنوا عليه حدوث العالم، وإثبات الصانع، وهو مخالف للحس والعقل، ويقول الذين يثبتون الجوهر الفرد: إن الفلك والرحاء وغيرهما يتفكك كلما استدار ويقول كثير منهم إن كل شيء فإنَّه يمكن رؤيته وسمعه ولمسه إلى غير ذلك من الأمور التي جعلوها أصول علمهم ودينهم وهي مكابرة للحس والعقل والمتفلسفة أضل من هؤلاء، فإنهم يجعلون ما في الذهن ثابتاً في الخارج، فيدعون أن ما يتصوره العقل من المعاني الغائبة الكلية موجودة في الجواهر قائمة بأنفسها إمَّا مجردة عن الأعيان، وإمَّا مقترنة بها، وكذلك العدد والمقدار والخلاء والدهر والمادة يدعون وجود ذلك في الخارج، وكذلك ما يثبتونه من العقول، والعلة الأولى الذي يسميه متأخروهم واجب الوجود وعامة ما يثبتونه من العقليات إنما يوجد في الذهن فالذي لا ريب في وجوده نفس الإنسان، وما يقوم بها، ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات موجوداً في الخارج، فكان إفسادهم للعقل أعظم، كما أن إفساد المتكلمين للحسِّ أعظم مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هي العلوم العقلية، والعقليات عندهم أصح من الحسِّيَّات، وأولئك المتكلمون أصول علمهم هي الحسِّيَّات، ثم يستدلون بها على العقليات، وبسط الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا التنبيه على أن من خالف الأنبياء فإنَّه كما أنه مكذب لما جاؤوا به من النبوة والسمع، فهو مخالف للحس والعقل، فقد فسدت عليه الأدلة العقلية والنقلية، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٤٧ ـ ٤٤٩.



الفصل الخامس

المعجزات ودلالات النُّبوَّة والرسالة ـ والفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق العادة

وهو يشمل تسعة أبحاث:

البحث الأول : دلالة المعجزات في تصديق النُّبوَّات.

البحث الثاني : الاستدلال بالحكمة على صدق النُّبوَّة.

البحث الثالث : المعجزة والكرامة.

البحث الرابع : خوارق العادات.

البحث الخامس : الفوارق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم.

البحث السادس : معنى خرق العادة لغير الأنبياء.

البحث السابع : شرط خرق العادة بين الأنبياء وغيرهم.

البحث الثامن : الفرق بين المعجزة وأفعال السحر.

البحث التاسع : أخبار الجانّ ليست علماً بالغيب.



البحث الأول

دلالة المعجزات في تصديق النُّبوّات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ للناس في وجه دلالة المعجزات وهي آيات الأنبياء على نبوتهم طرقاً متعددة منهم من قال[1]: دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة، ومنهم من قال: تعلم بالنظر والاستدلال، وكلا القولين صحيح فإن كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة الأخبار المتواترة، فإنه قد يحصل بالخبر علم ضروري، وقد يحصل ا لعلم بالاستدلال، وطائفة منهم الكعبي وأبو الحسين البصري، وأبو الخطاب أنه نظري، والتحقيق أن كلا القولين حق، فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك، وكذلك كثير من الأدلة والعلامات والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بيِّناً لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبيِّن له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له، ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجيء المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة، وقد لا يتبين، وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله، أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة إما صدقه، وإما كذبه، وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهارون وغيره: أن الله أرسلني، علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات، ولما قال لهارون: إنّ الله قد

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٦٠ ـ ٣٦١.

أمرك أن تؤازرني، صدَّقه هارون في هذا لما يعلم من حاله قديماً، ولما رأى من تغير حاله الدليل على صدقه.

وكذلك النَّبيُّ ﷺ لما ذكر حاله لخديجة وغيرها، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان عالماً بالكتاب الأول، فذكر له النبي ﷺ ما يأتيه، علم أنَّه صادق وقال: هذا هو النَّاموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، يا ليتني أكون حياً حين يُخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: (أوَمُخرجيَّ هُمْ؟) قال: نعم، لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1].

وكذلك النجاشي لما سمع القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وكذلك أبو بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بما جاء به، وقرأ عليهم ما أنزل عليه، وبقي القرآن الذي قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علماً ضرورياً بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة، فكيف بمن عرف صدقه وأمانته، وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَنْ هو مِنْ أصدق الناس أو من أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني؟ فإذا كان العلم بصدقه بلا آية قد يكون علماً ضرورياً، فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه، وجميع الأدلة لا بُدَّ أن تعرف دلالتها بالضرورة؟ فإن الأدلة النظرية لا بُدَّ أن تنتهي إلى مقدمات ضرروية، وأكثر الخلق إذا علموا ما جاء به موسى والمسيح ومحمد علموا صدقهم بالضرورة، ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين، إما رجل جاهل لم يعرف أحوالهم، وإما رجل معاند متبع لهواه. وعامة من كذبهم في حياتهم كان معانداً، فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم، أو مأكلتهم، والأتباع طاعةً لكبرائهم، كما أخبر الله بمثل ذلك في غير موضع من القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي / ٣ من أول صحيحه.

المبحث الثاني

الاستدلال بالحكمة على صدق النُّبوَّة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الاستدلال بالحكمة أن يعرف أولاً حكمته[١]، ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوِّي بين الصادق بما يظهر به صدقه، وبأنه ينصره ويعزه ويجعل له العاقبة، ويجعل له لسان صدق في العالمين، والكاذب عليه يبين كذبه، ويخذله ويذله، ويجعل عاقبته عاقبة سوء، ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين، كما قد وقع، فهذا هو الواقع، لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك، فهذا الاستدلال بيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع، ويمتنع أن يقع منه ضده، وذلك ببيان أنه حكيم، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبياء وينصرهم، ويبين كذب الكاذبين ويذلهم، وكذلك يفعل باتباع النَّبيِّين وبأعدائهم، كما أخبر بذلك في كتابه، وبيَّن أن هذا حق عليه يجب أن يفعله، ويمتنع أن يفعل ضده كما قال تعالى: ﴿ولقَدْ أرسَلْنَا مِن قبلِكَ رُسُلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبيِّناتِ فانتقَمْنا مِنَ الذينَ أَجْرَمُوا وكانَ حقّاً علينا نصرُ المؤمنينَ﴾[٢]، وكما قال: ﴿كتبَ الله لأَغلبنَّ أنا ورُسُلِي إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿لأغلبنَّ﴾ قَسَمٌ أقسم الله عليه، فهو جواب قسم تقديره، والله لأغلبن أنا ورسلي، وهذا يتضمن إخباره بوقوع ذلك، وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه، فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٢) سورة الروم، الآية ٤٧.

(٣) سورة المجادلة، الآية ٢١.

حلف عليه، إما حضاً عليه وأمراً به، وإما منعاً منه ونهياً عنه، ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه، وكذلك كان في أول الإسلام، ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين، كما ذكرت ذلك عائشة، ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به ولا يحنث، فإن ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر يحتذي به حذو الواجب بالشرع، والضرب بالضغث يجوز في الحدوث إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث، ولو كان في شرعهم كفارة لأغنت عن الضرب مطلقاً، لكن الإنسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته، ثم يندم عليه، والرب تعالى عالم بعواقب الأمور، فلا يحلف على أمر ليفعلنه إلا وهو يعلم عاقبته واليمين موجبة.

ولهذا قال تعالى: ﴿كتبَ الله لأغلبنَّ﴾ وكتب: مثل كتب في قوله: ﴿كتبَ رَبُّكُمْ على نفسِهِ الرَّحمةَ﴾[١]، فهي كتابة تتضمن خبراً وإيجاباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وما مِنْ دابَّةٍ في الأرض إلاَّ على الله رِزْقُها﴾[٢]، وفي الحديث الصحيح الإلهي: (يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلتهُ بينكم محرَّماً فلا تظالموا)[٣].

والكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما تنفيه فتقول: هو سبحانه وتعالى حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب له، فلا يجوز عليه أن يسوِّي بين جنس الصادق والكاذب، والعادل والظالم، والعالم والجاهل، والمصلح والمفسد، بل يفرق بين هذه الأنواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان، كما قال تعالى: ﴿أمْ نجعلُ الذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرض أمْ نجعلُ المتَّقين كالفُجَّارِ﴾[٤]، وقال: ﴿أفنجعلُ المسلمينَ كالمجرمينَ﴾[٥] وهذا استفهام إنكار

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٤. (٢) سورة هود، الآية ٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه / برقم ٢٥٧٧/ وهو حديث طويل من رواية أبي ذَرٍّ رضى الله عنه.

(٤) سورة ص، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) سورة القلم، الآية ٣٥.

على من ظن ذلك، وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بأنَّ هذا لا يجوز عليه، وأن ذلك بيِّنٌ معروف يجب اعترافهم به وإقرارهم به. وكذلك قوله: ﴿أمْ حَسِبَ الذينَ اجترحُوا السيِّئاتِ أن نجعلَهُم كالذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ سَواءً مَحْياهُم ومماتُهم سَاءَ ما يحكمون﴾[1]، فإن هذا استفهام إنكار على من حسب أنه يسوِّي بين هؤلاء وهؤلاء، فبيَّن أنَّ هذا الحساب باطل، وأن التَّسوية ممتنعة في حقِّه لا يجوز أن يظن به بل من ظن ذلك فقد ظن بربِّه ظن السوء، وذلك ظن أهل الجاهلية الذين يظنون بالله ظن السوء، فمن جوَّز ذلك على الله، فقد ظن بربه ظن السوء، وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد: ﴿وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسُهُمْ يظنُّون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ﴾[2]، فسره ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى، وأنه لا ينصر رسوله، فكما أن القدر يجب الإيمان به، ويعلم أن كل ما كان قد سبق به علم الرب، فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا، وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر، فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا، ومثله قوله تعالى فيما أنزله عام الحديبية لما ظن ظانون أن الرسول وأتباعه لا ينصرون فقال تعالى: ﴿ويُعَذِّبَ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ الظَّانِّين بالله ظنَّ السَّوْءِ عليهم دائرةُ السَّوْءِ وغضِبَ الله عليهم ولعنَهُمْ وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءَتْ مصيراً﴾[3]، وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك.

(١) سورة الجاثية، الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

(٣) سورة الفتح، الآية ٦.

البحث الثالث

المعجزة والكرامة

من الناس من فرَّق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفة، مثل قولهم الكرامة يخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يتحدى بها، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي المشيِ على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار أبي مسلم لما أُلقي في النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً: وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها، إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدور للإنس والجن. ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم، وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله، ومثل هذا كثير[1].

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثم كرامات الصالحين[2]، ثم

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية / ١٨ ـ ٢٦.

(٢) مراتب الولاية أربعة عندهم:

العليا: وهي مرتبة الأنبياء والمرسلين وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذي منَّ عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

العالية: وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها... من حيث تسامي الدرجات وعلو المنازل.

الوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

الدنيا: وهي مرتبة أهل الضعف في الإيمان والتقوى وهم الظالمون لأنفسهم.

وقد ذكر الأصناف الثلاثة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿ثم أورَثْنا الكتابَ الذينَ اصطفَيْنَا مِنْ =

خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب، والضُّلّال من المسلمين.

أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء فإنهم يقولون نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبياء، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، كما صارت على إبراهيم. وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبياء، فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كراماتُ أحدٍ قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم، وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

الكرامة للولي لا تستلزم العصمة له:

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط، فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم، وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دِين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم

= عبادِنا فمنْهُمْ ظالمٌ لنفسهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذنِ الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها..﴾ (٣٢: ٣٥) إلى آخر الآيات من سورة فاطر. راجع عقيدة المؤمن للجزائري ص ١٤٨.

وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدعي النبوة، وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه فإن الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول، وتارة مع عدمه فليس بدليل. فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة، ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب، والكذب يناقض النبوة فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها، وليس هنا شيء مخالف لها ولا مناقض، فإن الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة.

والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم. فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل: قتل الساحر وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية أو غير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد، هذا فعل مقدور للحيوان، فإن الطير تفعل ذلك والجن تفعل ذلك، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: ﴿أَنَا آتِيْكَ بِهِ قبلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾[1]، وهذا تصرف في إعراض الحي فإن الموت والمرض والحركة أعراض والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض ليس في هذا قلب جنسٍ إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه، ولا ما يختَص به الملائكة، وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نَفَقَةٍ أو ثيابٍ، أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إَلى مكان، وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها، فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني.

---

(١) سورة النمل، الآية ٣٩.

البحث الرابع

خوارق العادات

الخوارق ثلاثة أنواع: إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى، فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين.

والثاني: أن تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه، وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان عليه السلام. والأول مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الأمور المباحة كاستخدام سليمان عليه السلام لهم في محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات، قال تعالى: ﴿يعملُونَ لهُ ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ اْعْمَلوا آلَ داودَ شُكْراً، وقليلٌ من عباديَ الشَّكُورُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ومَنْ يَزِغْ منهم عن أمرِنَا نُذِقْهُ من عذابِ السَّعيرِ﴾[2]، ونبينا أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته كما أرسل إلى الإنس، فإذا اتبعوه صاروا سعداء فهذا أكمل له ولهم من ذاك. كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك، وأما محمد ﷺ فهو عبد رسول كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام وهذا الصنف أفضل وأتباعهم أفضل.

والثالث: أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقول

(١) سورة سبأ، الآية ١٣.

(٢) سورة سبأ، الآية ١٢.

الباطل، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار، مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم فإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق والفواحش وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله: ﴿والذينَ لا يدعونِ معَ الله إلهاً آخرَ ولا يَقتلُونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ الله إلاَّ بالحقِّ ولا يَزْنُونَ ومَنْ يفعلْ ذٰلكَ يَلْقَ أثاماً﴾[1]، ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين[2].

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٨.

(٢) النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية / ٢٧ ـ ٢٨.

البحث الخامس

الفوارق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم[1]

وهي كثيرة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط، ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد أن يكذب كما قال: ﴿هَلْ أُنَبِّؤُكُم على مَنْ تنزَّلُ الشَّياطينُ * تَنزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ﴾[2].

٢ ـ من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله فإن الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده وأعمالهم البر

---

(١) يرى ابن رشد أن الدين ضروري للعلماء والجمهور. فهو ضروري لأن هناك نوعاً من المعرفة الخارقة للسعادة، إذ كل نبي فيلسوف وليس كل فيلسوف نبياً. وهو ضروري للعامة لأنه يرشدهم إلى طرق السعادة التي يعجز الفلاسفة عن الاتفاق فيما بينهم لتحديدها تحديداً نهائياً. ويخلص أبو الوليد بن رشد إلى القول بأن المعجزة الحقيقية التي تعد علامة أكيدة على الرسالة هي وضع الشرائع المثالية. أما المعجزات الأخرى... كقلب العصا حية أو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فهي قرائن خارجية لا تكفي وحدها، والقرآن معجز باعتباره وحياً لأنه كتاب دين ودنيا، ودلالته في الإعجاز من هذه الناحية تفوق دلالة أي معجزة أخرى، وقد مثل لذلك بمثال طريف فقال: لو جاء شخصان وادعى كل منهما الطب فقال الأول: إنني طبيب لأنني أبرىء المرضى، وقال الثاني: إنني طبيب لأنني أسير على الماء فإن الأول منهما هو الأحق بأن يسمى طبيباً، لأن شفاء المرضى فعل من أفعال الطبيب، أما المشي على الماء فإنه ليس صفة ذاتية في الطبيب على الرغم من أنه يعد فعلاً خارقاً للعادة وليس في طاقة كل البشر، كذلك الأمر في معجزات الرسل، بمعنى أن الكتب السماوية معجزات في ذاتها، وأما الأفعال الخارقة للمألوف فهي براهين ثانوية، وليست دلالتها قطعية، وإن كانت تستخدم في إقناع الجمهور، أ.هـ. ووصفه للنبيّ بأنّه فيلسوف خطأ.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ٢٢١ ـ ٢٢٢.

والتقوى، ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم ويعظمون الدنيا وفي أعمالهم الإثم والعدوان.

٣ ـ أنَّ السحر والكهانة ونحوهما أمور معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم ولمن اتبعهم.

٤ ـ أنَّ الكهانة والسحر يناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا مجرب عند الناس بخلاف النبوة، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه.

٥ ـ أنَّ النُّبوَّة لو قدر أنها تنال بالكسب فإنَّما تُنال بالأعمال الصالحة، والصدق والعدل والتوحيد، لا تحصل مع الكذب على من دون الله فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به.

٦ ـ أنَّ ما يأتي به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس وهم مأمورون بطاعة الرسل وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا إنس بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتُونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[1].

٧ ـ أنَّ هذه يمكن أن تعارض بمثلها، وآيات الأنبياء لا يمكن أحد أن يعارضها بمثلها.

٨ ـ أنَّ تلك ليست خارقة لعادات بني آدم بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء، وأما آيات الأنبياء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدَّقهم.

٩ ـ أنَّ هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم كإنزال القرآن وتكليم موسى، وتلك تقدر عليها الجن والشياطين.

١٠ ـ أنَّه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة، فإن الملائكة لا تكذب على الله، ولا تقول لبشر أن الله أرسلك ولم يرسله، وإنما يفعل ذلك

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

الشياطين والكرامات معتادة في الصالحين منا ومن قبلنا ليست خارقة لعادة الصالحين وآيات الأنبياء خارقة لعادة الصالحين، وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك، ولو طلبها الناس، حتى يأذن الله فيها، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾[1] ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾[2].

١١ ـ أنَّ النَّبيَّ قد تقدمه الأنبياء فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله فله نظراء يعتبر بهم، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم.

١٢ ـ أنَّ النَّبيَّ لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد فيأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق، وينهي عن الشرك والكذب والظلم، فالعقول والفطر توافقه كما توافقه الأنبياء قبله فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به. والله أعلم[3].

(١) سورة الأنعام آية ١٠٩/.

(٢) سورة الأنعام آية ٣٧/.

(٣) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢١٥ ـ ٢١٦.

البحث السادس

معنى خرق العادة لغير الأنبياء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: معنى خرق العادة[1] أن الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بحيث تختص بالأنبياء، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم، وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لأخبار الشياطين لهم بذلك، وسحر السحرة بحيث يموت الإنسان من السحر، أو يمرض ويمنع من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين، فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس، ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس، كما يختص قوم بخفة اليد والشعوذة، وقوم بالسباحة الغريبة، حتى يضطجع أحدهم على الماء، وكما يختص قوم بالقيافة[2] حتى يباينوا بها غيرهم، وكما يختصُّ قوم بالعيافة[3] ونحو ذلك مما هو موجود، ولهذا كان مكذبو الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر، وهذا مستقر في نفوسهم أن الساحر ليس برسول ولا نبي، كما في قصة موسى لما قالوا: ﴿إِنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ * يُريدُ أن يُخرِجَكُم من أرضِكم فماذَا تأمرُون﴾[4].

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) القيافة معناها تتبع الآثار والأشباه والاستدلال بها كما في الأنساب. ينظر القائف في الولد المختلف في نسبه فينظر في شبهه وسحنته فيلحقه بمن يدعيه أو ينفيه عنه.

(٣) العيافة: معناها زجر الطير وإزعاجها عن أماكنها ليتفاءلوا بمطاردها يميناً أو شمالاً ونحو ذلك.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان ١٠٩ ـ ١١٠.

قال تعالى: ﴿كذلكَ ما أتىٰ الذينَ مِنْ قبلِهِم منْ رسولٍ إلَّا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ﴾[1]، وهذا لحيرتهم وضلالتهم تارة ينسبون إلى الجنون وعدم العقل، وتارة إلى الحذق والخبرة التي يُنَالُ بها السحر، فإن السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل أحد، لكن العجائب والخوارق المقدورة للناس منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن، كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل. فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد، بل أهل الإقليم، لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم، أو في مكان آخر، فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون أنهم أنبياء، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء.

ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس فإنهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها، أخذوا مسمى خرق العادة، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبياء، ومن أخبر بنبوتهم، وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم، واضطربوا في مسمى هذا الاسم، كما اضطربوا في مسمى المعجزات، ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آيات وبراهين، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها ويختص بها لا يقع على غيرها لم يسمها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها فهي لا تكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها، وهو من لوازمها، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة، هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً.

كما أن بعض الناس يجعل اسمها أنها عجائب، وآيات الأنبياء إذا وصفت بذلك، فينبغي أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التي أتت بها الأنبياء، وخوارق العادات، والمعجزات التي ظهرت على أيديهم، أو التي لا يقدر عليها البشر، أو لا يقدر عليها الإنس والجن، أو لا يقدر عليها إلاَّ الله بمعنى أنه لا

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٢.

يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب، كما يقدرون على السحر والكهانة، فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم، وإلا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها، والتعجب في اللغة يكون من أمر خرج عن نظائره، وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره، فهو أيضاً خارق للعادة، وهذا شرط في آيات الأنبياء، أن لا يكون لها نظير لغير الأنبياء، فإذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الأنبياء، ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم، كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطب والصناعات.

البحث السابع

شرط خرق العادة بين الأنبياء وغيرهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الذين سموا هذه الآيات خوارق للعادات[1]، وعجائب ومعجزات، إذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفةً لازمةً لها بحيث لا تكون الآيات إلا كذلك، فهذا صحيح، وإن كانت هذه الأمور قد تجعل أمراً عاماً، فتكون متناولة لآيات الأنبياء وغيرها كالحيوان الذي ينقسم إلى إنسان وغير إنسان، وأما إذا جعلوا ذلك حداً لها وضابطاً، فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل أن يقولوا خوارق للعادات التي تختص الأنبياء، أو يقولوا خوارق عادات الناس كلهم غير الأنبياء، فإن آياتهم لا بد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم، وكل طائفة من الطوائف، لا تختص آياتهم بخرق عادة بلد معين، ولا من أرسلوا إليه، بل تخرق عادة جميع الخلق إلا الأنبياء، فإنها إذا كانت معتادة للأنبياء مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذي لا يُعرف إلا من جهتهم، فما كان معتاداً للأنبياء دون غيرهم فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم، وإن كان معتاداً لهم فإن الدليل هو ما يستلزم المدلول عليه، فإذا لم يكن ذلك معتاداً إلا لنبي كان مستلزماً للنبوة، وكان من أتى به لا يكون إلا نبياً وهو المطلوب[2]، بل لو كان مستلزماً للصدق ولا يأتي به إلا صادق لكان المخبر عن نبوة نبي، إما نبوة نفسه أو نبوة غيرها، إذا كان كاذباً لم يحصل له مثل

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٣٤٣ ـ ٣٤٧.

(٢) هذه المقدمات ونتائجها في إثبات النبوّة من الوسائل الكلامية التي ابتدعها المتكلمون، وقبل ظهورهم لم يكن الناس بحاجة إلى مثل هذه الإثباتات الكلامية، بل كانوا مؤمنين موقنين بالنبي ﷺ على الطريقة القرآنية في إثبات آيات النبوة وبراهين الرسالة، وكفى بذلك دليلاً!.

ذلك الدليل الذي هو مستلزم للصدق، ولا يحصل أيضاً لمن كذب بنبوة نبي صادق، إذ هو أيضاً كاذب، وإنما يحصل لمن أخبر بنبوة نبي صادق، وحينئذ فيكون ذلك الدليل مستلزماً للخبر الصادق بنبوة النبي، وهذا هو المطلوب، فإن مدلول الآيات سواء سميت معجزات أو غيرها هو الخبر الصادق بنبوة النبي ومدلولها إخبار الله وشهادته بأنه نبي، وأن الله أرسله فقول الله: ﴿محمدٌ رسولُ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إنِّي رسولُ الله إليكم﴾ وقول كل مؤمن إنه رسول الله، كل ذلك خبر عن رسالته، وهذا هو مدلول الآيات[1].

وقد يكون مدلول الآيات نفس النبوة التي هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل خبر من الأخبار، وهذا من جنس الأول. فما دل على نفس النبوة دل على صدق المخبر بها، وما دل على صدق المخبر بها دل عليها، وأما نفس إخبار الرب بالنبوة وإعلامه بها وشهادته بها قولاً وعملاً فهو إخبار منه بها وهو الصادق في خبره، فإخباره هو دليل عليها، فإنه لا يقول إلا الحق ولا يخبر إلا بالصدق، وأيضاً فهو الذي أنشأ الرسالة وإرساله بكلامه قد يكون إنشاء للرسالة، وقد يكون إخباراً عن إرساله كالذي يرسل رسولاً من البشر قد يرسله، والناس يسمعون فيقول له: إذهب إلى فلان فقل له: كذا وكذا، وقد يرسله بينه وبينه، ثم يقول للناس إنِّي قد أرسلته، ويرسله بعلامات وآيات يعرف بها المرسل إليه صدقه، وكذلك إذا وصفت بأنها معجزات فلا بد أن يعجز كل من ليس بنبي ولم يشهد للنبي بالنبوة، فيعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في نبوته من الجن والإنس.

وكذلك إذا قيل هي عجائب، والعجب ما خرج عن نظيره فلم يكن له نظير، فلا بد أن يكون من العجائب التي لا نظير لها أصلاً عند غير الأنبياء لا من الجن ولا من الإنس، فإذا كان ليس لها نظير في شيء آخر، فهذا يؤيد أنها من خصائص الأنبياء ومن آياتهم، فهذا الموضع من فهمه فهماً جيداً تبين له الفرقان في هذا النوع؛ فإن كثيراً من الناس يصفها بأنها خوارق ومعجزات وعجائب، ونحو ذلك ولا يحقق الفرق بين من يجب أن يخرق

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٤٧.

عادته ومعجزه ومن لا يجب أن يكون في حقه كذلك.

فالواجب أن يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الأنبياء، فلا يكون لمكذب بنبوتهم ولا لشاك، وقولنا يخرق عادتهم هو من باب العادة التي تثبت بمرة، ليس من شرط فسادها أن تقع غير مرة مع انتفاء الشهادة بالنبوة، بل متى وقعت مرة واحدة مع انتفاء الشهادة بالنبوة لم تكن مختصة بشهادة النبوة ولا بالنبوة، فلا يجب أن تكون آية، وقولنا: ولا يجب أن تخرق عادات الأنبياء ولم نقل: ولا يجوز أن تخرق عادات الأنبياء، بل قد تكون خارقة أيضاً لعادات الأنبياء وقد خص بها نبي واحد مثل أكثر آيات الأنبياء، فإن كل نبي خص بآيات، لكن لا يجب في آيات الأنبياء، أن تكون مختصة بنبي بل ولا يجب أن يختص ظهورها على يد النبي، بل متى اختصت به وهي من خصائصه كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته، أو بعد موته، أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة، فكل هذه من آيات الأنبياء.

والذين قالوا من شرط الآيات أن تقارن دعوى النبوة، غلطوا غلطاً عظيماً، وسبب غلطهم أنهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات، ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها، بل جعلوا ما للسحرة والكهان هو أيضاً من آيات الأنبياء إذا اقترن بدعوى النبوة، ولم يعارضه معارض، وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النَّبيِّ وغيره، وجعلوا دعواه النبوة جزءاً من الآية فقالوا هذا الخارق إن وجد مع دعوى النبوة كان معجزة، وإن وجد بدون دعوى النبوة لم يكن معجزة، فاحتاجوا لذلك أن يجعلوه مقارناً للدعوى. قالوا: والدليل على ذلك أن مثل آيات الأنبياء يأتي في آخر الزمان إذا جاءت أشراط الساعة، ومع ذلك ليس هو من آياتهم، وكذلك قالوا: في كرامات الأولياء، وليس الأمر كذلك بل أشراط الساعة هي من آيات الأنبياء من وجوه منها: أنهم أخبروا بها قبل وقوعها، فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم، ومنها أنهم أخبروا بالساعة، فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة، وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء، وكل من كذب الأنبياء كذب الساعة قال تعالى: ﴿وكذلكَ جعلنَا لكلِّ نبيٍّ عدُوّاً شياطينَ الإنسِ والجِنِّ يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ولو شاءَ ربُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ ومَا يَفْتَرُونَ ❊

ولِتَصْغَىٰ إليهِ أفئدةُ الّذينَ لا يُؤمِنُون بالآخرةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُم مُقْتَرِفُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وهذا كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذي بينَ يديهِ ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حولَها والذينَ يُؤمِنُونَ بالآخرةِ يُؤمِنُونَ بهِ﴾[٢].

فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن، فإذا جاءت أشراط السَّاعة كانت دليلاً على صدق خبرهم أن الساعة حق، وأن القرآن حق، وكان هذا من الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول من القرآن وهو المطلوب، فلا يوجد خرق عادةٍ لجميع النّاس إلاّ وهو من آيات الأنبياء.

وكذلك الذي يقتله الدجال، ثم يحييه فيقول: أنت الأعور الكذاب الذي أخبر به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك إلا بصيرة[٣] فيريد الدجال أن يقتله، فلا يقدر على ذلك، فهذا الرجل بعد أن قتل وقام يقول للدجال أنت الأعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ، والله ما ازددت فيك بهذا القتل إلا بصيرة، ثم يريد الدجال أن يقتله فلا يقدر عليه، فعجزه عن قتله ثانياً مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله وشهادته للرسول محمد بالرسالة هو من خوارق العادات التي لا توجد إلا لمن شهد للأنبياء بالرسالة، وهذا الرجل هو من خيار أهل الأرض المسلمين.

فهذا الخارق الذي جرى فيه هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة فهو من أعلام النُّبوَّة ودلائلها وكونه قتل أولاً أبلغ في الدَّلالة، فإن ذلك لم يزغه ولم يؤثر فيه، وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية، فكان هذا اليقين والإيمان مع عجزه عنه هو من خوارق الآيات، ومعلوم أن قتله ممكن في العادة، فعجزه عن قتله ثانياً هو الخارق للعادة، ودل ذلك على أن إحياء الله له لم يكن معجزة للدجال، ولا لِيبيِّن بها صدقَهُ، لكن أحياه ليكذب الدَّجَّال، وليبين أن محمداً رسول الله، وأن الدجال كذاب وأنه هو الأعور الكذاب الذي

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان١١٢ ـ ١١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن / ٢٧ وكتاب فضائل المدينة / ٩. ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن / ١١٢، ١١٣ وابن ماجه: كتاب الفتن / ٣٣. وأحمد ج ٣ / ٢٦.

أنذر به النبي ﷺ حيث قال: (ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الدجال وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيٌ لأمته إنه أعورٌ وإن الله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافرٌ يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء)[1].

وفي بعض الأحاديث الصحيحة: (واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت)[2].

فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس تبين لهم كذبه فيما يدعيه من الربوبية، إذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الإله في البشر النصارى وغير النصارى، وما يأتي به الدجال إنما يُحار فيه ويراه معارضاً لآيات الأنبياء من لم يحكم الفرقان، فقوم يكذبون أن يأتي بعجيب ويقولون ما معه إلا التمويه كما قالوا في السحر والكهانة، مثل كثير من المعتزلة والظاهرية كابن حزم، وقوم يقولون لما ادعى الإلهية كانت الدعوة معلومة البطلان، فلم يظهر الخارق كما يقول ذلك القاضي أبو بكر وطائفة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد / ١٧ والفتن / ٢٦. ومسلم في صحيحيه: كتاب الفتن / ١٠١ وأبو داود في سننه: كتاب الملاحم / ١٤. والترمذي في سننه: كتاب الفتن / ٦٢ وأحمد ج ٣ / ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد / ١٧ والأنبياء / ٤٨ والمغازي / ٧٧. ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن / ١٠٠ وأحمد ج ١ / ٢٤٠ ـ ٣١٣.

البحث الثامن

الفرق بين المعجزة وأفعال السحر

إذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته، وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين. فإن الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين[1]. قال تعالى: ﴿واتَّبَعُوا ما تتلُو الشَّياطينُ على مُلْكِ سُليمانَ وما كفرَ سُليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفرُوا يعلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنزِلَ على المَلكَيْنِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعلِّمان من أحدٍ حتَّى يقُولاَ إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ﴾[2]، والسّاحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين كما تقدم بيانه، والساحر كما قال تعالى: ﴿ولا يُفْلِحُ السَّاحرُ حيثُ أتَى﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ولقدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتَراهُ ما لهُ في الآخرةِ من خَلاَقٍ﴾[4]، فهم يعلمون أنَّ السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب إلى الله وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق فإن مبناه على الشرك والكذب والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش.

وهذا مما يعلم بصريح العقل أنّه من السيئات. فالنَّبيُّ لا يأمر به ولا يعمله، يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب، وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الأنبياء أنهم حرَّمُوا الشرك فمتى كان الرجل يأمر بالشرك

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٠٢.
(٣) سورة طه، الآية ٦٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة لا من جنس الأنبياء، وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه. وخوارق الأنبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحد إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم. فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه.

ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة فإنها إنما تدل على أن صاحبها ساحر يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم، ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين، فمقصوده الظلم والفساد ـ والنبي مقصوده العدل والصلاح ـ وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة، وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله، وهذا يعظِّم إبليس وجنوده، وهذا يذمُّ إبليس وجنوده، والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم، ولهذا قالت الأمم المكذبة: ﴿لو شاءَ الله لأنزلَ ملائكةً﴾ حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون. قال قوم نوح: ﴿ما هٰذا إلاَّ بشرٌ مثلُكُمْ يُريدُ أن يتفضَّلَ عليكُم ولو شاءَ الله لأنْزَلَ ملائكةً﴾[1]، وقال: ﴿فإنْ أعرضُوا فقُلْ أنذرتُكمْ صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ * إذْ جاءتْهُمُ الرسلُ من بينِ أيديهِم ومن خلفِهِم ألاَّ تعبُدوا إلاَّ الله قالوا لو شاءَ ربُّنَا لأنزلَ ملائكةً فإنَّا بما أُرسلتُمْ بهِ كافرون﴾[2]، وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع فإنه ما قال: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عليه أَسَوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاءَ معهُ الملائكةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[3]، إلا وقد سمع بذكر الملائكة إما معترفاً بهم وإما منكراً لهم فذكر الملائكة والجن عام في الأمم.

وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم، فلا بد في

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآيتان ١٣ ـ ١٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٥٣.

آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الأنبياء بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك.

ومن خصائص معجزات الأنبياء أنه لا يمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها، فهذا لا يكون آية ألبتة، فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبياء في العالم وخصائصهم كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفاً بالأنبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يُعرف كما لم يُعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يُعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة.

البحث التاسع

أخبار الجان ليست علماً بالغيب[1]

وكذلك الأخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار، فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكهان، وهو معتاد لهم مقدور بخلاف أخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين، وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله. وأيضاً فخبر المسيح وغيره من الأنبياء ليس فيه كذب قط، والكهان لا بد لهم من الكذب والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفرق فقال: ﴿هَلْ أنبِّئُكم على مَنْ تنزَّلُ الشياطينُ * تنزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلْقُون السَّمعَ وأكثرُهم كاذِبُون﴾[2]. وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبِّر به فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال: ﴿وما جعلنا الرُّؤْيا التي أريناكَ إلاَّ فتنةً للنَّاسِ والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ﴾[3].

قال ابن عباس رضي الله عنه هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، وهذا كما قال في الآية: ﴿ولقد رآهُ نزلةً أخرى * عِنْدَ سدرةِ

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢١ ـ ٢٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٦٠.

المنتهَى * عندَها جنَّةُ المأوَى * إذْ يغشَى السِّدْرَةَ ما يغشَى * ما زاغَ البصرُ وما طغَى * لقد رأى من آياتِ ربِّهِ الكُبْرى﴾[١].

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿عالِمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً * إلاَّ مَنِ ارتضَى مِنْ رسولٍ فإنَّه يَسْلُكُ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفهِ رَصَداً﴾[٢]. فهذا غيب الرب الذي اختص به، مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله. والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب، فلا بُدَّ لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس.

وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل إخباره: (إنَّكم تقاتلونَ التُّركَ صغار الأعين ذُلَفِ الأنف[٣] ينتعلون الشَّعر كأن وجوههم المجانُّ المطرقة)[٤].

وقوله: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيءُ لها أعناقُ الإبلِ ببصرَى)[٥]، ونحو ذلك، فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسي، والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدرو لهم، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فلا يُظهرُ على غيبِهِ أحداً * إلاَّ مَنِ ارتضَى من رسولٍ﴾[٦].

---

(١) سورة النجم، الآيات ١٣ ـ ١٨. (٢) سورة الجن، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) قال في النهاية: الذلف بالتحريك قصر الأنف وانبطاحه، وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته ـ والذلف بسكون اللام جمع أذلف كأحمر وحمر، والأنف جمع قله للأنف وضع موضع جمع الكثرة.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد / ٩٥ ـ ٩٦. ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن / ٦٣. وأبو داود في سننه: كتاب الملاحم، ٩. وابن ماجه في سننه: كتاب الفتن / ٣٦ وأحمد في مسنده ج ٢ / ٥٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفتن / ٣٤. ومسلم في صحيحه: كتاب الفتن / ٤٢ وأحمد في مسند ج ٥ / ١٤٤.

(٦) سورة الجن، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

الآيات الخارقة جنسان:

جنس في نوع العلم، وجنس في نوع القدرة، فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن، وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس والجن، وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الإنس لأن الجن هم من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان، وأُرسلت الرسل إليهم قال تعالى: ﴿يا معشرَ الجِنِّ والإنسِ ألَمْ يأتِكُم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي ويُنذرونَكم لِقاءَ يومِكم هذا﴾[1]، ومعلوم أنَّ النَّبيَّ إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلا بُدَّ أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، فلا بُدَّ أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن. وما يأتي به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون.

وما أعطاه الله سليمان مجموعة يخرج عن قدرة الإنس والجن كتسخير الرياح والطير. وأما الملائكة فالأنبياء لا تدعوا الملائكة إلى الإيمان بهم، بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، لا تكون للكفار والسحرة والكهان. ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رسولٍ كريم * ذي قوَّةٍ عند ذي العرشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمينٍ * وما صاحِبُكُمْ بمَجنون * ولقد رآه بالأُفُقِ المبينِ * وما هو علىَ الغيبِ بضنينٍ * وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾[2]، وقال: ﴿نزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ * على قلبِكَ لتكونَ من المنذِرينَ﴾[3]، وقال: ﴿قُلْ نزَّلَهُ روحُ القُدُسِ من ربِّكَ بالحقِّ﴾[4]، وقال: ﴿مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإنَّه نزَّلَهُ على قَلبِكَ بإذنِ الله﴾[5]، وقال: ﴿هل أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تنزَّلُ الشياطينُ * تنزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلقونَ السَّمْعَ وأكثرُهم كاذِبُون﴾[6]، فينبغي أن يتدبر هذا الموضع وتعرَف الفروق

(١) سورة الأنعام، الآية ١٣٠.
(٢) سورة التكوير، الآيات ١٩ ـ ٢٥.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٤) سورة النحل، الآية ١٠٢.
(٥) سورة البقرة، الآية ٩٧.
(٦) سورة الشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

الكثيرة بين آيات الأنبياء، وبين ما يشتبه بها كما يعرف الفرق بين النبي وبين المتبني، وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبي. فالفرق حاصل في نفس صفات هذا، وصفات هذا، وأفعال هذا وأفعال هذا، وأمر هذا، وأمر هذا، وخبر هذا، وآيات هذا، إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبينه وييسره.

ولهذا أخبر أنه أرسل رُسُله بالآيات البينات، وكيف يشبه خير الناس بشر الناس، ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى: ﴿أنظرْ كيفَ ضرَبُوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾[1]. وقد تنازع الناس في الخوارق هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله.

والتحقيق أن من كان مؤمناً بالأنبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بيَّنها الله ورسوله كقوله: ﴿ألاَ إنَّ أولياءَ الله لاَ خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزَنُون * الذينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقُون﴾[2].

وأمَّا دلالتها على ولاية المعين فالنَّاس متنازعون، هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمناً تقياً وقد علم أنه يموت كافراً، يكون في تلك الحال عدواً لله، أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة وهما قولان معروفان:

فمن قال بالأول: فالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال، والخوارق لا تدل على ذلك، ولهذا قال هؤلاء، كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما، أنها لا تدل.

وأما من قال: الولاية تتبدَّل، فالولاية هنا كالإيمان، وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض النَّاس على خاتمة غيره، فهذا لا يمتنع، لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة وفيها ثلاثة أقوال: قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي، وعلي بن

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٩.

(٢) سورة يونس، الآيتان ٦٢ ـ ٦٣.

المديني وغيرهم، وقيل: يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبراً صحيحاً كمن شهد له النبي ﷺ بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم. وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري، وغيرهما وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة، وقد جاء في الحديث الذي في المسند: (يُوشِكُ أنْ تعلمُوا أهلَ الجنَّةِ من أهلِ النَّار. قالوا بماذا يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسنْ والثناء السَّيِّءِ)[1].

وفي الصحيحين: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: وجبت وجبت، ومُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال وجبت وجبت. فقيل: يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت؟ قال هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير فقلتُ: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً، فقلتُ وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض)[2]. وفي حديث آخر: (إذا سمعتَ جيرانَكَ يقولُون قد أحسنتَ فقد أحسنتَ، وإذا سمعتَهم يقولُون قد أسأتَ فقد أسأت)[3].

والتحقيق أنَّ هذا قد يُعلم بأسبابٍ، وقد يغلب على الظنّ، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم ٤٢٢١: كتاب الزهد / ٢٥. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وأخرجه البيهقي في سننه ج ١٠ / ١٢٣. والحاكم في المستدرك ج ١ / ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات / ٥٢ باب تعديل كم يجوز / ٦ رقم ٢٦٤٢. ومسلم في صحيحه: كتاب الجنائز / باب ٢٠ فيمن يثني عليه خيراً أو شراً من الموتى / رقم ٩٤٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ١ / ٤٠٢. وابن ماجه في سننه: كتاب الزهد / باب ٢٥ رقم ٤٢٢٣ وابن حبان: موارد الظمآن ص ٥٠٣ رقم الحديث ٢٠٥٧.

الفصل السادس

طريقة المتكلمين في إثبات النُّبوَّة
ونظرة الفلاسفة إلى النبوة

وهو يشمل سبعة أبحاث:

البحث الأول : طريقة المتكلمين في إثبات وجود الخالق سبحانه.

البحث الثاني : المتكلمون ونظرتهم إلى النُّبوَّة.

البحث الثالث : بطلان بدع المتكلمين.

البحث الرابع : أسلوب المتكلمين في إثبات النُّبوَّة.

البحث الخامس : الفلاسفة ونظرتهم إلى النُّبوَّة.

البحث السادس : طريقة الفلاسفة في النُّبوَّة.

البحث السابع : طريقة الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود.



البحث الأول

طريقة المتكلمين في إثبات وجود الخالق سبحانه

تختلف طريقة المتكلمين في إثبات وجود الله تعالى عن طريقة القرآن بعدَّة أمور هي:

١ ـ جعل المتكلمون هدفهم الأول إثبات توحيد الربوبية والاستدلال على وجود الله، معتمدين في ذلك على دليل التمانع، رغم أنَّ هذا الدليل قد وردَ في القرآن للدَّلالَة على وحدانية الله، وأنّه تعالى أخبر أنَّه لو كان فيهما آلهة غيره ولم يقل أرباب، لأنَّه لو كان فيهما أرباب غيره لم توجدا أصلاً ولقال: لم توجدَا، ولكنَّه قال: لفسدتا: أي لو كان فيهما آلهة غيره وهما موجودتان لفسدَتَا.

وقد ردَّ استدلالهم بقوله تعالى: ﴿لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا﴾[1] على توحيد الربوبية ـ شيخُ الإسلام ابْنُ تيمية بعدَّة مواضع من كتبه فيقول: وبيَّنَّا أن هذه الآية ليس المقصود بها ما يقوله من يقوله من أهل الكلام من ذكر دليل التمانع على وحدانية الرَّبِّ تعالى، فإن التَّمانع يمنع وجود المفعول لا يمنع فساده بعدَ وجودِهِ، وذلك يذكر في الأسباب والبدايات التي تجري مجرى العِلَل الفاعلات.

٢ ـ تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النَّظر: يختلف منهجُ المتكلِّمين بتقديمهم فيه العقل على الشرع وتحكيمه في أمور لا يملك الحكم فيها، وخوضه فيما وراء المادة، ويوجبون النظر ويقدمون في كتبهم

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

الكلام في النظر والدليل والعلم وأن النظر يوجب العلم، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام وهو دليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل، وإذا استدلوا بالقرآن فإنَّما يستدلون به من جهة إخباره لا من جهة دلالته، ولا يذكرون في كتبهم أن القرآن قد دلَّ على الوحدانية بالأدلة العقلية، وبهذا نرى أن اعتماد المتكلمين في براهينهم على العقل والتأويل كان مظهراً بارزاً لطريقتهم وسبباً أساسياً في نشوء الخلافات الكلامية مما لم يعرفه الصحابة في عصر الرسول ﷺ.

وأما بالنسبة لإيجابهم النظر فليست هي طريقة السلف ولا وافقهم عليها أحد منهم، لأن الإقرار بالخالق فطري حتى عند أعظم الأمم شركاً، وقد ذمهم السلف لهذا الإيجاب، وبينوا أن أول ما أوجب الله على عباده هو الشهادة، وليس من الرسل أحد قال لقومه: إنكم مأمورون أولاً بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه، لأن الله تعالى لم يكلف الإنسان أولاً بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ أن قلوب الخلق تعرفه وتقرُّ به، وقد أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان دائماً يستشهد بحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وقال له: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)، وفي رواية (إلى أن يوحِّدوا الله)، ومثل ذلك جميع الرسل أول ما افتتحوا به دعوتهم توحيد الله والأمر بعبادته، ووضح كذلك أن أول من أنكر معرفة الله الفطرية هم أهل الكلام.

٣ ـ طريقتهم طويلة متعبة لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة: ومما امتازت به طريقة المتكلمين أنها طويلة متعبة فيها تكلف شديد لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية المبنية على المقدمات والنتائج التي تبعد عن المقصود.

ومقدماتهم الطويلة لم تسلم من النقد من بعضهم البعض ومن غيرهم، لذلك كثر الخلاف فيما بينهم وتبادل التهم وسَوْق الأدلة لإبطال أقوال بعضهم بعضاً حتى قلَّ الحق في كلامهم وكثر فيه الباطل. واعتماد المتكلمين في براهينهم على الجدل المنطقي خطأ من وجهين هما:

١ ـ أنهم جعلوا المسلم بحاجة لتعلم المنطق حتى يستطيع إقامة الدليل على وجود الله.

٢ ـ أنهم ظنوا أن من لا يعرف المنطق عاجز عن البرهنة على صحة عقائده.

وقد هاجم طريقتهم هذه شيخ الإسلام ابن تيمية في معظم كتبه مبيناً أن المتكلمين بجدلهم الكلامي هدفوا للغلبة على بعضهم البعض، ولم يقصدوا بيان الحق، وكان كلامهم مجالاً كبيراً للصراع والخلافات.

وقد عاب طريقتهم كذلك الغزالي والباقلاني والجويني لأنهم رأوا أنها غير مجدية في إثبات العقائد والدفاع عنها وأنها لا تخرج عن كونها وسيلة للرياضات الذهنية والدربة العقلية ولا صلة لها بالقلب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد. أما المقاصد: فإن حاصلها ـ بعد التعب الكثير والسلامة ـ خير قليل، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيُرتقى ولا سمين فيُنتقل، ثم أنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا.

وأما الوسائل: فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ينقطع السالكون فيها كثيراً قبل الوصول.

٤ ـ بُعْدُ طريقتِهم عن التوحيد الحقيقي المبعوث به الرسل: ومن مميزات طريقة المتكلمين بُعدها عن توحيد الألوهية والأسماء والصفات لاكتفائهم بتوحيد الربوبية، ولأن بعض طوائفهم يفسِّرون التوحيد بما يستلزم نفي الصفات فجعلوا وجود الله وجوداً مطلقاً لا يوصف بوحدة ولا كثرة وإثبات الصفات تعدُّدٌ وكثرة، وهم يدرجون في توحيدهم نفي علو الله على خلقه ومباينته لهم وعلمه وقدرته وسائر صفاته، لأن إثبات ذلك مناقض لاعتقادهم بأن الله لا صفة له.

وبعض طوائف المتكلمين تتوسع في النفي المفصل حتى سلبوا عن الله النقيضين فقالوا: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا

جاهل، لأن الإثبات بزعمهم تشبيه له بالموجودات، وما قالوه يعلم فساده ضرورة، لأن إثبات ذات معطلة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج وفيه غاية التعطيل، والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم عليم حكيم سميع بصير يكلم ويرضى ويغضب.

٥ ـ طريقتهم غير عملية ولا تناسب جميع الناس لاعتمادها على ألفاظ مستوردة: ومما تمتاز به طريقة المتكلمين أنها غير عملية ولا تناسب جميع فئات الناس، فاعتمادها على المنطق اليوناني بأقيسته وقضاياه الجزئية والكلية لم يجعلها طريقاً لدخول الناس في دين الله، لأن المنطق اليوناني ذهني مجرد لا ينفد إلى أعماق النفس، بل إن مباحث علم الكلام بدت غريبة غربة كاملة عن الإسلام ومنهجه وأسلوب الدعوة إلى عقيدته الصافية لما خلط المتكلمون بين المصطلحات اليونانية ومبادىء العقيدة الإسلامية وأسلوب عرضها ووسائل الدفاع عنها، فلم يفرقوا بين عقيدة خالدة وبين أسلوب زمني عارض قابل للتغيير والتبديل حتى صارت بين العقيدة النظرية في علم الكلام وبين العقيدة الحية الواقعية في القرآن هوَّة بعيدة.

لقد بحث المتكلمون في مسائل العقيدة وهم يحملون أفكاراً ومقررات غير إسلامية وأخذوا يطبقونها على العقيدة ومسائلها كمسألة الذات والصفات وغيرها من المسائل التي لم ترد في القرآن ولا اعتنى بها الجيل الأول.

وقد ذمَّ شيخ الإسلام ابن تيمية طريقتهم مبيِّناً ما فيها من مصطلحات غير إسلامية من لغات الأمم الأخرى، وأن كل أمة تفهم من هذه المصطلحات غير ما تفهمه الأمة الأخرى، ومن هنا تظهر الخطورة المترتبة على حركة الترجمة للكتب المنطقية اليونانية والتي حاول أصحابها المزج والتقريب بين الفلسفة والدين، إذ أنه ليس من السهل أن تعرض مسائل العقيدة الإسلامية السهلة الفطرية بقوالب فلسفية جافة وغريبة عن طبيعة هذا الدين، ولهذا جاءت معظم مسائل العقيدة عند المتكلمين مشوبة بشيء من التكلف والتعقيد والجفاف، مما جعلها لا يحصل بها العلم النافع ولا العمل الصالح، لأن العلم بالصانع ووحدانيته يمتنع أن يكون موقوفاً على طريقة فاسدة.

ولو أن المتكلمين عرضوا أدلة القرآن مكتفين ببيانها وتوضيح القصد منها

لكان ذلك أنفع وأبعد عن التكلف والتعقيد، وأسلم من دخول الألفاظ الغريبة، وأبعد عن الخلاف فيما بينهم وأقرب للإقناع.

٦ ـ طريقتهم نهايتها الشك والحيرة وتذم أصحابها لسلوكها وذمها السلف: إن طريقة المتكلمين تؤدي للشك والحيرة لأنها مخالفة للفطرة الإنسانية ولطريقة القرآن الكريم والرسل أجمعين، وقد ذمَّ السلف الصالح هذه الطريقة لكنهم لم يذموا جنس الكلام والاستدلال والنظر الذي أمر الله به رسولَه ﷺ والمؤمنين، بل ذموا الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة. وقد خفي بطلان هذه الطريقة على كثير من سالكيها حتى اعتقدوا أنها طريقة موافقة للشرع والعقل، وأن عيبها أنها طويلة متعبة خطرة فقط لكنها صحيحة في نفسها، فلما انتهت بهم إلى الشك والحيرة علموا بطلانها شرعاً وعقلاً، فعضُّوا أصابع الندم مصرحين بأنها لم تشفِ داءهم ولم تذهب حيرتهم ولم يشكّ أحد منهم أن مثل ذلك حصل لغيره من سالكيها. وقد صرح ابن واصل الحموي بشكِّه عندما قال: أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجَّح عندي شيء.

وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق: عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف برّه فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني.

وهذا الشهرستاني ينشد:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر ... على ذقن أو قارعاً سنَّ نادمِ

ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

فيك يا أغلوطة الفكر ... حارَ أمرِي وانقضَى عمري

سافرتْ فيك العقولُ فما ربحتْ إلاّ أذى السَّفرِ
فلحى اللَّهُ الأولَى زعَمُوا أنَّكَ المعروفُ بالنظرِ

وهذا أبو عبد الله الرازي يصرِّح بأن علم الذات عليه عُقْدَةٌ وهي: هل الوجود هو الماهية أو زائد عليها؟ وعلم الصفات عليه عقدةٌ وهي: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وعلم الأفعال عليه عقدةٌ وهي: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟ واعترف أن أحداً لم يصل إلى هذا الباب ولم يذق من هذا الشراب وأنشد:

نهاية إقدام العقول عقالُ وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحُنَا في وحشة من جسُومنا وحاصلُ دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفدْ من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمٰنُ على العرشِ استَوَى﴾[1]، ﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾[2]، وأقرأ في النفي ﴿ليسَ كمثلهِ شيءٌ﴾[3]، و﴿ولا يُحيطُون بهِ عِلْماً﴾[4] و﴿هل تعلم له سَمِيّاً﴾[5] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ولهذا تجد أبا حامد، مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف، ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث ومات وهو يشتغل في صحيح البخاري.

---

(١) سورة طه، الآية ٥.
(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.
(٣) سورة الشورى، الآية ١١.
(٤) سورة طه، الآية ١١٠.
(٥) سورة مريم، الآية ٦٥.

وأمَّا السَّلف الصالح فأنكروا صحة هذه الطريقة في نفسها وعابوها لاشتمالها على كلام باطل، فذمُّوا علم الكلام والمتكلمين كقولهم: من طلب الدِّين بالكلام تزندق، وقول الشافعي: لأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خيرٌ من أن ينظر في الكلام، وقول الإمام أحمد: لا يُفلح صاحب كلام أبداً، علماء الكلام زنادقة، وقول أبي الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أنَّ الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإنْ رضيتَ أن تكون مثلهم فكُنْ، وإنْ رأيتَ أنَّ طريقة المتكلمين أَوْلَىٰ من طريقة أبي بكر وعمر فبئسَ ما رأيتَ!!؟

البحث الثاني

المتكلمون ونظرتهم إلى النُّبوَّة

إن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات[1] بكلام كثير لبَّسُوا فيه الحقَّ بالباطل كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات، كالإلهيات وكالمَعَاد، وعند التَّحقيق لم يعرفوا النُّبوَّة ولم يثبتوا ما يدلُّ عليها فليس عندهم لا هدى ولا بينات، والله سبحانه أنزل في كتبه البيِّنات والهدى، فمن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى إليه، ومَنْ عرف دليل ثبوته فقد عرف البيِّنات. فالتصور الصحيح اهتداءٌ، والدليلُ الذي يبيِّن التصديقَ بذلك التصورِ بيِّناتٌ، والله تعالى أنزل الكتاب هُدىً للنَّاس وبيِّنات من الهُدَى والفُرْقَان.

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ ونفي مجملٍ، وأعداؤهم جاؤوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فلو لم يكن الحق فيما بيَّنه الرسول للناس وأظهر لهم بل كان الحق في نقيضه، للزم أن يكون عدم الرسول خيراً من وجوده إذا كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علماً ولا هدى، بل ذكر أقوالاً تدل على الباطل، وطلب منهم أن يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم ثم ينظروا فيما جاء به، فإما أن يتأولوه ويحرف الكلم عن مواضعه، وإما أن يعوِّضوه، فذكرنا هذا ونحوه مما يبين أن الهدى مأخوذ عن الرسول، وأنه قد بين للأمة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات وغيرها، فكان الجواب خطاباً مع من يُقِرُّ بنبوته ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة.

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢٥٢ ـ ٢٥٧.

وذكر أن الشبهات العقلية التي تعارض خبر الرسول باطلة، وذكر في ذلك ما هو موجود في هذا الجواب، ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب ويتكلم على حجج النفاة، ويبين بطلانها ويتكلم على ما أثبتوه من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول، وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس هذا موضعه، وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون أن الرسل خاطبوا خطاباً قصدوا به التخييل إلى العامة ما ينفعهم، لا أنهم قصدوا الإخبار بالحقائق، وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم إذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذِّبين للرسل يقولون أنهم كذبوا لما رأوه مصلحة، بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول إلا الحق باطناً وظاهراً، ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية، وإن كانت مستفادة من تعليم الرسول. وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة في مصنَّف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر شمس الدين الأصبهاني فطلب مني شرحها فشرحتها وذكرت فيها من الدلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين، وبعدها جاء كتاب من النصارى يتضمن الاحتجاج لدينهم بالعقل والسمع واحتجوا بما ذكروه من القرآن، فأوجب ذلك أن يُرَدَّ عليهم ويبين فساد ما احتجوا به من الأدلة السمعية من القرآن ومن كلام الأنبياء المتقدمين، وما احتجوا به من العقل وأنهم مخالفون للأنبياء وللعقل، خالفوا المسيح ومن قبله وحرَّفوا كلامهم كما خالفوا العقل، وبين ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، وأنها هي وغيرها من نصوص الأنبياء التي عندهم حجة عليهم لا لهم، وبين الجواب الصحيح لمن حرَّف دين المسيح، وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا، لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره، وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل، وهم وإن أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق إذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم معارض لما جاءت به الأنبياء، وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبياء ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين، وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم مع وجود ما يعارضه، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى، فإنه بهذا يتبين ذاك وإلا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته، أو على صدق المخبر به وتصديقه بدون أن يعلم

أنَّه في نفسه حق، أو أنَّ المخبِرَ به صادقٌ قولٌ بلا علم. [أي: فالبراهين الصحيحة هي ما جاء بها الأنبياء، لا ما أخبر به المتكلمون، فلو كان المتكلم صادقاً فلا يكفي في قبول قوله ما لم يأخذ براهين عن النّبوّة].

والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أُرسل بالبينات والهدى، بين الأحكام الخبرية والطلبية وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين ما يقال وما يعمل، وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق، وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع. وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف، والهدى هو هدى الخلق إلى الحق، وتعريفهم ذلك وإرشادهم إليه، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلاَّ فمجرَّدُ خبر لم يعلم أنه حق، ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى، وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء، نبينا وغيره، ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الأدلة والبراهين البينة المعلومة علماً يقينياً، إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات، وقد تسمى ضروريات، وقد تسمى أوليات، وقد يقال هي معلومة بأنفسها، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ما مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ إلاَّ وقد أُوتِيَ مِنَ الآياتِ ما آمَنَ على مثلِهِ البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيْتُهُ وحْياً أوحَاهُ الله إليَّ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثرَهُم تابعاً يومَ القيامةِ)[1].

وهو سبحانه إذا خاطب جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء، وأثبت جنس ما جاؤوا به، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم بإثبات نبي بعده كما قال في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى وذكَّرهم بأنعامه عليهم، وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها قال تعالى: ﴿ولقدْ آتينا موسىٰ الكتابَ وقفَّيْنَا من بعدِهِ بالرُّسلِ وآتينَا عيسى ابنَ مريمَ البيِّناتِ وأيَّدْنَاهُ بروحِ القُدُسِ أفَكُلَّما جاءَكم رسولٌ بما لا تهوَى أنفسُكم استكبرتُمْ ففريقاً كذَّبتُمْ وفريقاً تقتلُونَ﴾[2]، ثم ذكر محمداً فقال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن/ ١/ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٧.

﴿ولمَّا جاءَهُمْ كتابٌ مِنْ عندِ الله مصدِّقٌ لِما معهم وكانُوا من قبلُ يستفتِحُون على الذينَ كفرُوا، فلمَّا جاءَهُمْ ما عرَفُوا كفرُوا بهِ فلعنةُ الله على الكافرين * بئسما اشتَرَوْا بهِ أنفسَهُمْ أن يكفروا بما أَنزلَ الله بغياً أنْ يُنزِّلَ الله من فضلهِ على مَنْ يشاءُ من عبادهِ فباؤُوا بغضبٍ على غضبٍ، وللكافرين عذابٌ مُهِينٌ﴾(١)، فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح إليهم بالبيِّنات بعدما أرسل قبله الرسل، وأنهم تارةً يُكذِّبون الرسلَ، وتارةً يقتلونَهم، وذكر أنه أرسل عيسى بالبيِّنات لأنَّه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف مَنْ قبلَهُ، ولهذا لم يذكر عنهم.

وقال في موسى أنَّه آتاه الكتاب لأنَّهم كانوا مقرِّين بنبوته، ولكن حرَّفُوا كتابَه في المعنَى باتفاق النَّاس، وحرفوا اللَّفظَ أحياناً، وفي بعض المواضع، وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه: ﴿وألقِ عصاكَ فلما رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مُدبراً ولم يعقِبْ يا موسى لا تخفْ إني لا يخافُ لديَّ المرسَلون * إلاَّ من ظلمَ ثم بدَّلَ حسناً بعد سوءٍ فإنِّي غفورٌ، رحيمٌ * وأَدخِلْ يدَكَ في جيبكَ تخرجُ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ في تسعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ إنَّهم كانوا قوماً فاسقينَ﴾(٢)، وقال في سورة القصص: ﴿يا موسى أقبِلْ ولا تخفْ إنَّكَ من الآمِنِين * اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تخرُجْ بيضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فذانِكَ برهانَانِ مِنْ ربِّكَ إلى فرعونَ وملئِهِ إنَّهم كانُوا قوماً فاسِقِينَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿فأرسلنَا عليهِمْ الطُّوفَانَ والجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبرُوا وكانُوا قوماً مجرِمِين﴾(٤). وقد قال تعالى لمَّا قص قصص الرسل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ونصره لهم وإهلاك أعدائهم، ثم ذكر الأنبياء عموماً فقال: ﴿وما أرسلنَا في قريةٍ مِنْ نبيٍّ إلاَّ أخذنَا أهلَها بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ لعلَّهُمْ يَضَّرَّعُون﴾(٥)، إلى قوله: ﴿أوَلَمْ يهدِ للذين يرِثُون الأرضَ من

---

(١) سورة البقرة، الآيات ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) سورة النمل، الآيات ١٠ ـ ١٢.
(٣) سورة القصص، الآيتان ٣١ ـ ٣٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية ٩٤.

بعدِ أهلِها أنْ لو نشاءُ أصبنَاهُم بذنُوبِهِمْ ونطبعُ على قلوبِهم فهُمْ لا يسمعُونَ * تلك القرَى نقصُّ عليكَ من أنبائِها ولقد جاءَتْهُمْ رسلُهم بالبيِّنات فما كانوا لِيؤْمِنُوا بما كذَّبُوا من قبلُ كذلكَ يطبعُ الله على قلوبِ الكافرين * وما وجدنا لأكثرِهم من عهدٍ وإنْ وجدنَا أكثرَهُمْ لفاسقين﴾[1].

فقد أخبر أن أهل القرى كلهم الذين أهلكهم جاءتهم رسلهم بالبينات، ولكن شابه متأخروهم متقدميهم فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم، كذك يطبع الله على قلوب الكافرين، وهذا كقوله تعالى: ﴿كذلكَ ما أتَى الذين مِنْ قبلِهِمْ مِنْ رسولٍ إلاَّ قالُوا ساحرٌ أو مجنُونٌ﴾[2]. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بعثنَا من بعدِهِم موسَى بآياتِنَا إلى فرعونَ وملئِهِ فظَلَمُوا بها فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدِين﴾[3].

فبيَّن سبحانه أنه بعث موسى بآياته، وقال في أثناء القصة ﴿إني رسول من رب العالمين حقيق عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق، وقد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾، فأخبر أنه جاء ببينة منه أي بآية بينة من الله وبدليل من الله وبرهان، فهي آية منه وعلامة منه على صدقي، وإني رسول منه. فإن قوله: من ربكم متعلق بالرسول وبالآية، يقال فلان قد جاء بعلامة من فلان فالعلامة منه والرسول منه والآية منه كما قال: ﴿فذَانِكَ برهَانَانِ من ربِّك﴾[4]، فدل على أن كل واحد من الرسول ومن آيات الرسول هو من الله تعالى، قال له فرعون: ﴿إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إنْ كنتَ من الصَّادِقِين﴾[5].

وذكر القصة ومعارضة السحرة له إلى أن قال: ﴿وأوْحَيْنا إلى موسى أنْ ألْقِ عصَاكَ فإذا هي تلقفُ ما يأفِكُون * فوقعَ الحقُّ وبطلَ ما كانُوا يعمَلُون * فغُلِبُوا هنالِكَ وانقلَبُوا صَاغِرِين * وأُلْقِيَ السَّحرةُ ساجدين * قالوا آمنَّا بربِّ العالمينَ * ربِّ موسى وهارون * قالَ فرعونُ آمنتُمْ بهِ قبلَ أن آذَنَ لكُم إنَّ هذا

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٠٠ ـ ١٠٢.
(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٠٣. ﴿فظلموا بها﴾ أي استكبروا عنها واندفعوا إلى العناد والظلم فضلوا بدلاً من أن يهتدوا بها.
(٤) سورة القصص، الآية ٣٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٠٦.

لمكرٌ مكرتمُوهُ في المدينة لتخرِجُوا منها أهلَها فسوفَ تعلمونَ * لأَقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وأرجُلَكُم من خلافٍ ثم لأصلبنَّكم أجمعين * قالوا إنَّا إلى ربِّنَا مُنْقَلِبُون * وما تنقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمَنَّا بآياتِ ربِّنَا لمَّا جاءَتْنَا، ربَّنَا أفْرِغْ علينَا صَبْراً وتوفَّنَا مسلِمين﴾[1].

فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله كما قال موسى: ﴿قد جئتكم ببيِّنةٍ من ربِّكم﴾[2] إلى قوله: ﴿فأرسلْنا علَيْهِمُ الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ إلى قوله: ﴿فأغرقناهم في اليَمِّ بأنَّهم كذَّبُوا بآياتِنَا وكانُوا عنها غَافِلينَ﴾[3] وليس المراد بالآيات هنا كتاباً منزلاً، فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت، وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون وخلص بني إسرائيل فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها، قال تعالى: ﴿ولقدْ آتينا موسى الكتابَ من بعدِ ما أهلكنا القرونَ الأولى بصائرَ للنَّاسِ وهُدَىً﴾[4].

ولكن تذكيبهم بآياته إنكارهم أن تكون آية من الله وقولهم إنَّها سحر كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وقالُوا مهما تأتِنَا بهِ من آيةٍ لتسحرنَا بها فما نحنُ لك بمؤمنين﴾[5]، لم يذكروها ويتأمَّلُوا ما دلَّت عليه من صدق موسى، وأنَّه مرسَلٌ من الله، فالتكذيب ضدُّ التصديق، والغفلة عنها ضدُّ النظر فيها، ولهذا قيل: النظر تجريد العقل عن الغفلات، وقيل: تحديق العقل نحو المرئي، والأول هو النظر الطلبي، وهو طلب ما يدله على الحق، والثاني: هو النظر الاستدلالي، وهو النظر في الدليل الذي يُوصله إلى الحق. وهذا الثاني هو الذي يُوجب العلم، فَذَمُّهُمْ على الغفلة عن آياته يتضمَّنُ النوعين: النظر فيها، والتأمُّل لها.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ١١٧ ـ ١٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٣٦.
(٤) سورة القصص، الآية ٤٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٣٢.

البحث الثالث

بطلان بدع المتكلمين

إن جميع ما ابتدعه المتكلمون وغيرهم[1] [من الاعتقاد ومسائله] مما يخالف الكتاب والسنة، فإنه باطل، ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أنَّ ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل، لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة، لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسنة، وما الذي يخالفه كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنَّفة في الكلام في أصول الدين وفي الرأي والتصوف وغير ذلك، فكثير منهم قد اتبع طائفة يظن أن ما يقولونه هو الحق وكلهم على خطأ وضلال.

ولقد أحسن الإمام أحمد في قوله في خطبته، وإن كانت مأثورة عمن تقدم: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهَّال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلِّين، فهؤلاء أهل البدع

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢١٧ ـ ٢١٨.

أهل الكلام وغيرهم، كما قال: مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب، وتصديق ما ذكره. إنك لا تجد طائفةً منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم، بل بكل طائفة أصول دينٍ لهم، فهي أصول دينهم الذي هم عليه، ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه، وما هم عليه من الدِّين ليس كله موافقاً للرسول ﷺ ولا كله مخالفاً له، بل بعضه موافق، وبعضه مخالف، لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة للرسول ﷺ من بعض، وبعضها أظهر مخالفةً، ولكن الظهور أمر نسبي، فمن عرف السنَّة ظهرت له مخالفة مَنْ خالفها.

ـبحث الرابع

أسلوب المتكلمين في إثبات النبوّة

إن المتكلمين[1] لما تكلَّموا في إثبات النبوة صاروا يوردون عليها أسئلة في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة، كما ذكرنا كلامهم، فصار طالب العلم والإيمان والهدى من عندهم لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام ونظَّاره، والقائمون ببراهينه وأدلته، إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الأنبياء، بل وجده يقدح في الأنبياء ويورث الشك فيها أو الطعن، وأنها حجة تقدح في الأنبياء وتورث الشك فيها أو الطعن فيها، وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الأنبياء، فانسدَّ طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه، والذي يفهم ما قالوه، لا يكون إلا فاضلاً قد قطع درجة الفقهاء، ودرجة من قلد المتكلمين، فيصير هؤلاء إما منافقين، وإما في قلوبهم مرض ويظن الظانُّ أنه ليس في الأمر على نبوة الأنبياء براهين قطعية، ولا يعلم أن هذا إنما هو لجهل هؤلاء وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الاستدلال وقدحهم في الإلهية، وأنهم لم ينزِّهوا الربَّ عن فعل شيء من الشر ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلاً فكان[2] ما جهلوه من آيات الأنبياء إذ كان العلم بآيات الله، وما قصه لخلقه من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه وحكمته ورحمته وعدله، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، وهم في الأصل إنما قصدوا الرد على القدرية الذين قالوا: إن الله لم

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٣٨٣ ـ ٣٨٥.

(٢) «كان» هنا تامة، ولا يصح أن نعتبرها ناقصة.

يشأ كل شيء، ولم يخلق أفعال العباد، وهو مقصود صحيح، لكن ظنوا أن هذا لا يتم إلا بجحد، حكمته وعدله ورحمته، فغلطوا في ذلك، كما أن المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة وظنوا أنه لا تثبت حكمته وعدله ورحمته إن لم يجحد خلقه لكل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ويجحد اتصافه بالكلام والإرادة وغير ذلك من أقوال المعتزلة التي هي من أقوال هؤلاء، فإن هؤلاء في الصفات خير من المعتزلة وفي الأفعال من بعض الوجوه.

ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه ضعفُ طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره، أعرض عنها وذكر أنه إنما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول، وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته، وهذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحواً منها، ولكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات، ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة ونحو ذلك.

وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس، فلهذا لا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والاحترام، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري، وهي الإنباء بالغيب وهي خاصة النبوة. والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة، ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى، وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوة التي خص الله بها أنبياءه، فلهذا ضعفت معرفة هؤلاء بالأنبياء، وضعف أخذ العلم من طريقهم لا سيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيات التي من سلكها ضل ضلالاً بعيداً.

وإنما ينجو من سلك منها شيئاً إذا لطف الله فعرفه السلوك وخُلُقَ طريق الأنبياء، فمن لم يهتدِ بما جاءت به الأنبياء فهو أبعد الناس عن الهدى: ﴿تلك آياتُ الله نتلُوهَا عليكَ بالحقِّ فَبِأَيِّ حديثٍ بعدَ الله وآياتهِ يُؤمِنُون * وَيْلٌ لكلِّ أَفَّاكٍ أثيم * يسمعُ آياتِ الله تُتْلَى عليهِ ثم يُصِرُّ مستكبراً كأنْ لم يَسْمَعْهَا، فبشِّرْهُ بعذابٍ أليمٍ * وإذا عَلِمَ من آياتِنَا شيئاً اتخذها هزؤاً أولئكَ لهم عذابٌ

مُهِينٌ﴾[1]، ﴿وإذا قيل لهم اركعُوا لا يركَعُون * ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين * فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمِنُون﴾[2]، ﴿وكيف تكفرونَ وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله وفيكم رسولُهُ ومَنْ يَعْتَصِمْ بالله فقدْ هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم﴾[3].

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. إقرأ في الإثبات: ﴿إليه يصعدُ الكِلِمُ الطيِّبُ﴾، ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾، واقرأ في النفي: ﴿ليسَ كمثلِهِ شيءٌ﴾، ﴿ولا يحيطونَ بهِ علماً﴾، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

أكثر الانتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ما جاء به الرسول، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ.

فكل من خالف طريق الأنبياء لا بدَّ له من الكذب والظلم[4]، إمَّا عمداً وإمّا جهلاً، وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم﴾ ليس من شرطه أن يتعمد الكذب بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب، فإن الشياطين تنزَّلَ عليه أيضاً إذْ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من غير اجتهاد يُعْذَرُ بهِ فهو كذاب، ولهذا يصف الله المشركين بالكذب وكثير منهم لا يتعمد ذلك، وكذلك قال النبي ﷺ لما أفتى أبو السَّنابل: (بأن المتوفى عنها الحامل لا تحلُّ بوضْعِ الحمل بل تعتد أبعدَ الأجَلَين)[5].

---

(١) سورة المرسلات، الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة الجاثية، الآيات ٦ ـ ٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

(٤) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٤١.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ج ١ /٤٤٧/ والبيهقي في سننه ج ٧ /٤٢٩/ و ج ١٠ /٢١٠/ وسعيد بن منصور في سننه رقم ١٥٠٦ و ١٥٠٨ و ١٥٠٩ و ١٥١٠/ وفي مجمع الزوائد ج ٥ /٣/.

بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين. وكذلك لما قال بعضهم: ابن الأكوع حبط عمله قال النبي ﷺ: كذب من قالها إنه لجاهد مجاهد، ونظائره كثيرة. فالأنبياء لا يقع في إخبارهم عن الله كذب لا عمداً ولا خطأً، وكل من خالفهم لا بد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة، فإن خبره إذا لم يكن مطابقاً لخبرهم كان مخالفاً له فيكون كذباً، فالذي تنزل عليه الشياطين إذا ظن واعتقد أنهم جاؤوا من عند الله، وأخبر بذلك كان كاذباً، وكذلك إذا قال عما أوحوه إليه إن الله أوحاه إليه كان كاذباً قال تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطين لَيُوحُونَ إلى أوليائِهِم لِيُجادِلُوكُمْ﴾[1]. ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد وهو أول من ظهر في الإسلام بالكذب في هذا، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يكون في ثقيف كذَّاب ومبير) فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، والمبير هو الحجاج بن يوسف، وكان ظالماً معتدياً، وكان يتشيع لعثمان، والمختار يتشيع لعلي، فذكر لابن عمر، وابن عباس أمر المختار، وقيل لأحدهما: إنه يزعم أنه يوحى إليه فقال: صدق، ﴿وإنَّ الشَّياطين لَيُوحُونَ إلى أوليائِهِم﴾.

وقيل للآخر: إنه يزعم أنه ينزل عليه فقال: صدق: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشيطاين * تنزّل على كل أَفاك أثيم﴾.

والمقصود[2] أن هؤلاء لما احتاجوا إلى إثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي وما يجوز عليه وفي الآيات التي بها يعلم صدقه، فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء، لا يشترطون في النبي إلا أن يعلم ما أُرسل به لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع، ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقاً يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي[3]، وجوزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر أن يكون الرسول فاعلاً للكبائر[4]، إلا أنه لا بد أن

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢١. (٢) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ١٧١.

(٣) ونسوا قوله تعالى: ﴿.. لتبين للناس ما نزل إليهم من ربهم﴾ وقوله: ﴿فاحكم بينهم...﴾ ولا يكون الحكم إلا لمن يعلم.

(٤) هذا فكر إسرائيلي... حيث استحل اليهود أن يذكروا أنبياءهم بما يتنزه عنه أعتى الفُسّاق... وكأن أمثال هؤلاء المفكرين ينقلون آراءهم من أهل الكتاب.

يكون عالماً بمرسله، لكن ما علم بالخبر أن الرسول لا يتصف به علم من جهة الخبر فقط، لا لأن الله منزَّه عن إرسال ظالم أو مرتكب للفواحش أو مكَّاس أو مخنَّث أو غير ذلك، فإنه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل لكن بالخبر وهم في السمعيات عمدتهم الإجماع.

وأما الاحتجاج بالكتاب والسنة فأكثر ما يذكرونه تبعاً للعقل أو الإجماع، والعقل والإجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنَّة، فلم يعتمد القاضي أبو بكر وأمثاله في تنزيه الأنبياء لا على دليل عقلي ولا سمعي من الكتاب والسنَّة، فإن العقل عنده لا يمنع أن يرسل الله من شاء إذ كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه، وإنما اعتمد على الإجماع، فما أجمع المسلمون عليه أنه لا يكون في النبي نُزِّه عنه، ثم ذكر ما ظنه إجماعاً كعاداته وعادات أمثاله في نقل إجماعات لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة ولا ثلاثة من التابعين، ولا أربعة من الفقهاء المشهورين.

البحث الخامس

الفلاسفة ونظرتهم إلى النبوّة

بنى ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس[1]، وقوى النفوس متفاوتة، وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء، بل هذا المثال أقرب، فإن بُعْد النبوة عن غير الأنبياء أعظم من بُعْد الفقيه والطبيب عن الشاعر، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء.

فإن قيل: موسى وغيره كانوا موجودين قبل أرسطو، فإن أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمَّةٍ رسولاً أنِ اعبدُوا الله واجتنِبُوا الطَّاغوتَ فمنهم من هدَى الله ومنهم من حقَّتْ عليه الضَّلالةُ فسِيْرُوا في الأرضِ فانظرُوا كيفَ كان عاقبةُ المكذِّبينَ﴾[2]، وقال: ﴿إنَّا أرسلنَاكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإنْ مِنْ أمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فيها نذيرٌ﴾[3] فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟ قلت عن هذا جوابان:

أحدهما: أن كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال: ﴿ومنهم من

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٤٦ ـ ٥٢.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣) سورة فاطر، الآية ٢٤.

حقَّت عليه الضَّلالةُ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبينَ﴾[1]، فلم تبقَ أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿تالله لقدْ أرسلنَا إلى أُمَم من قبلِكَ فَزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُم فهو وليُّهُمُ اليومَ﴾[2]، فإذا كان الشيطانَ قد زيَّنَ لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها، وأرسطو لم يأتِ إلى أرض الشام. ويقال إن الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبياء لكن المعرفة المجملة لا تنفع كمعرفة قريش، كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعاً من غير معرفة بأحوالهم، وأيضاً فهم وأمثالهم المشَّاؤون[3] أدركوا

(١) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٢) سورة النحل، الآية ٦٣.

(٣) المشَّاؤون والبادويون: إلى أوائل القرن الثاني عشر لم يكن المسيحيون يعرفون من أرسطوطاليس إلا بعض مؤلفاته المنطقية. وما إن اتصلوا بالمسلمين حتى لفتوا أنظارهم إلى أجزاء فلسفته الأخرى وحببوهم في قراءته ودراسته فقاموا في النصف الثاني من هذا القرن بترجمة كتبه في الطبيعة وعلم النفس والأخلاق وما وراء الطبيعة إلى اللاتينية عن مصادر عربية أو يونانية، كما ترجموا أبحاثاً لبعض من علَّقوا عليه من العرب أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، وفي منتصف القرن الثالث عشر اكتمل في باريس كل شروح ابن رشد على مؤلفات أرسطوطاليس مترجمة إلى اللاتينية اللهم إلا ما اتصل بالمنطق، وبجانب هذا الثروة العظيمة لا نجد لدى هؤلاء اللاتينيين شيئاً يذكر عن الفلاسفة اليونانيين الآخرين، فأفلاطون ـ مثلاً ـ كان يعرف من آثاره. . . وبذلك استطاع أرسطوطاليس في انفراده هذا أن يبسط نفوذه على الثقافة اللاتينية ويحرز منزلة عظمى، وأضحت الفلسفة المدرسية أرسطية فقط تقريباً من القرن الثالث عشر، غير أن في آراء أرسطوطاليس ما لا يتفق والتعاليم الدينية، فهو ينكر خالق العالم وخلود الروح ولا يتحدث عن الباريء وصفاته حديثاً يطمأن إليه في أوروبا لذلك رأينا فريقاً منهم يحاولون التوفيق بينه وبين الدين على نحو ما صنع المسلمون، وفريقاً آخر يعارضه معارضة شديدة. . ومن الفريق الأول توماس الأكويني، أما المعارضون منهم في أغلبهم من رجال الدين الذين لم يقبلوا في أوائل القرن الثالث عشر، من أرسطوطاليس إلا أبحاثه المنطقية والأخلاقية وحرموا قراءة كتبه الطبيعية والميتافيزيقية (الغيبيات)، ولكننا لا نلبث أن نرى في منتصف هذا القرن أن دائرة المعارف الأرسطية كلها أضحت جزءاً من برنامج كلية الآداب في باريس. وفي هذه الكلية درسَت آراء أرسطوطاليس على أنها ثمرة أثمار العقل الإنساني بصرف النظر عن اتفاقها أو اختلافها مع الدين، فهي وحي الطبيعة الذي اهتدينا إليه بمعزل عن وحي السماء، وكان لابن رشد أثر كبير في هذه الدراسة، وعُزِيَ إليه مذهب خاص في تأويل الفلسفة الأرسطية وتحليلها قدِّر له أن يعمر في جامعات أوروبا إلى القرن السابع عشر، وأهم عناصره =

الإسلام وهم من أكفر النَّاس بما جاءت به الرسل، أما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرَّفوه أو حملوه على أصولهم، وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء، فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام فما الظن بمن كان في بلاد لا تُعرف فيها شريعة نبي.

طريق معرفة النبوة بجنسها:

بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء، ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم، فيذكر وجود هؤلاء وإن قوماً صدَّقوهم وقوماً كذَّبوهم.

ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالإضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الأرض، فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الأرض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: ﴿وإنْ يكذِّبوكَ فقد كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ * وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ * وأصحابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ موسىَ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ثم أخذتُهم فكيفَ كان نَكِيْرِ * فأيِّنْ من قرية أهلكنَاهَا وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عروشِها وبئرٍ معطَّلةٍ وقصرٍ مَشِيْد * أفَلَمْ يسيرُوا في الأرضِ فتكونَ لهم

= القول بقدم العالم وفناء النفس بفناء الجسم وتعاقب الحوادث تعاقباً طبيعياً ضرورياً لا يدع لعناية الله وحكمته محلاً فسيحاً وأحاد البشر في عقل واحد باقٍ أزليٍّ، أمور تبدو لأول وهلة متناقضة مع الدين تناقضاً صريحاً، ومع هذا فإنا رأينا بين المسيحيين من أيدها وانتصر لها.. إلا إنهم أثاروا دائماً سخط الكنيسة ورجال الدين.

وهذه الفلسفة الأرسطية التي اعتنقوها كانت مشوبة بعناصر أفلوطينية سرت إليهم من العرب أو من بعض المصادر اللاتينية... أ.هـ. دروس في تاريخ الفلسفة د. إبراهيم مدكور. يوسف كرم.

فالمشائية هي التي تحاول أن تربط بين الفلسفة اليونانية والدين وتوفق بينهما.. وقد أدى ذلك ببعض الفلاسفة إلى الخروج على ضرورات الدين... نتيجة لغفلتهم عن روح الإسلام بصفة خاصة.

قلوبٌ يعقِلُون بها أو آذانٌ يسمعُون بها فإنَّها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكنْ تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدورِ * ويستعجلونك بالعذاب ولنْ يُخلِفَ الله وعدَهُ وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سَنَةٍ ممَّا تعدُّون * وكأيِّنْ من قريةٍ أمْلَيْتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصير﴾[1]. ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إنذار قومه: ﴿يا قوم إنِّي أخافُ عليكم مثلَ يوم الأحزابِ * مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذينَ من بعدِهِم وما الله يُرِيدُ ظُلْماً للعبادِ﴾[2].

ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة ابن نوفل: هذا هو النَّاموس الذي كان يأتي موسى، وقال النَّجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ! فكان عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا، وكذلك الجن لمَّا سمعتِ القرآنَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد قال: ﴿إنَّا أرسلنا إليكُم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنَا إلى فرعونَ رسولاً * فعصَى فرعونُ الرسولَ فأخذنَاهُ أخذاً وَبِيلاً﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا ما أنزلَ اللَّهُ على بشرٍ من شيءٍ، قُلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الَّذي جاءَ بهِ موسَى نوراً وهدىً للنَّاس؟ تجعلونهُ قراطيسَ تُبْدُونَها وتُخفون كثيراً وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ في خوضِهِمْ يلعَبُون * وهذا كتابٌ أنزلنَاهُ مباركٌ مصدِّقُ الَّذي بينَ يديهِ ولتنذرَ أمَّ القُرَى ومَنْ حولَها﴾[4]. فهو سبحانه

---

(١) سورة الحج، الآيات ٤٢ ـ ٤٨.

(٢) سورة غافر. الآيتان ٣٠ ـ ٣١ والمقصود بالأحزاب أقوام الأنبياء كما وضحت الآيات بعد.

(٣) سورة المزمل، الآيتان ١٥ ـ ١٦ وبيلاً صيغة مبالغة من الوبال وهو الدمار والخراب.

(٤) سورة الأنعام، الآيتان ٩١ ـ ٩٢. والآية تعرض قضية وترد عليها، والقضية التي تعرضها ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فقولهم هذا، وإنكارهم إرسال الرسل، وإنزال الوحي، وجعل مثل هذا القول دليلاً على ما استقر في قلوبهم من قصور في الإحساس بعظمة الله، وما أصيبت به عقولهم من جمود وتخلف فلم تستطع أن تستوعب قدرة الله وقدره.. وعلى طريقة القرآن في التربية والتوجيه يأخذ بأيدي الجاحدين إلى الحقيقة =

يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء، كما في السور المكية، حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه، ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء، فمن أقر بجنس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور. ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم.

والعرب عرفوا ما جاء به محمد، فلما أقروا بجنس الأنبياء لم يبقَ عندهم في محمد شك. وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى إذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل فينبغي معرفة هذا[1]، فإنه أصل عظيم. ولهذا جميع مشركي العرب

= في تؤدة ولين حتى يلمسوا جوانبها، ويتعرفوا عليها.. والآيات تعرض الحق في مثالين لا ينكرهما إلا جاحد هالك.

الأول: الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، فقد جاء بكتاب من عند الله تلقاه عنه اليهود وتصرفوا فيه، فأظهروا منه ما شاءوا وأخفوا منه معظمه.. فالوحي قد جاء من الله تعالى، لا ريب في ذلك، واليهود تلقوه وأدخلوا فيه الهوى.. فهذا برهان على فساد قضيتهم.

الثاني: دليل في ذات الإنسان، فإنه يولد جاهلاً ثم ينمو فيتعلم ما كان يجهله، وتنكشف له أسرار لم تنكشف لغيره.. أرأيت إلى قانون الجاذبية، واكتشاف الكهرباء وتسخير الهواء أم أنه عرفها بعد أن كان جاهلاً بها؟ لا شك أنه عرفها بعد جهل. أفيستكثر بعض قصّار النظر أن تفتح للرسل أبواب العلم والنور من الله تعالى؟ هل يعظم على الله تعالى أن يوحي إلى رسول يختاره من البشر، وهو سبحانه قد عرف الفئام والسوقة ما كانوا جاهلين به؟.

وبعد هذا البيان الناصع يأتي الحسم.. ﴿قلِ الله ثم ذَرْهُم في خوضِهِم يلعبونَ﴾... وتعود إلى الجد واليقين فتحدث عن كتاب الله القرآن..

(١) ولذا فلا مجال لقول من يقول إن موسى خاتم النبيين أو لا نبي بعد عيسى ابن مريم، إذ لم يرد في شرعهم ما يثبت بل ظلت النبوة ممتدة من عهودهم إلى أن أُرسل محمد ﷺ، ولذا فقد اعتبر من الكافرين كل من يؤمن بنبي دون نبي، وذلك مع اعترافه بأصل القضية وهي إرسال الرسل من البشر.. لأنه حينئذ قد ناقض نفسه في قضية واحدة فقبل بعضها وأعرض عن بعض ـ فمثله حينئذ كمثل من يؤمن بفرضية الصلاة ولكنه ينكر السجود في الركعة الأخيرة منها..

آمنوا به فلم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية فإنهم لما عرفوا نبوته، وأنه لا بد من متابعته أو متابعة اليهود والنَّصارى عرفوا أن متابعته أولى[(١)].

ومن كان من أهل الكتاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعناداً، وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرِئُوا أخبار محمد وما جاء به خالين من الهوى، بخلاف من لم يكن له كتاب فإنَّه نظر في الأمرين نظر خال، فعرف فضل ما جاء به محمد على ما جاء به غيره، ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها يعرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى إلا رجَّحت دين المسلمين، كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتاب لها، فأهل الكتاب مقرُّون بالجنس منازعون في العين. والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء فإنَّما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة. هذا هو الذي يجب القطع به، ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم، فيقال: قالت الأنبياء والفلاسفة واتفقت الأنبياء والفلاسفة[(٢)].

والمقصود هنا الكلام على النُّبوَّة[(٣)]، فهؤلاء المتفلسفة ما قدَّروا النبوة

---

(١) لكمال نبوته ﷺ فقد جمع فيها أصول الشريعة الإلهية من لدن آدم عليه السلام.

(٢) أي إنهم اعترفوا بصفات الأنبياء وجعلوها حظاً مشتركاً بين الأنبياء والفلاسفة. وقول الشيخ «. . . والمتفلسفة ـ من اليونان والهند ـ منازعون في وجود كمال الجنس» معناه إنهم لا يعترفون بوجود نوع كامل يختص بالنبوة دون غيرهم.

(٣) إن الرسالة عند الفلاسفة ليست بإرسال، بل بخواص ثلاث:

الأولى: أن يكون مطلعاً على الغيب لصفاء جوهر نفسه وشدة اتصاله بالمبادىء العالية من غير سابقة كسب وتعليم.

الثانية: القدرة على التصرف في هيولى العناصر وإظهار خوارق العادات.

الثالثة: أن يشاهد الملائكة على صور متخيلة ويسمع كلامهم بالوحي.

ويرد على ذلك بإن الاطلاع على الغيب إن أرادوا كل الغيب فليس شرطاً أن يطلع النبي على كل الغيب، وإن أرادوا «على بعض الغيب» فلا يكون ذلك خاصة للنبي إذ يجوز لأي أحد أن يطلع على بعض الغائبات من دون سابقة تعليم وتعلم بل بإلهام من الله.

وإما القدرة على التصرف في هيولى العناصر فليست مختصة بنبي لأنهم يعترفون بأن مادة العناصر مطيعة لغير الأنبياء. والخاصة الثالثة: بأنها غير متحققة لأنهم ينكرون الملائكة. (راجع مطالع الأنظار لشمس الدين الأصفهاني). وقول الفلاسفة باكتساب النبوة من المسائل التي كفروا بها إذ يلزم عليه تجويز نبي بعد نبينا محمد ﷺ أو معه وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة.

حقَّ قدرها، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم، وابن عربي وابن سبعين ضلُّوا بهم، فإنَّهم اعتقدوا مذهبهم وتصوَّفُوا عليه، ولهذا يقول ابن عربي: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، وإن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَكُ، الذي يوحى به إلى الرسول، فإنَّ الملك عنده هو الخَيَالُ الذي في النفس، وهو جبرائيل عندهم، وذلك الخيال تابع للعقل، فالنَّبيُّ عندهم يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه. ولهذا يقولون: إنَّ موسى كُلِّمَ من سماءِ عقله، والصوت الذي سمعه كان في نفسِهِ لا في الخارج، ويدَّعي أحدهم أنَّه أفضل من موسى، وكما ادَّعى ابن عربي أنه أفضل من محمد، فإنَّه يأخذ عن العقل الذي يأخذ منه الخيال، والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النَّبيُّ، فلهذا قال: فإنَّه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَكُ الذي يُوحَى به إلى النَّبيِّ، قال: فإنْ عرفتَ هذا فقدْ حصَلَ لكَ العلمُ النَّافعُ[1].

هذا هو مجمل نظرة الفلاسفة ومن ذهب مذهبهم في أمر النُّبوَّة!؟..

---

(١) النبوات: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / ٢٨٠ ـ ٢٨١.

البحث السادس

طريقة الفلاسفة في النظر إلى النُّبوَّة

الفلسفة اليونانية وما تفرع عنها عمل بشري ناقص لا يؤمنَ على متبعه الضلال.

وليس هدفي في هذا البحث تتبع مسائل الفلسفة والردَّ عليها، لأنَّ ذلك يستغرق بحثاً كاملاً، ولكن سلكتُ في هذا الفصل مسلكي في الفصل السابق، فبنيت الكلام على ما يلي:

١ ـ ذكرت طريقة الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود.

٢ ـ ذكرت أهم مميزات هذه الطريقة وهي:

أ ـ جواز أن يكون الممكن قديماً على طريقتهم.

ب ـ طريقتهم لا تفيد علماً ولا عملاً.

جـ ـ طريقتهم تناقض التوحيد.

د ـ طريقتهم غير عملية وليس لها رسالة في الأرض.

هـ ـ طريقتهم التبس فيها الحق بالباطل.

طريقة الفلاسفة: اختلفت طريقة الفلاسفة السابقة بأمور وهي:

أ ـ جواز أن يكون الممكن قديماً:

على طريقة الفلاسفة يجوز أن يكون الممكن قديماً لقولهم بقدم مادة العالم عليه وبزعمهم أن الفلك واجب بنفسه وأن حركته إنما هي للتشبه بعلته

الغائية، معتبرين أن الله سبب وعلة أولى لغيره والعلة مماثلة للمعلول، وبالتالي أدى بهم قولهم هذا للقول بقدم العالم وأزليته، ومن هذه النقطة انبثقت معظم آرائهم التي كفَّرهم بها أهل السنة.

وقد بيَّن أبو حامد الغزالي كفرهم في عدة مسائل منها: قولهم بقدم العالم وأزليته وإنكارهم علم الله بالجزئيات وإنكارهم المعاد، كما أنه فسَّقهم وبدَّعهم في مسائل كثيرة مستدلاً بذلك على فساد طريقتهم في الاستدلال وأنهم لم يستطيعوا إقامة دليل صحيح على وحدانية الله تعالى، لأنهم قالوا بنظرية الفيض والتكثر ويعنون بها: أن الله صدر عنه العقل الأول، وهذا صدر عنه العقل الثاني وهكذا إلى العقل العاشر الذي هو العقل الفعال في عالمنا.

وهذا المسلك هو ما يسمونه بالطريق التصاعدي حيث يبحثون الأمور الطبيعية ثم يصعدون منها إلى الأفلاك ثم إلى العقول العشرة ثم إلى واجب الوجود.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية فساد طريقتهم هذه، وأنهم بزعمهم صدور العقل والنفس عن الله أشد كفراً ممَّن نسب له البنين فيقول: والذين قالوا إن العقول والنفوس صدرت عنه، خرقوا له بنين وبنات بغير علم، فإن أولئك لم يكونوا يجعلون شيئاً من البنين والبنات مبدعة لكل ما سواه، وهؤلاء يجعلون أحد البنين وهو العقل أبدع كل ما سواه، ويجعلون العقل كالذَّكر والنفس كالأنثى، وهذا ما صرحوا به وكانت العرب تقرُّ بأنه خلق السماوات والأرض وأحدثهما بعد أن لم تكونا ولم يكونوا يقولون إنها قديمة أزلية معه لم تزل معه.

ب ـ طريقتهم لا تفيد علماً ولا عملاً:

يسلك الفلاسفة في طريقتهم أقيسة عديدة كلها لا تليق بحق الله تعالى مثل قياس التمثيل والاستقراء والشمول، لأن القياس التمثيلي الذي يستدل فيه بأحد الجزأين على الآخر، والقياس الاستقرائي الذي يستدل فيه بالجزئي على الكلي، والقياس الشمولي الذي يستدل فيه بالكلي على الجزئي، كلها لا تدل إلا على قدر مشترك ولا تدل على شيء معين، والله تعالى لا يجوز أن يدخل

هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها أو يستوي فيها الأصل والفرع، لذلك كانت هذه الأقيسة المستعملة أضعف الطرق لأنها لا تثبت إلا وجوداً واجباً بقضايا كلية لا تدل على الله بعينه، إذ أن الكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، والعلم بالخالق ليس موقوفاً على هذه الأقيسة بل بالآيات الدالة على معين لا شركة فيه.

وقد اعترف كثير من الفلاسفة بأنهم لا يصلون في العلم الإلهي إلى اليقين، وإنما يتكلمون فيه بالأَوْلى والأَحْرى، فكان هذا الاعتراف شهادة على أنفسهم أن طريقتهم لا تفيد علماً ولا تقيم دليلاً على واجب الوجود، وقد اعترف الرازي بعد استعراضه لأدلة القائلين بقدم العالم والقائلين بحدوثه أنه لم يترجح عنده شيء، وعليه يجوز حدوث كل قائم بنفسه أو قِدم كل حادث.

وقد ذمَّ الغزالي طريقتهم أكثر من طريقة المتكلمين معترفاً أنه لم يحصل له مقصوده منها لأن كلامهم في الإلهيات تخميني نظري لا يقيني وقد كان الخسرو شاهي يقول: والله ما أدري ما أعتقد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الإلهيات فكلِّياتهم فيها أفسد من كليات الطبيعة، وغالب كلامهم ظنون كاذبة فضلاً عن أن تكون قضايا صادقة يؤلف منها البرهان، ولذا حدَّثونا عن فاضل زمانه في المنطق وهو الخونجي صاحب كشف أسرار المنطق والموجز، وغيرهما أنه قال عند الموت: أموت وما عرفت شيئاً إلاً علمي بأن الممكن يفتقر إلى المؤثر، ثم قال: الإفتقار وُصف سلبي فأنا أموتُ وما عرفتُ شيئاً.

ج ـ طريقتهم تُناقض التَّوحيد:

مذهب أرسطو ومن تأثر به ـ أن الإلٰه الكامل المطلق لا يعقل إلا ذاته ويتنزه عن الإرادة والعمل وعلم الكليات والجزئيات التي هي من علم عقول البشر، وقد أمعن كثير من الفلاسفة في التنزيه حتى جعلوا كل صفات الإله سلوب محضة وأنكروا صفة الوجود لمقابلتها للعدم واشتراك الموجودات جميعها في صفة الوجود، لذلك وجود الرب عندهم وجود مطلق وهو غير مباين للعالم ولا يشار إليه، وما قالوه ليس له حقيقة في الخارج إلا في

الأذهان، وهو غاية الكفر، فتوحيد هؤلاء هو غاية الإلحاد والتعطيل والجحد والكفر، وفروع هذا التوحيد إنكار ذات الرب والقول بقدم الأفلاك وأن الله لا يبعث من في القبور وأن النبوة مكتسبة وأنها حرفة من الحرف كالولاية والسياسة، وأن الله لا يعلم عدد الأفلاك ولا الكواكب ولا يعلم شيئاً من الموجودات المعينة ألبتة، وأنه لا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم ولا شق الأفلاك ولا خرقها، وأنه لا حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي ولا جنة ولا نار فهذا توحيد هؤلاء.

د ـ طريقة الفلاسفة غير عملية وليس لها رسالة في الأرض:

طريقة الفلاسفة ذهنية مجرَّدة لا تفيد العمل وليس لها رسالة في الأرض، لأنها تحصر العقل ضمن مفاهيم معينة ومقررات سابقة من صنع الفكر البشري، وتحاول تطبيق هذه المفاهيم على العقيدة، ولا يعنيها، بعد ذلك، آمن الناس أو لم يؤمنوا، وسالكوها يبحثون في الإلهيات بحثاً مجرَّداً منتظرين ما يؤدي إليه البرهان ولا يهمهم ماذا تكون النتيجة.

إنَّ هذه الطريقة لا تعدو أن تكون بحثاً عقلياً صرفاً ورياضة ذهنية ليس بينها وبين واقع الحياة صلة، ولا تطلب عملاً معيناً من أتباعها، كعبادة الله تعالى، لأنها لا تؤمن بجنة أو نار، ولذلك كانت هذه الطريقة لا توصل إلى التوحيد الحقِّ، ومن ادَّعاه في الفلاسفة فتوحيده ناقص، بل المشركون أقروا بتوحيد الربوبية، وهؤلاء نسبوا الخلق إلى العقل الأول.

هـ ـ طريقتهم الْتَبَسَ فيها الحقُّ بالباطل:

طريقة الفلاسفة لاَ تفرِّق بين الحقِّ والباطل، وأهل الفلسفة أعظم الناس افتراقاً واختلافاً مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله حقٌّ مقطوع به قام عليه البرهان، وقد ذمَّ السلف الصالح رضي الله عنهم هذه الطريقة وحذَّروا منها، وأما سالكوها فمنهم من ندم لسلوكها بعد أن خاض لجَّتها وكَشف مآسيها وعرف كفرها وبعضهم حاول التوفيق بينها وبين الدين، وهؤلاء خطرهم أعظم وجرمهم أكبر، لأن هذه المحاولة لم تفد الإسلام وفيها تمويه على المسلمين حتى لا يعرفوا الفكر الإغريقي على حقيقته الكاذبة، وذلك بشرحهم العقيدة

الإسلامية شرحاً فلسفياً وإمالة الفكر الإغريقي نحو العقيدة لصهر الطرفين في بوتقة واحدة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وحينئذٍ فيمتنع أن تكون طريقتهم مميزة للحق من الباطل والصدق من الكذب باعتبار ما هو الأمر عليه في نفسه، ويمتنع أن تكون منفعتها مشتركة بين الآدميين بخلاف طريقة الأنبياء فإنهم أخبروا بالقضايا الصادقة التي تفرِّق بين الحق والباطل والصدق والكذب، فكل ما ناقض الصدق فهو كذب وكل ما ناقض الحق فهو باطل، فلهذا جعل الله ما أنزله من الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأنزل أيضاً الميزان وهو ما يوزن به ويعرف به الحق من الباطل ولكل حق ميزان يوزن به بخلاف ما فعله الفلاسفة المنطقيون فإنه لا يمكن أن يكون هادياً للحق ولا مفرقاً بين الحق والباطل ولا هو ميزان يعرف به الحق من الباطل.

البحث السابع

طريقة الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود

يتَّبع الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود طريقة الإمكان والوجوب فيقولون بأن كل ما كان ممكن الوجود والعدم لم يوجد منذ الأزل، لأنه يعلم بالضرورة أن حالة الإمكان المحض ـ أي العدم ـ سابقة على مرحلة الوجود الفعلي لهذا الممكن، فلما كان كل موجود نراه ممكناً، فقد وجب أن تكون حالة العدم والإمكان المحض سابقة لجميع الموجودات، وعليه فإن الممكن لا يوجد كائناً غيره علوياً أو سفلياً، ولما كانت حالة العدم وإمكان الوجود سابقة لجميع الموجودات فقد وجب أن يكون موجوداً سابقاً لحالة العدم هذه، ووجوده واجب وهو الإلٰه.

وبعضهم يقول بأننا إذا نظرنا إلى الموجودات من حولنا فإننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأشياء تنعدم بعد وجودها، وهذه الأشياء لا تخرج عن كونها مستحيلة الوجود أو ممكنة أو واجبة، والقول باستحالتها باطل لأنها موجودة، ووجوب وجودها باطل كذلك لأن الواجب لا يعدم، فبقي أنها ممكنة الوجود، والممكن محتاج إلى سبب لوجوده وهذا السبب لن يكون عين الشيء الممكن ولا جزأه لاستلزام تقدم الشيء على نفسه، فوجب أن يكون هناك سبب وراء الممكنات كلها وهو واجب بنفسه يمنح الممكنات وجودها وهذا الواجب الوجود هو: الله.

وبعض الفلاسفة يسلك للتدليل على واجب الوجود طريقاً آخر فيقول: كل ممكن فهو معلول قطعاً، والمعلول لا بُدَّ له من علة أولى لا يتطرق إليها الإمكان ويجب وجودها بنفسها، وهذه العلة الأولى هي: الإله.

ونلاحظ أنَّ كل هذه الاستدلالات على وجود الله عند الفلاسفة مرجعها إلى الإمكان والوجوب، وملخصها: أنَّ الموجود إمَّا أن يكون واجباً أو ممكناً، والممكن محتاج إلى مؤثر واجب أوجده وإلا لزم الدور والتسلسل فثبت أن الممكن وجوده بغيره، والواجب وجوده بذاته وهو السبب الأول لجميع الممكنات الموجودة والعلة الأولى لكل المعلولات.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الفلاسفة إذا قالوا بإمكان الموجودات ـ والعالم كله ممكن الوجود ـ فإنما يعنون أن لهذا العالم مادة قديمة أزلية وجودها متقدم على وجود العالم وهي ما يسمونها الهيولى، هذه الهيولى معلولة عن العلة الأولى بشكل حدوث ذاتي، وهي تتحرك للتشبه بهذه العلة، فالعلة الأولى لغيرها وهي آمرة للفلك بالتحرك للتشبُّه بها كما يتحرك العاشق نحو المعشوق وحدوثه عنها حدوث ذاتي لا حدوث زماني.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمعنى الثالث الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا وأمثاله قالوا: نقول العالَم محدَث أي معلوم لعلة قديمة أزلية أوجبته فلم يزل معها، وسموا هذا الحدوث الذاتي وغيره الحدوث الزماني، والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعنى لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى والقول بأن العالَم محدَث بهذا المعنى فقط ليس من قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ولا أمة من الأمم العظيمة...».

هذا هو ملخص استدلال الفلاسفة على وجود «واجب الوجود» كيف ابتدعوه استغناءً عن طريقة الأنبياء عليهم السلام في إثبات وجود الله تعالى، بل في إثبات وحدانية ألوهيَّته عزَّ وجلَّ وهذا يدلُّ على مخالفتهم لطريقة الرسل في إثبات العقيدة والإيمان عموماً، ومخالفة رسول الله ﷺ خصوصاً في طريقته وسنته وهديه ﷺ.

ولهذا كان التحذيرُ من خطورة مناهج الفلاسفة واجباً، وقايةً للأمَّة من خطر الضلال الفكري والاعتقادي.

فالواجبُ على كل مسلم إثباتُ عقيدته وإيمانه على منهج القرآن والسنة، على طريقة سلف الأمة، من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين.

الفصل السابع

طرق إثبات أحاديث النُّبوَّة وأخبارها

وهو يشمل ثمانية أبحاث بعد التمهيد ومدخله، والتعريف بالسُّنَّة:

البحث الأول : شروط راوي الحديث النَّبوي.

البحث الثاني : طرق معرفة أهلية الراوي.

البحث الثالث : الشروط المعتبرة في متن الحديث.

البحث الرابع : أدلَّة إفادة خبر الواحد الثقة العلم.

البحث الخامس : الحجة في أنَّ خبر الواحد الثقة يُفيد العلم بالقرائن وبيان أنواع القرائن.

البحث السادس : حُجَّة من زعم أن الأحاديث الصحيحة الآحاد لا تفيد إلاَّ الظَّنَّ ومناقشة شبههم.

البحث السابع : أدلة قبول الآحاد في العقائد إذا وردت عن طريق الثقات العدول الضابطين عن مثلهم إلى رسول الله ﷺ.

البحث الثامن : شُبَه المخالفين ومناقشتها.

التمهيد

الرسول مبلّغ عن الله تعالى فيما جاءنا به من كتاب وسنّة

لمَّا كان رسول الله ﷺ مبلِّغاً عن الله تبارك وتعالى كان جميعُ ما جاءنا به من الكتاب والسُّنَّة، مُتلَقَّىً عنه سبحانه؛ فجميعُهُ وحيٌ، قال الله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوَى * إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحَى﴾[1]، وهذا الوحي منقسمٌ إلى وحي منزَّلٍ مُتعبَّدٍ بتلاوته، «وهو القرآن الكريم»، وإلى وحي مُبَيِّنٍ ومُفَصِّلٍ لآياتَ القرآن عقيدةً وشريعةً، مُتَعَبَّدٌ به اعتقاداً وعملاً، «وهو السُّنَّة النَّبويَّة»!!.

هذا، وقد جاءت آيات القرآن في العقيدة والشريعة مجملةً، فكان بيانُها موكلاً إلى رسول الله ﷺ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وما أنزلنَا عليك الكتابَ إلاَّ لتبيِّنَ لهُمُ الَّذي اختلفُوا فيه﴾[3] وقد امتثلَ رسول الله ﷺ هذا الأمرَ من الله تعالى، فبيَّنَ للنَّاس بسنَّتِهِ مجملَ آياتِ العقيدةِ والشريعة، وبهذا أصبحت أحاديث السُّنَّة النَّبويَّة بياناً للقرآن الكريم، وإيضاحاً لمجمله، وتقييداً لمطلقه، ونحو ذلك.

وقد أوجب الله تعالى طاعةَ رسوله ﷺ واتِّباعَ سنَّته، قال سبحانه: ﴿وأطيعوا الله وأطيعُوا الرسولَ واحْذَرُوا فإن تَولَّيتُمْ فاعلموا أنَّما على رسولنَا

(١) سورة النجم، الآيتان ٣ ـ ٤.
(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.
(٣) سورة النحل، الآية ٦٤.

البلاغُ المبين﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أطيعُوا الله وأطيعوا الرسولَ فإنْ تولَّوْا فإنَّما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلتُمْ وإنْ تُطيعُوه تهتدوا وما على الرسول إلاَّ البلاغُ المبين﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا تُبْطِلُوا أعمالَكُم﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ فإن تولَّيتُمْ فإنَّما على رسولنا البلاغُ المُبين﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذُوهُ وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[5]، فهذا أمرٌ بوجوبِ طاعةِ رسولِ الله ﷺ في سنَّتهِ النَّبويَّة.

(١) سورة المائدة، الآية ٩٢.

(٢) سورة النور، الآية ٥٤.

(٣) سورة محمد، الآية ٣٣.

(٤) سورة التغابن، الآية ١٢.

(٥) سورة الحشر، الآية ٧.

المدخل

ثبوت حفظ الله تعالى لسنة رسوله ﷺ

مِنَ الثابت المقطوع به ـ الذي لا يَسَعُ المؤمن بحالٍ إنكاره ولا التردُّد في ثبوته ـ أنَّ كلاً من الكتاب والسُّنَّة «وحيٌ من عند الله» ودليل على حكمِ الله تعالى فيما ارتضاه لنا عقيدةً وشريعةً؛ فما عُرِفَتِ العقيدةُ ولا الشريعةُ إلاَّ عن طريقهما، فليس بعجيب أن يجعل الله تعالى الرعايةَ والحفظَ والصَّوْنَ لسنَّة رسوله ﷺ مع كتابه الكريم وقرآنه الحكيم!!

فكما أنَّ الله تعالى قد تكفَّلَ بحفظ قرآنه المجيد، كذلك قد تكفَّل، بحفظ بيَانِهِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نحنُ نزَّلنَا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافِظُون﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وأَنْزَلْنَا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾[2]، فكان من المستحيل أن يحفظ الله تعالى الذكرَ ولا يحفظُ بيانَهُ الذي هو وحيٌ من وحيِهِ سبحانه!!

فحفظ القرآن متوقف على حفظ السُّنَّة؛ لأنَّ فيها بيانَ القرآن وتفصيلَهُ، فَصَوْنُ القرآنِ مستلزمٌ لصونها؛ بما أنَّها حصنُه الحصين، ودرعهُ المتين، وحارسُه الأمين، وشارحُهُ المبين: تفصِّلُ مجمله، وتفسِّرُ مشكله، وتُوضِّحُ مبهمه، وتقيِّد مُطلقَهُ، وتُبسط مختصَرَهُ، وتدفع عنه عَبَثَ العابثين، ولهوَ اللاَّهين، وتأويل الغالين، فحفظُ السُّنَّة من أسباب حفظ القرآن، وصيانتُها صيانةٌ له!!.

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

نعم! لقد حفظ الله تعالى سنَّةَ رسوله ﷺ كما حفظ قرآنَهُ، فلم يذهب عن الأُمَّة منهما شيءٌ، وإنْ لم يستوعبْهُمَا كلُّ فردٍ من علمائها على حِدَةٍ.

وكما قيَّضَ الله تعالى لكتابه العزيز العددَ الكثير والجمَّ الغفير من الحفظة الضابطين والقرَّاء المتقنين في كل قَرْنٍ؛ لينقُلُوه كاملاً من السَّلف إلى الخلف؛ كذلك قيَّضَ الله تعالى للسنَّة النَّبويَّة الشريفة مثلَ هذا العدد الكثير والجمِّ الغفير من الحفاظ الثقات والمحدِّثين المتقنين، فقصَروا أعمارهم الطويلة على تلقيه وحفظه وجمعه والبحث والتنقيب عن صحيحه، ثم تدوينه وتصنيفه، ثم روايته وإملائه، وذلك على مدى القرون الغابرة إلى أن وصلنا اليوم صحيحاً سليماً ومحفوظاً مصوناً، كما نطق به رسول الله ﷺ!!

ونتيجةً لتلك الجهود الكبيرة التي بذلها جهابذة الحفاظ والمحدِّثين، لحفظ حديث رسول الله ﷺ، كان «علم رواية الحديث ودرايته سنداً ومتناً».

وفي هذا الفصل بيانٌ لطرق إثبات أحاديث النُّبوَّة وأخبارها، وهو واجب من الواجبات التي فرضها الله تعالى على العلماء وطلبة العلم خصوصاً، وعلى جميع المسلمين عموماً أن يعلموها مفصَّلةً أو مجملةً، كلٌّ حسب اختصاصه واهتمامه، ومدى تحصيله، وسعة اطِّلاعه.

واللَّهُ تعالى الموفِّقُ لمرضاته وطاعته ورضوانه.

تعريف بالسُّنَّة النَّبوية

السنَّة في اللغة العربية هي الطريقة والأسوة الحسنة، أو السيئة. وفي هذا المعنى روى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: (مَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً، فله أجرُها وأجرُ مَن عملَ بها بعدَه، من غير أن ينقصَ من أجورِهم شيءٌ، ومَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً كان عليه وزرُها ووزرُ مَن عملَ بها مَن بعدَه، من غير أن ينقصَ من أوزارهم شيءٌ)[1].

والسنَّة في القرآن الكريم هي التطبيق العملي للقرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿لقدْ كانَ لكُمْ في رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كانَ يرجُو الله واليومَ الآخرَ وذكرَ الله كثيراً﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿وأنَّ هذا صِراطي مُسْتقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُمْ عن سبيلِهِ﴾[3].

وبهذا المعنى اقترنت السنّة بالكتاب، فكان التمسك بها كالتمسك بالقرآن وهجرها هجر له، قال تعالى: ﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بعدِ ما تبيَّنَ لهُ الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نُوَلِّهِ ما تولَّى ونُصْلِهِ جهنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً﴾[4].

وبهذا، فالبدعة هي أن يدخل المسلم على الدين ما ليس منه، وفي هذا روى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: (مَنْ عملَ عملاً ليسَ عليه أمرُنَا فهو

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة ـ باب ـ ٢٠/ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٤) سورة النساء، الآية ١١٥.

رَدٌّ)[1]، وفي رواية البخاري: (مَنْ أحدثَ في أمرِنَا هذا ما ليسَ منهُ فهو رَدٌّ)[2].

كما روى الإمام مسلم أنه ﷺ قال: (فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)[3].

والسُّنَّة النبوية عند علماء الأصول هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

والسُّنَّة بهذا تكون مع القرآن الكريم المصدر الأساسي للتشريع الإسلامي، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿فإنْ تَنازَعْتُم في شيءٍ فردُّوهُ إلى الله والرسولِ إنْ كنتُمْ تؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ﴾[4].

لما كان ذلك كذلك فإنه ليس بمسلم من رد السنَّة النبوية حتى لو زعم أنه يؤمن بالقرآن الكريم ويعمل به، لأن رد السنَّة تكذيب لدعواه الإيمان بصدق القرآن، لأن الله يقول: ﴿فلا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحكِّمُوكَ فيما شجَرَ بينَهُمْ﴾[5]، والمؤمن لا يمكن أن يتلمس من القرآن ما يظن أنه يناقض بعضه أو يناقض سنَّة النبي لأن الله تعالى يقول: ﴿إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى﴾[6]. وقد روى أحمد وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: (سمع النبي قوماً يتدارؤون[7] في القرآن فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تذكبوا بعضه ببعض فما علمتم به فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه).

إن الذين يردون السُّنَّة النبوية في عصرنا قد يقولون إنهم لا يردون إلاّ

(١) صحيح مسلم: كتاب الأقضية ـ باب ٨.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلح ـ باب ٤.
(٣) صحيح البخاري: كتاب الجمعة ـ باب ١٣.
(٤) سورة النساء، الآية ٥٩.
(٥) سورة النساء، الآية ٦٥.
(٦) سورة النجم، الآية ٤.
(٧) يتدافعون في الخصومة في فهم القرآن.

السنَّة التي لم ترد في القرآن الكريم، وهؤلاء قد أخبر عنهم النبي ﷺ وذلك في حديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ونصه (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلاَّ أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه (أي يستضيفوه) فإن لم يقروه فله أن يُعقبهم بمثل قراه[1] أي يرجع عليهم).

فالقرآن والسنة كلاهما من عند الله تعالى والرسول ليس إلاَّ مبلغاً وقد عصمه الله من الخطأ في التبليغ إذ قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ وإنْ لم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالَتَهُ والله يعصمُكَ مِنَ الناسِ﴾[2].

إن الإجماع منعقد على أن من رد السنَّة النبوية فقد ارتد عن الإسلام، وفي هذا قال الفقيه ابن حزم الأندلسي: «لو أن أمرءاً قال: لا نأخذ إلاّ بما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة»[3].

إن الله الذي عصم النبي في أداء الرسالة قد تعهد بحفظها فقال: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنَا الذكرَ وإنَّا له لحافظونَ﴾ ولهذا كان الوحي يستدرك على الرسول إن اجتهد قبل أن ينزل الوحي. وفي هذا روى الترمذي وأحمد ج١/ ٣٨٣/ بإسناد فيه ضعف[4] عن ابن مسعود قال: «لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر، يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر بن الخطاب يا رسول الله كذبوك فاضرب أعناقهم، ولم يرد عليهم شيئاً. فقال أناس يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس يأخذ برأي عمر. فخرج رسول الله ﷺ فقال: (إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله يشدد قلوب رجال

---

(١) الحديث رواه أبو داود كما أخرجه بسياق آخر الترمذي في باب العلم وابن ماجه في المقدمة حديث رقم ١٢ المرجع سنن أبي داود لشرح الخطابي جـ ٥ ص ١٠ وانظر التاج الجامع للأصول جـ ١ ص ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ ١ ص ١٠٩.

(٤) ضعيف سنن الترمذي برقم ٢٨٨/ .

حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فمنْ تبعَني فإنَّهُ منِّي ومَنْ عصاني فإنَّكَ غفورٌ رحيمٌ﴾[1] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إنْ تعذِّبْهُم فإنهم عبادُكَ وإنْ تغفرْ لهم فإنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾[2] ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿ربَّنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبِهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليمَ﴾[3] ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرينَ دَياراً﴾[4]) ثم قال ﷺ: (أنتم عالة أي (فقراء) فلا ينفلتن من الأسرى إلاَّ بفداء أو ضرب عنق)، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرىٰ حتى يُثْخِنَ في الأرضِ تريدونَ عرضَ الدنيا والله يريدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيمٌ * لولاَ كتابٌ من الله سبقَ لمسَّكُم فيما أخذتُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾»[5].

وبهذا عصم الله الرسالة من الخطأ في الاجتهاد وأنزل القرآن بهذه الحقيقة.

كما اجتهد ﷺ في إعراضه عن ابن أم مكتوم، وهو الأعمى الذي جاءه وهو مشغول بعرض الإسلام على زعماء قريش وفيهم أبو جهل وعقبة بن ربيعة، حسبما رواه الترمذي والحاكم وابن حبان عن عائشة، وقد كان النبي يرجو إيمانهم فنزل قول الله تعالى: ﴿عبسَ وتولَّى * أن جاءَهُ الأعْمى * وما يُدريكَ لعلَّه يزَّكَّى * أو يذَّكَّر فتنفعَهُ الذِّكرى * أما مَنِ استغنى * فأنتَ له تصدَّى * وما عليكَ ألاَّ يزَّكَّى * وأما مَنْ جاءكَ يسْعَى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهَّى﴾[6].

إن الله الذي حفظ القرآن والسنَّة هو المدافع عمن تمسك بهما إذ قال تعالى: ﴿إنَّ الله يدافعُ عنِ الذينَ آمنوا، إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ كَفُورٍ﴾[7].

ولقد تكفل الله بنصرة الذين ينصرون الإسلام الممثل في القرآن والسنّة،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية ١١٨.
(٣) سورة يونس، الآية ٨٨.
(٤) سورة نوح، الآية٢٦.
(٥) سورة الأنفال، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.
(٦) سورة عبس، الآيات ١ ـ ١٠.
(٧) سورة الحج، الآية ٣٨.

قال تعالى: ﴿إنْ تنصرُوا الله ينصركُم ويثَبِّت أقدامَكُم﴾[1].

لقد هزم الله المسلمين الذين هزموا الإسلام في أنفسهم وأهليهم وبلادهم وهزم الذين أضعفوا السنَّة النبوية وإن صلُّوا وصاموا وتبتلوا!!

نزول الوحي بالسنة:

وكما نزل الوحي بالقرآن فقد نزل بالسنة وأخذ صوراً متعددة نذكر منها:

١ ـ النفث في الروع، أي إلقاء المعنى في قلب النبي الذي قال: (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس تستوفي رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم)[2].

٢ ـ نزول جبرائيل في صورة بشر يسأل النبي ليعلِّم الناس ويتعلموا، وفي هذا روى مسلم والبخاري في كتاب الإيمان أن النبي أتاه رجل سأل عن الإيمان والإسلام والإحسان ثم خرج فقال (ردُّوه) فلم يَرَوا شيئاً فقال النبي (هذا جبرائيل جاء يعلم الناس دينهم).

٣ ـ نزول جبرائيل في صورته الملائكية، وفي هذا روى البخاري ومسلم أن النبي قال: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالساً على كرسي بين السماء والأرض).

٤ ـ نزول الوحي في صورة غير مرئية ولكن توجد أمارات تدل عليه، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم في كتاب الحج أن النبي ﷺ كان بالجعرانة ومعه نفر من أصحابه فسأله رجل: «كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب» فسكت النبي ساعة فجاءه الوحي فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط ثم سُرِّيَ عنه فقال: (أين الذي يسأل عن العمرة)؟ فأُتي برجل فقال النبي: (إغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات وانزع عنك الجبة واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك)[3].

---

(١) سورة محمد، الآية ٧.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج٢/ ١٨٥ وله طرق يُقوّي بعضُها بعضاً.

(٣) اللؤلؤ والمرجان جـ ١ ص ١٥ حديث ٧٣٣.

أنواع السُّنَّة ووظيفة الرسول ﷺ:

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على خاتم النبيين ليكون معجزة للناس جميعاً إلى يوم القيامة، فهو معجز في كلماته ومعجز في الحقائق والمعاني التي تضمنها في هذه الكلمات.

ومن قبيل الإعجاز في المعنى أن الله تعالى قد قال: ﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنَّا لموسعونَ﴾[1].

وفي السنوات الأخيرة من هذا القرن فقط أثبت العلماء أن قوة الجاذبية بين أجزاء الكون تقل بالتدريج بسبب تباعدها واتساعها.

وأيضاً قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يرَ الذينَ كفروا أنَّ السمٰواتِ والأرضِ كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجعلنا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾[2].

وفي السنوات الأخيرة فقط اكتشف العلماء أن مادة الكون كانت جامدة ثم حدث فيها انفجار شديد. ولقد تطرق العالم الفرنسي موريس بوكاي إلى الحقائق العلمية الواردة في القرآن الكريم كخلق الجنين وتطوره وما يتعلق بالسمٰوات والأرض وما يتعلق بالنبات والإنسان وانتهى في كتابه «الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث»، إلى أن كل ما جاء به القرآن يتفق تماماً مع ما توصل إليه العلم الحديث.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول مبلغاً لهذا القرآن ومنفذاً لأحكامه، ومن ثم جعل الله للنبي صفة أخرى غير التبليغ وهي التبيان ﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإنْ لم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالَته، والله يعصمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[3]، كما قال تعالى: ﴿وما أرسَلْنا منْ رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[4]، كما قال تعالى: ﴿وأنزلْنا إليكَ الذكرَ لتبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ ولعلَّهُم يتفكَّرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٤) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٥) سورة النحل، الآية ٤٤.

وصفة البيان كما تكون بإبلاغ القرآن للناس كافة، تكون بتفصيل أحكامه العامة وتنفيذها، ولهذا وردت الآية بطاعة الله في أحكامه الواردة في القرآن الكريم، وبطاعة الرسول في أحكامه التي بيَّنَها وهي السنَّة النبوية.

ولهذا أوجب الله طاعةَ الرسول والتزامَ سنّته فقال عزَّ وجلّ: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكُمْ عنهُ فانتَهُوا﴾[1].

من أجل ذلك أوضح النبي ﷺ أن السنّة من الله تعالى وهي مثل القرآن إذ يقول في الحديث الصحيح (إنِّي أُوتِيتُ القرآنَ ومثلَهُ معَهُ)[2].

١ ـ السنة القولية: وبيان الرسول وإبلاغه للسنَّة قد يكون بالقول مثل حديث (لا يرثُ المسلمُ الكافرَ، ولا يرثُ الكافرُ المسلمَ) رواه البخاري ومسلم وغيرهما وحديث (إيّاكم والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ) (ولا تجسَّسُوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى، المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، فحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، ماله ودمه وعرضه)، (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) رواها الإمام مسلم.

٢ ـ السنة العملية: وقد يكون البيان النبوي بالعمل كما هو الحال في الوضوء والصلاة والحج، فقد توضأ الصحابة مثل وضوئه، وصلوا مثل صلاته وفعلوا مثله في مناسك الحج وسائر الأمور العظيمة، ثم روى هؤلاء الصحابة ذلك إلى غيرهم دون بيان الركن من الشرط أو الفرض من المندوب، لأنه لا احتمال عندهم أن يترك أحدٌ شيئاً من الدِّين حتى يبحثوا عن الفرض والمندوب في أفعال النبي ﷺ، فقد قال فيما رواه البخاري: (صَلُّوا كَمَا رأَيْتُمُونِي أصلّي)، وقال كما جاء في صحيح مسلم (خُذُوا عنّي مَنَاسِكَكُم).

---

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

(٢) سنن أبي داود ٤/ ٢٧٩ وابن ماجه ١/ ٦ والترمذي ٣/ ٣٧٤ والمستدرك ١/ ١٠٩ والدارمي ١/ ١٤٠ وابن حبان (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي) تحقيق محمد عبد الرازق حمزة الحديث رقم ٩٧ ص ٥٥.

٣ ـ **السنة التقريرية**: وتكون السنَّة النبوية بتقرير حال أو السكوت عن أمر بما يدل على إقراره، ومثال ذلك أن النبي ﷺ أمر صحابته بالتوجه إلى بني قريظة لقتالهم بسبب خيانتهم في غزوة الأحزاب، وكان أمره هذا بقوله الوارد في البخاري ومسلم بلفظ: (لا يُصَلِّيَنَّ أحدُكُمُ العَصْرَ إلاَّ في بني قُرَيْظَةَ)، ولكن في الطريق أدركهم المغرب فصلاه بعضهم، لأن العلة في هذا الأمر الإسراع وليس إرجاء الصلاة عن ميقاتها، وفهم آخرون الأمر على ظاهره فالتزموا به فلا صلاة إلاَّ في بني قريظة ولو فات وقت العصر، ولما بلغ النبي ﷺ اجتهاد الطائفتين، لم ينكر على أيٍّ منهما، فدلَّ سكوتُهُ على إقرار الاجتهاد في تنفيذ الأمر.

ومن قبيل السنَّة التقريرية أيضاً ما رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والدارقطني والحاكم عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة شديدة البرودة فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسول الله ذكروا ذلك له فقال ﷺ: (يا عمرو أصلَّيتَ بأصحابِكَ وأنتَ جُنُبٌ)؟ فقلتُ: يا رسول الله ذكرتُ قولَ الله عزَّ وجلّ: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحِيماً﴾ فتيممتُ وصليتُ، فضحكَ رسولُ الله ولم يقلْ شيئاً.

بهذا السكوت أقرَّ النبي ﷺ التيمم عند الخوف من حصول ضرر من الماء إما لمرض بالجلد، أو لبرد يضر الإنسان إذا استحم بهذا الماء.

وأيضاً يستفاد من اختلاف الصحابة في فهم قول النبي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلاّ في بني قريظة) ومن اختلافهم في فهم قول الله تعالى: ﴿فإنْ لم تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا﴾ أنَّ النبي ﷺ أقرَّ كلَّ طائفةٍ على اجتهادِها في تنفيذِ أوَامِرِ الشريعة.

والاجتهاد لا يكون في أصول الدين ومصادره[1] ولا يكون جَرْياً وراء الأهواء والمصالح، ومن ثم لا يجوز تأويل الفروع ووصفها بالأصول ليكون ذلك مبرّراً للخلاف.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للإمام علي بن حزم جـ ٢ ص ٢٣٧ وما بعدها.

البحث الأول

شروط راوي الحديث النّبوّي

يجب على كل من يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ أن يَتَثَبَّتَ من رواية كلِّ خبرٍ، فليس كلُّ خبرٍ مقبولاً، وإنَّه لا بدَّ من توفر شروطٍ في السَّنَد والمَتْنِ تكون سبباً للاطمئنان إلىٰ صحة النقل، ولقد اشتهر عن الصحابة ومَنْ بعدهم التحرِّي في أخذ العلم، فقد روىٰ مسلم في مقدمة صحيحه آثاراً كثيرةً عن بعض كبار العلماء في الأمر بالتثبت في الرواية، وعدم قبول الحديث إلا من أهله المعروفين به، فمن ذلك ما رواه عن ابن سيرين قال: إنَّ هذا العلم دِيْنٌ، فانظرُوا عمَّنْ تأخذون عنه دِيْنَكُمْ. وروىٰ أيضاً عن سعد بن إبراهيم قال: لا يُحَدِّثْ عن الرسول ﷺ إلاَّ الثقات[1].

وروى البيهقي عن النخعي قال: كانوا إذا أتوا الرجلَ ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمْتِهِ وإلى صلاته وإلىٰ حاله، ثم يأخذون عنه. وروىٰ أيضاً عن ابن عمر عن عمر قال: كان يأمرنا أنْ لا نأخذ إلاَّ عن ثقة[2].

وقد روىٰ البيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً: لا تأخذوا العلم إلا ممن تقبلون شهادته[3]. ولقد اشترط الله في الشاهد أن يكون عدلاً مرضياً، قال تعالىٰ: ﴿واسْتَشْهِدُوا شَهِيْدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فإنْ لم يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ ممَّنْ ترضَوْنَ مِنَ الشُّهداء﴾[4] أي ممن يكون مرضياً في دينه وأمانته. وقال تعالىٰ:

(١) صحيح مسلم ج ١/ ٨٤، ٨٧/ .
(٢) تدريب الراوي: للحافظ السيوطي /ت ٩١١هـ/ ط مصر /ج ١ / ٣٠٠، ٣٠١/ .
(٣) تدريب الراوي: للحافظ السيوطي ج ١ /٣٠١/ .
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[1] . ولقد أفاضَ العلماءُ في كتب الفقه في صفات من يصلح للشهادة ومن لا يصلح، وهكذا أهل الحديث ذكروا شروطاً لمن يقبل خبره ويُوثق بروايته[2] والذي اتفق عليه من الشروط في الراوي أربعة[3] :

١ ـ **التكليف**: وهو أن يكون الراوي بالغاً عاقلاً عند الأداء، فلا يقبل خبر المجنون والصغير، لفقد العقل الذي يتمكَّن به من فهم ما سمعه، وهكذا خبر المميِّز والمراهق، لاحتمال كذبه، فإنَّما يزجره عن الكذبِ خوفُ العقاب، وهو آمن منه لعدم تكليفه.

وأجمعوا علىٰ قبول ما تحمَّله في الصغر ثم أدَّاه بعد تكليفه، حيث أنه حالة الأداء متَّصِف بالصفات التي تحجزه عن الكذب، فلا يخبر بشيء ألاَّ وقد تحقق صحته كسائر أخباره، وقد أجمع الصحابة ومن بعدهم علىٰ قبول أخبار ابن عباس وابن الزبير ونحوهما من أصاغر الصحابة، ولم يُفرِّقُوا في أخبارهم بين ما تحملوه في الصغر والكبر.

٢ ـ **الإسلام**: فلا تقبل رواية الكافر، كتابياً كان أو وثنياً أو دهرياً، ولو جُرِّبَ بالصدق وتوفرت فيه بقية شروط القبول، وما ذاك إلاَّ لعدم انفكاكه غالباً عن البغض للمسلمين والكيدِ لهم، ممَّا يحمله أن يُلَبِّسَ عليهم دينهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ اليَهُودُ ولاَ النَّصَارَىٰ حتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[4]، فعداوتهم لأهل الإسلام إنَّما أثارها الخلافُ في الدِّين، لمعرفتهم بأنَّ المسلمين إنَّما تغلبوا

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٢.

(٢) انظر «المغني» لابن قدامة ج ٩/ ١٦٤ ـ ١٩٣/ في صفة من تقبل شهادته / وفتح المغيث: للحافظ العراقي ج ٢/ ٢/ وتدريب الراوي ج ١/ ٢٩٩/ في صفة من تقبل روايته، وكذا مقدمة ابن الصلاح/ ١٣٦/ .

(٣) قال الحافظ السيوطي في ألفية الحديث:

لِنَاقِلِ الأخبارِ شَرْطانِ هُمَا ... عَدْلٌ وَضبطٌ أنْ يكونَ مَسْلِما
مُكلَّفاً لم يَرْتَكِبْ فِسْقاً ولا ... خَرْمَ مُرُوءَةٍ ولا مُغَفَّلاَ
يحفظُ إنْ يُمْلِ، كتاباً يضبِطُ ... إن يَرْوِ منهُ، عالِماً ما يَسْقُطُ

انظر: شرح محمد محيي الدين عبد الحميد لألفية السيوطي ص ١٤١ ـ ١٤٥ / ط محمد مصطفى: المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

وقهروهم بسبب هذا الدِّين، فلا جَرَمَ كانَ الكافرُ مَظَنَّةَ تَعَمُّدِ الكذبِ في الرواية.

أمَّا الكافر المتأوِّل كمن جحدَ شيئاً من شعائر الدِّين المعلومة من الدِّين بالضرورة، وكغُلاَةِ الجهميةِ نُفَاةِ الصِّفَات، والمُشَبِّهَة الغالين في الإثبات ـ ففي قبول خبر أحدهم خلاف، وأكثر المتكلمين علىٰ عدم القبول، وهو اختيار الآمدي[1]، لقوله تعالىٰ: ﴿إنْ جاءَكم فاسِقٌ بنبأٍ فتبيَّنُوا﴾[2]، وهو فاسق وزيادة، فأما من فيه بدعة غير مكفرة فلعل الأرجح قبول خبره، إذا عرف تحرجه عن الكذب، ولم يكن من الدعاة إلىٰ بدعته، ولم يروِ ما يقوي مذهبه حيث إنه علىٰ مذهب يعتقد صحته، ويتأوَّل ما خالفه، وينتمي إلىٰ الإسلام ويصدق بالرسالة، وقد روىٰ البخاري وغيره لبعض من رُمِيَ بشيءٍ من البدع كالتَّشيع وإنكار القدر[3]، ولكنهم تحققوا من أولئك الصِّدق والتَّثبت في الرواية.

فإن روىٰ المبتدع ما يقوي بدعته لم يقبل منه؛ فإنَّ العادة تقتضي تساهله في روايته، لموافقته ما تميل إليه نفسُهُ.

وهكذا لا يقبل خبره إن كان من الدُّعَاة إلىٰ بدعته، إهانةً له، حيثُ نصَبَ نفسَهُ في الدعاء إلىٰ هذا المنكر، ففي ترك الرواية عنه إماتةٌ لذكرِهِ، وتنفيرٌ للنَّاس عن الإصغاءِ إلىٰ كلامه[4].

٣ ـ الضبط: ويُراد به تَيَقُّظ الراوي، وفهمه لما يسمعه فهماً دقيقاً، وثباته علىٰ ذلك من وقت التَّحَمُّل إلىٰ وقت الأداء، ويعم من يترجح حفظه علىٰ

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ج ٢/ ٧٣/ فما بعدها / ط الحلبي وشركاه سنة ١٩٦٨/ مصر.
الآمدي: هو أبو الحسن علي بن محمد التغلبي، الفقيه الأصولي /ت ٦٢١هـ/ وفيات الأعيان: لابن خلكان ج ٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤/ ط دار صادر ـ بيروت. وطبقات السبكي ج ٥/ ١٢٩/ وشذرات الذهب ج ٥/ ١٤٤/.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٣) انظر «هدي الساري» مقدمة فتح الباري: للحافظ ابن حجر العسقلاني /ت ٨٥٢هـ/ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٤/ ط السلفية ـ القاهرة. «فصل: في تمييز أسباب الطعن في المذكورين ـ أي الذين روى عنهم البخاري ـ ومنه يتضح من يصلح منهم للاحتجاج به، ومن لا يصلح».

(٤) قال الحافظ السخاوي /ت ٩٠٢هـ/ في «فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي» ج ٣ ص ٣٢٩: «كانت المخالفة في العقائد أحد الأوجه الخمسة التي تدخل الآفة منها. فإنها كما قال ابن دقيق العيد: أوجبت تكفير الناس بعضهم لبعض أو تبديعهم، وأوجبت عصبيَّةً اعتقدوها ديناً يتديَّنون ويتقرَّبون به إلى الله تعالى، ونشأ من ذلك الطعن بالتكفير أو التبديع».

نسيانه. فإن كان يحدِّث من كتابه اشترط أن يكون محافظاً عليه من وقت أن أثبتَ فيه سماعَهُ إلىٰ أن يؤدِّي منه، بأن لا يعيرَهُ مَنْ لا يثقُ به، ولا يُمكِّن أحداً من التصرُّف فيه.

فإن روىٰ بالمعنىٰ اشترط أن يكون عالماً بدلالة الألفاظ، بحيث يؤمن من إبدال لفظ يختلُّ به المعنىٰ[1]، فإن كان ضعيفَ الذاكرة، أو قليلَ الفهم، أو كثيرَ الأغلاط لم يُقْبَلْ خبرُهُ، لأنَّ الحديث ممَّا يجب الاحتياط له، فلا يقبل منه إلاَّ ما تحقق ثبوته أو غلب علىٰ الظن، فَخَبَرُ الذي يقع منه السَّهْوُ والغفلةُ كثيراً لا يُؤْمَنُ أن يقعَ في روايتِهِ مِنَ الزيادةِ والنَّقصِ والتغييرِ ما يختلُّ به المعنىٰ، فيجبُ التوقفُ فيه حتى يتقوَّىٰ بغيره.

ثم إنَّ الطريق إلىٰ معرفة ضبط الراوي التَّتبع لرواياته، ومقابلتها برواية الحفَّاظ الثِّقات، فموافقتُهُ لهم ولو في المعنىٰ دليلُ ضبطه، ولا تضرُّ المخالفةُ النَّادرةُ، أمَّا مَنْ كان كثيرَ الرواية للغرائب، أو كثيراً ما ينفردُ عن الثقاتِ بما يُخالف الأثباتَ، فإنَّه لا يُقْبَلُ خبرُهُ، فإنَّ ذلك دليلُ ضَعْفِ روايته، ودخول السَّهْوِ عليه، ولو كان معروفاً بتحري الصدِّق، وبالصَّلابَةِ في الدِّين.

وقد كان العلماء بالحديث لا يقبلونه غالباً إلاَّ من أهله الذين عُرِفُوا بروايته، أمَّا من كان مشتغلاً بما يصدُّهُ عنه، ولو بالتَّنَسُّكِ والإنقطاع في العبادة فليسَ من أهل القَبُول غالباً[2].

---

(١) قال الحافظ السخاوي: حكى الشافعي عن بعض التابعين قال: لقيتُ أناساً من الصحابة، فاجتمعوا في المعنى، واختلفوا على اللفظ، فقلتُ ذلك لبعضهم، فقال: لا بأس به ما لم يُحِلْ معناه..

وقال حذيفة: «إنَّا قوم عربٌ نورد الأحاديث فنقدِّم ونؤخر». وقال ابن سيرين: كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنى واحدٌ، واللفظ مختلفٌ.

وممَّن كان يري بالمعنى من التابعين: الحسن والشعبي والنخعي [وكان هؤلاء أئمةً في اللغة، كما كان الصحابة أساطينها]! /فتح المغيث ج ٢/٢١٣/ ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٢) قال السيوطي /ت ٩١١هـ/ في تدريب الراوي ج ٢/٣٦٩: «قال بعض الصوفية لابن المبارك: تغتابُ الناسَ؟! قال: اسكت؛ إذا لم نبيِّن كيف نعرف الحق من الباطل»؟! ومن هنا نعلم أنَّ كثيراً من أهل الصلاح والعبادة لا نصيب لهم من رعاية حديث رسول الله ﷺ. =

٤ ـ **العَدَالَةُ**: العَدْلُ في اللُّغة التَّسَاوي والتَّوسُّط في الأمور من غير إفراط ولا تفريط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الله يأمُرُ بالعدلِ﴾(١) وفُسِّرتِ العَدَالَةُ في الرواية بأنَّها: هيئةٌ راسخةٌ في النَّفس تحمل صاحبها علىٰ ملازمة التقوىٰ والمروءة جميعاً، فتحصل الاستقامةُ في الدِّين، والسَّلامة من الفُسُوق والمعاصي، ومن الأخلاق الرَّذيلة التي تُخْزِمُ المروءةَ وتُسقطُ الهيبةَ(٢). ولا تحصل العدالة إلاَّ بعد تجنُّب الكبائر من الذُّنوب، وهي ما تُوعِّد عليه بعذاب أو اقترن بلعنة أو غضب، أو نفي إيمان أو ما أشبهها في العظم والبشاعة.

وكذلك لا بُدَّ من ترك الصَّغائر التي تدلُّ علىٰ دناءَةِ النَّفس؛ كتطفيف قليل، وسرقة لقمة ونحو ذلك، ولا تتم أيضاً إلاَّ بترك المباحات التي تقدح في الشرف والهيبة كصحبة الأراذل، وكثرة المزاح، والأكل في السوق ونحو ذلك.

ثم إنَّه لا ينبغي التشديد في الرد بأقل الأمور، لأنه قلَّما يسلم أحدٌ من العيوب، والكريم من عُدَّتْ هفواتُهُ.

= وقال السيوطي في منظومته «ألفية الحديث» ٢٥٨:

وشرهم صوفية قد وضعوا مُحْتَسِبينَ الأجرَ فيما يَدَّعُوا

وقال يحيي بن سعيد القطان [إمام الجرح والتعديل] /ت ١٩٨هـ/: «ما رأيت الكذب في أحدٍ أكثرَ منه فيمن ينسِب إلى الخير».

وقال مالك بن أنس: لقد أدركتُ في هذا البلد ـ يعني المدينة ـ مشيخةً «لهم فضل وصلاح وعبادة يُحدِّثون، ما سمعت من أحدٍ منهم حديثاً قط! قيل له: لِمَ يا أبا عبد الله؟ قال: لم يكونوا يعرفون ما يُحدِّثون» الضعفاء الكبير: للحافظ العقيلي /٣٢٢هـ/ ج١/ ١٣ ـ ١٤/ ط الدار العلمية ـ بيروت.

(١) سورة النحل، الآية ٩٠.

(٢) تدريب الراوي: للحافظ السيوطي ج ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٣/، وقال النووي /ت٦٧٦هـ/ في إرشاد الطالب /١٠٩ ـ ١١٠: عدالة الراوي تارة تثبتُ بتنصيص عدلين عليها، وتارة تثبت بالاستفاضة، فمن اشتهرت عدالته بين أهل العلم وشاع الثناء عليه بالثقة والأمانة كفى ذلك في عدالته» ط دمشق، تحقيق د. نور الدين عتر.

والعدول هم أصحاب حديث رسول الله ﷺ، قال رسول الله: (يحمل هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين) حديث حسن رواه البغوي في مصابيح السنة ج ١/١٧٩/ ط دار المعرفة ـ بيروت وأخرجه البيهقي ج ١/ ٢٠٩/ انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٣٩١٣و ٤٩١٤/.

فلا تقبل رواية الفاسق إجماعاً لقوله تعالىٰ: ﴿إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[١]، فإن من تجرَّأ علىٰ المعاصي لم يُؤمن تجرؤُهُ علىٰ الكذب في الحديث، أمّا مجهول الحال وهو من عرف اسمه، وروىٰ عن اثنان فأكثر ولم تعرف حاله فقد اختُلِفَ في قبول خبره، والحقُّ التوقف حتىٰ يتبيَّنَ أمرُهُ، لاحتمال عدم أهليته[٢].

ثم إن تقسيم الرواة إلىٰ مقبول ومردود إنَّما هو بالنسبة لغير الصحابة، أمّا الصحابة فالجمهور علىٰ أنَّهم كلُّهم عدولٌ[٣]؛ لأنَّ الله قدْ زَكَّاهُم، واختارهم لصحبة نبيِّهِ ونُصْرَةِ دينِهِ، وقد وردت النصوص الكثيرة تثبت عدالتهم وتوضح فضلهم علىٰ مَنْ بعدَهم، قال تعالىٰ: ﴿محمدٌ رسولُ الله والَّذينَ معه أشِدَّاءُ علىٰ الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينِهُمْ﴾[٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا من يرتدَّ منكُمْ عن دينِهِ فسوفَ يأتي الله بقومٍ يُحبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ، أذِلَّةٍ علىٰ المؤمنينَ أعِزَّةٍ علىٰ الكافرينَ، يُجَاهِدُونَ في سبيلِ الله ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾[٥] ففيها دلالة على فضل الصّحابة حيث لم يرتدوا، وفضل التّابعين من بعدهم، حيث كانوا على آثار الصحابة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٢) تدريب الراوي: السيوطي ج ١/٣١٦/ .

(٣) ليس المراد بعدالتهم ثبوت العصمة لهم، واستحالة المعصية منهم، وإنّما المراد قبول رواياتهم من غير تكلّف. ونحن على استصحاب ما كانوا عليه في زمن رسول الله ﷺ. [انظر: فتح المغيث: للسخاوي ج ٣/١٠٦/ .

(٤) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٥) سورة المائدة، الآية ٥٤.

البحث الثاني

طرق معرفة أهليَّة الراوي

لمَّا كانتْ أهليةُ الراوي شرطاً في قبول خبره، تَوقَّفَ ذلك علىٰ البحث عن أحوال الرواة، والتأكد من صلاحيتهم للأخذ عنهم وضدٍّ ذلك.

وكان هذا ممَّا حمل علماءَ الحديث علىٰ نقد الرُّواة، والتَّنقيب عن أحوالهم وخفايا أمورهم، والإفصاح بما فيهم من العيوب التي تسبب عدم الثقة بأخبارهم، من باب النَّصيحة للأمة[1]، وهذا ما يعرف بعلم الجرح والتعديل[2].

ثم إنَّ من الرواة من تعرف عدالته بالشهرة، واستفاضة فضله وعلمه بين

---

(١) قال يحيي بن سعيد القطان [إمام الجرح والتعديل /ت ١٩٨هـ/]: سألتُ شعبة /ت ١٦٠هـ/ وسفيان بن سعيد/ هو الثوري /ت ١٦١هـ/ وسفيان بن عينية /ت ١٩٨هـ/ ومالك بن أنس /ت ١٧٩هـ/ عن الرجل لا يحفظُ، ويُتهم في الحديث؟ فقالوا جميعاً: يُبَيَّنُ أَمْرُهُ. [الصعفاء الكبير: للعقيلي ج ١/ ٥ ـ ٦/ ط دار الكتب العلمية.

(٢) علم الجرح والتعديل: علم يُبحث فيه عن أحوال الرجال الرواة، لمعرفة صحة الروايات وسُقمها، قال ابن سيرين /ت١١٠هـ/ : كانوا [يعني الصحابة وكبار التابعين] لا يسألون عن الإسناد، فلمَّا وقعتِ الفتنةُ قالوا: سَمُّوا لنَا رجالكم فيُنْظر إلى أهل السُّنَّة فيُؤخذُ منهم، وإلى أَهل البدعة فلا يُؤخد منهم، وكان مالك بن أنس يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممّن سوى ذلك؛ لا يؤخذُ من سفيهٍ، معلن بالسَّفه وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذابٍ، يكذب في أحاديث الناس إذاً جُرِّب ذلك عليه، وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من صاحبِ هَوَى، يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضلٌ وعبادة، إذاً كان لا يعرف الحديث. وقال عبد الرحمن بن مهدي /ت ١٩٨هـ/ : ثلاثة لا يُحمل عنهم: الرجل المتهم بالكذب، والرجل كثير الوهم والغلط، ورجل صاحب هوىً يدعو إلى بدعةٍ. [الضعفاء الكبير: للعقيلي ج ١/ ٨ ـ ١٣/ .

الناس، فلا يحتاج إلىٰ البحث عنه أو طلب التزكية له، كمالك والثوري وشعبة والأوزاعي واللَّيث والزهري[١]، ونحوهم من جهابذة العلماء، فإنَّ ما اشتهرُوا به من نشر السُّنَّة، والذَّبِّ عنها، والاحتياط في قبولها أعظم من تزكية أهل الجرح والتعديل لبعض الرواة، مع ما يجوز علىٰ المزكِّي من المحاباة والأغراض الداعية إلىٰ وصفه بغير ما يستحقه.

وقد سُئِل ابنُ معين[٢] عن أبي عُبيد الله[٣]؟ فقال: مثلي يُسأل عن أبي عُبيد؟! أبو عبيد يُسأل عن النَّاس. أمَّا من عداهم فيلزم التأكد من أهليتهم، وذلك بالرجوع إلىٰ كلام أئمة هذا الفَنِّ.

والأصح أنه يُكتفَى في الجرح والتعديل بالواحد من الأئمة المُعْتَبرين، حيث أن أصل الرواية يقبل فيها الواحد، فكذلك فرعها الذي هو أهلية الراوي أو عدمها، والصحيح أنَّ التعديل يقبل ولو لم يُذكرْ سببُهُ؛ لأنَّ أسبابه كثيرة، بخلاف الجرح فلا يقبل إلاّ مُفَسَّراً حيث إنَّ الناس يختلفون في أسباب الرَّدِّ، فقد يعتبر بعضهم ما ليس بجارح جارحاً، كما روي أنَّ شعبة ترك حديث رجل لأنه رآه يركض علىٰ برذون. وقيل للحاكم بن عتيبة: لِمَ لمْ ترو عن زاذان؟ قال: كان كثير الكلام. ذكر ذلك العراقي في فتح المغيث وغيره[٤].

ولكن إذا كان الجارح من ذوي العلم والنظر في أحوال الناس، فالأرجح الاكتفاء بجرحه وإن لم يذكر سبباً، وعلىٰ ذلك سار الأئمة في مؤلفاتهم غالباً[٥].

ثم إذا تعارض الجرح والتعديل قُدِّمَ المُفَسَّرُ منهما، فإن كانا مُبْهَمَيْنِ

---

(١) هؤلاء الأئمة الثقات يُضرب بهم المثل في العدالة والاستقامة!!.

(٢) يحيي بن معين إمام الجرح والتعديل /ت ٢٠٣هـ/ كان من أقران أحمد بن حنبل، انظر تذكرة الحفاظ: للذهبي ج ٢/ ٤٢٩/.

(٣) أبو عُبيد الله: هو القاسم بن سلام صاحب «غريب الحديث» /ت ٢٢٤هـ/ انظر تذكرة الحفاظ ج ٢/ ٤١٧/.

(٤) فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي: للسخاوي ج ٢/ ١٠.

(٥) انظر: تدريب الراوي: للسيوطي ج ١/ ٣٤٢: «علم الجرح والتعديل» و ج ١/ ٣٤٩: «ألفاظ الجرح والتعديل» وج ٢/ ٣٦٨: «معرفة الثقات والضعفاء» / ط مصر.

فالصحيحُ تقديمُ الجرح؛ لأنَّ الجارح اطلع علىٰ ما خُفِي على المُعَدِّل الذي إنَّما ينظر إلىٰ الظاهر، وإنْ كانا مُفَسَّرَين، وكل منهما نفىٰ ما أثبتَهُ الآخَرُ، رُجِعَ إلىٰ التَّرجيح لمن هو أتمُّ معرفةً واطلاعاً علىٰ أحوال الرواة ونحو ذلك[1].

(١) انظر: تدريب الراوي: للسيوطي ج ١/ ٣٠٥ ـ ٣١١.

البحث الثالث

الشروط المعتبرة في متن الحديث

بعد أن تَحَقَّقْتَ قُبُولَ خبرِ العدلِ، وصحَّةَ ما رواه ممَّا هو أثرُ عدالته وثقته، فاعلمْ أيضاً أنَّ العلماء قد حَقَّقُوا نظرَهم بدقَّةٍ في مَتْنِ الخبر، وخَرَجُوا من هذا النظر بأَمَارَاتٍ تُسَبِّبُ عدمَ قبوله رغم عدالة رواته وثقتهم.

فإنَّ الرواة مهما بلغوا من الذكاء والحفظ والإتقان فليسوا معصومين عن الخطأ؛ ولمَّا كان علماء الحديث مُكِبِّين دائماً علىٰ سماع كلام النبي ﷺ وتَتَبُّعِ آثاره، حصلَ لهم التمييز بينَهُ وبينَ غيره، فإنَّ كلام النبي ﷺ عليه من النور والبهاء والقوَّة ما يعرفُهُ بِهِ أهلُهُ.

وقد ظهرَ للمحدِّثين من أثر ذلك ما تهدفُ إليه الشريعةُ، فاستخرجوا بهذه المعرفة الثاقبة ما هو دَخِيلٌ في الحديث النبوي.

ولقد وضعَ علماءُ الحديث قواعدَ لاسْتِخْرَاجِ الموضوع[1] أكثرها ترجع إلىٰ المتن، مثل أن يكون ركيك اللَّفظ[2]، أو مخالفاً للحسِّ

---

(١) الموضوع: الحديث المختلق على رسول الله ﷺ، وفاعلُهُ مرتكبٌ كبيرةً من الكبائر الموجبة للنَّار ـ والعياذ بالله تبارك وتعالى ـ روى البخاري ج ١/٣٨/ ج ٢/١٠٢ ج ٤/٢٠٧/ ومسلم في المقدمة: ٣ ـ ٤/ وأبو داود في العلم /٤/ والترمذي في كتاب الفتنة /٧٠/ والعلم /٨، ١٣/ وغيرهم أنّ رسول الله ﷺ قال: (مَنْ كذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النّار). وقد بلغ هذا حدَّ التواتر!!.

(٢) قال ابن عراق الكناني /ت ٩٦٣هـ في تنزيه الشريعة ج ١/٧: «من إمارات الموضوع: ركَّة لفظه ومعناه، قال الحافظ ابن حجر /ت٨٥٢هـ/ : والمدار على ركَّة المعنى، فحيث وجدت دلَّت على الوضع، سواء انضمَّ إليها ركَّة اللفظ أم لا، فإنَّ هذا الدِّين كله محاسن، والركة =

والمُشَاهدة[١]، أو لا يتمشَّىٰ مع القواعد الشرعية[٢]، أو لا يجتمع مع الأحاديث الصحيحة المشهورة، ولو بتأويل، أو مشتملاً علىٰ سخَافَاتٍ وهَذَيَانٍ يُصَانُ عنه كلامُ العاقل، أو فيه مبالغة في الثواب أو العقاب علىٰ العمل اليَسير[٣]، ولكن هذه الأشياء غالباً إنَّما تُوجد في أخبار الضعفاء والكذَّابين من القُصَّاص ونحوهم من الصوفيَّة وأهل الزَّهَادة[٤]. وقد فرَّقَ أهلُ الحديث في التصحيح بين السَّند والمتن حيث يقولون: حديث صحيح أو إسناده صحيح، فإنه قد يقع مع صحة السَّنَد ضَعْفٌ في المتن بعلَّةٍ أو شُذُوذ.

والحديث المعلل: هو ما فيه علة خفية قادحة، مع أن ظاهر سنده الصحة والسلامة[٥].

ثم إنَّ هذه العلَّة لخفائها لا يتفطَّنُ لها إلاَّ مَنْ له ممارسة في الحديث، ومعرفة برواياته وطرقه، ولهذا لا يشتغل بعلم علل الحديث إلاَّ الجهابذة من أهل هذا الفن، كالبخاري وابن المديني، وأبي حاتم الرازي، وأبي زرعة ونحوهم[٦]. وتُعرف العلَّةُ بتفرُّد الراوي عمَّن هو أحفظ منه، مما يدل علىٰ

= ترجع إلى الرداءة فبينها وبين مقاصد الدِّين مباينة» ط مصر ـ تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(١) هذا النوع الذي يأتي عن طريق المجاهيل وأصحاب الغفلة، والضعفاء.

(٢) وهذا النوع الذي يُروِّجه الزنادقة بين المسلمين، لإفساد دينهم وعقيدتهم/ انظر تنزيه الشريعة ج ١/ ١١/.

(٣) وهذا النوع الذي روَّجه الصوفية بين المتعبدين البسطاء / تنزيه الشريعة ج ١/ ١٢.

(٤) وهم قوم يُنسبون إلى الزهد حملهم التدين الناشىء عن الجهل على وضع أحاديث في الترغيب والترهيب ليحثُّوا الناس بزعمهم على الخير ويزجروهم عن الشر، وقد جوَّز ذلك الكرَّامية، وكذا بعض الصوفية/ تنزيه الشريعة /ج ١/ ١٢ ـ ١٣ ط مصر ـ تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٥) روى ابن حاتم /ت ٣٢٧هـ/ في كتاب «علل الحديث» ج ١/ ٩/ عن عبد الرحمن بن مهدي /ت١٩٨هـ/ أنه قال: «لأن أعرف علَّة حديث هو عندي أحب إليَّ من أن أكتب حديثاً ليس عندي» ط محب الدين الخطيب ـ مصر.

(٦) روى الحاكم /ت ٤٠٥هـ/ في «معرفة علوم الحديث / ١١٣ عن أبي زُرْعَة / ٢٦٤هـ/ وقال له رجل: ما الحجة في تعليلكم الحديث؟ قال: الحجة أن تسألني عن حديث له علة، فأذكر علَّته، ثم تقصد ابن وارة ـ يعني محمد بن مسلم بن وارة الحافظ الكبير /ت٢٧٠هـ/ وتسأله عنه، ولا تخبره بأنَّك سألتني عنه، فيذكر علَّته، ثم تقصد أبا حاتم ـ أي الرازي /ت ٢٧٥هـ ـ =

وقوع وَهْم منه، بوصل مرسل أو رفع موقوف أو إدخال حديث في حديث، أو إبدال رَاوٍ بغيره أو نحو ذلك، ولا تعرف إلاَّ بعد جمع طرق الحديث، والنظر في اختلاف الرواة[1]، ومثالها ما رواه يحيَى بن أبي كثير، عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا أفطر عند أهل بيت قال: (أفطر عندكم الصَّائمون) الحديث. فإن يحيى قد روىٰ عن أنس رضي الله عنه، ولكن لم يسمع منه هذا الحديث، فقد روي عنه من طرق أصح أنَّه قال فيه: حُدِّثْتُ عن أنس، فذكره[2].

وأمَّا الشَّاذُّ: فهو أن يُخالف الثقةُ مَنْ هو أوثق منه أو أكثر ملازمة

= فيُعلّله، ثم تميّز كلام كل منّا على ذلك الحديث، فإن وجدت بينَنَا خلافاً في علَّته فاعلمْ أنَّ كُلاً منّا تكلَّم على مراده، وإن وجدت الكلمة متفقةً فاعلم حقيقة هذا العلم؛ قال: ففَعَلَ الرجل، فاتفقتْ كلمتُهم عليه، فقال: أشهد أن هذا العلم إلهام!! أي من الله تعالى يُسدِّد الله به هؤلاء لحفظ حديث رسول ﷺ!!.

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن مهدي أنّه قال: معرفة الحديث ـ أي علته ـ إلهام. قال الحاكم: وإنّما يعلَّل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واهٍ، وعلَّة الحديث تكثر في أحاديث الثقات أن يحدِّثوا بحديث له علَّة، فيخفى عليهم علمه، فيصير الحديث معلولاً والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير.

(١) انظر: معرفة الحديث للحاكم ص ١١٢ ـ ١١٤/ أو كتاب علل الحديث لابن أبي حاتم، أو العلل المتناهية لابن الجوزي / ت ٥٩٧هـ/ ط الباز ـ مكة المكرمة؛ لتقف على حقيقة هذا العلم الدقيق وهذا الفهم العظيم الذي جعله الله تعالى الدرع الواقي لحديث رسول ﷺ، ومن ادَّعى علَّةً لحديث صحيح برأيه من غير الرجوع إلى هذه المصادر، فهو متخرِّص خاطىء، يتجنى على حديث رسول الله ﷺ، وهذا ما فعله «محمد الغزالي» في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» حيث ادعى إعلال أحاديث في الصحيحين أو أحدهما بمحض رأيه، بدعوى أنها تخالف القرآن الكريم وتخالف العقل. وهذه جرأة على الأحاديث النبوية الثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا يجوز السكوت عليها، لأنها مدعاة لأهل الأهواء والفتن لرد الأحاديث الصحيحة السليمة التي لا ترضى بها عقولهم المريضة أو القاصرة.

(٢) فقوله في الرواية الأصح: «حُدِّثت» أعلَّت الرواية الأولى التي فيها الإيهام بسماعة هذه الرواية من أنس. وهذا الحديث ثبت من غير هذا الطريق، فأخرجه أحمد ج ٣/ ١٣٨ عن معمر عن ثابت البناني عن أنس به. وأخرجه أبو داود / ٣٨٥٤ عن معمر بن ثابت عن أنس به. وأخرجه البيهقي عن معمر عن ثابت عن أنس به/ ج ٧/ ٢٨٧/. وله طريق أخرى عند ابن السني / ٤٨٢ عن عمران القطان عن قتادة عن أنس به. وهو حديث صحيح، انظر «آداب الزفاف» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ص ٩١ ـ ٩٢/.

والرواية التي ذكرناها عن يحيي بن أبي كثير عن أنس ذكرها الحاكم في «معرفة الحديث» ص ١١٧ ـ ١١٨/ في الجنس السابع من علل الحديث.

للشيخ؛ بأن يروي جماعةٌ حديثاً عن شيخ، ويكون بعضهم أحفظَ من بعض، فيرويه أحدهم على معنى يختلف مع معنى رواية الأكثرين؛ الذين هم أتم منه حفظاً، وأكثر مُلازَمةً لهذا الشيخ، فإنَّ تفرُّدَه بهذا المعنى دليل اختصاصه بالخطأ، لأنَّ تطرق الخطأ إلى الواحد الثقة أولى من تطرقه إلى من هو أوثق منه وأكثر. وقد مثلوا للشَّاذِّ: بما رواه عبد الواحد بن زياد، عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة، مرفوعاً: (إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه) فإن جميع الحفاظ رووه عن الأعمش من فعل النبي ﷺ، فانفراد عبد الواحد بهذا اللفظ دليل خطئه.

ودليل ذلك أنَّ البخاري أخرجه في صحيحه من حديث عائشة قالت: «كان النبي إذا صلى ركعتي الفجر اضطجعَ على شِقِّهِ الأَيْمَن»[1]، وكذلك أخرجه أحمد من طريق البخاري من قول عائشة رضي الله عنها[2].

قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي»: وقد أشار يحيى القطان إلى لينه [أي عبد الواحد بن زياد] فروى ابن المديني عنه أنَّه قال: ما رأيتُه طلبَ حديثاً قط، وكنتُ أذاكره لحديث الأعمش فلا يعرف منه حرفاً. قال الحافظ: وهذا غير قادح لأنَّه كان صاحب كتاب، وقد احتج به الجماعة[3].

ففي قول يحيى القطان ما يشير إلى لينه في أحاديث الأعمش، فكانت رواية ذكر الفعل أثبت من رواية ذكر القول. أي: حديث عائشة أثبت من حديث أبي هريرة.

وابن معين يجعل عبد الواحد بن زياد في الدرجة الرابعة من أصحاب الأعمش، فيقول: أثبت أصحاب الأعمش، وسفيان، ثم أبو معاوية، ثم عبد الواحد بن زياد، وعبد الواحد ثقة: وأبو معاوية أحبُّ إليَّ منه[4].

---

(١) رواية ابن زياد عند أبي داود/ ١٢٦١/ والترمذي /٤١٨/ وقال: حسن صحيح غريب. وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح أبي داود /١١٢٣/ وصحيح الترمذي/ ٣٤٤.

(٢) فتح الباري ج ٣/ ٤٣/ ط السلفية.

(٣) المسند ج ٦/ ٢٥٤/ ط مصر ـ تصوير دار الفكر.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ٢/ ٤٧٦/ ط مصر ـ تصوير دار الفكر ـ بيروت.

وهكذا يُميِّزون الشَّاذَّ من الروايات، فمعرفة الشَّاذِّ، هو غير المعلول، فإنَّ المعلول ما يُوقف على علَّته أنَّه دخل حديثٌ في حديث، أو وهم فيه راوٍ، أو أرسله واحد فوصلَهُ واهمٌ؛ فأمَّا الشَّاذُّ فإنَّهُ حديثٌ ينفرد به ثقة من الثقات، وليس للحديث أصل متابع لذلك الثقة. قال الشافعي: ليس الشاَّذَّ أن يروي الثقة ما لا يرويه غيره، هذا ليس بشاذٍّ؛ إنَّما الشَّاذُّ أن يروي الثقةُ حديثاً يُخالف فيه الناس [أي الذين هم أوثق منه وأكثر] هذا الشَّاذُّ من الحديث[1].

ومن هذا يتبين جهل من يزعم أن الحكم على الحديث بـ «الشذوذ» بمحض الرأي، وبتحكُّم العقل بالأحاديث الصحيحة الثابتة السالمة من الشذوذ، وأنَّه لا دراية له بعلوم الحديث ومصطلحه، أمثال «محمد الغزالي» ممَّن سار في ركبه في رَدِّ الأحاديث الصحيحة الثابتة والسالمة من الشذوذ، والخالية من كل علَّة، بدعوى أنَّها تخالف ظاهر القرآن الكريم، وتناقض العقل البشري[2]!!؟..

(١) معرفة علوم الحديث: للحاكم/ ١١٩.

(٢) انظر كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ص ٢٩ كيف يقول في حديث أخرجه البخاري في صحيحه: «إنَّ في متنه علَّةً فادحةً تنزلُ به عن رتبة الصِّحة» من غير أن يأتي بدليل علمي على طريقة أصحاب السنة والحديث والفقة في نقدهم للمتون والأسانيد، وإنما يصدر حكمه هكذا لتوهمه أنَّ الحديث يناقض العقل؟!! فياللعجب!!.

البحث الرابع

أدلة إفادة خبر الواحد الثّقة العلم

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين[1]: حيثُ اعتقدَ المسلمونَ وُجُوبَ طاعةِ الرَّسُولِ ﷺ، ولُزُومَ امتثالِ طَلَبِهِ، وتَقَبُّلَ كلِّ ما جاءَ بِهِ عن ربِّه.

وبعد أن عرفتَ أنَّ الحكمة التي هي سُنَّةُ النبي ﷺ بمنزلة القرآن في كونها وحياً منزلاً من الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وأنزلَ الله عليكَ الكتابَ والحِكْمَةَ﴾[2].

وحيث إنَّ السُّنَّةَ مما يتلىٰ علىٰ الأمة ليعملوا بما فيها كالقرآن، لقوله تعالىٰ: ﴿واذْكُرْنَ ما يُتْلىٰ في بيوتِكُنَّ من آياتِ الله والحكمةِ﴾[3]، وأنها من الشرع المُنَزّل كالقرآن، لقوله ﷺ: (أُوْتِيْتُ القُرآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ)[4]، فإنَّ كل ذلك ونحوه يؤكد أنَّ لهذه الأخبار النبوية حكم الشرع من حفظ الله وحمايته، لتقوم حجته علىٰ العباد، لقوله تعالىٰ: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنَا الذكرَ وإنَّا لهُ لحافِظُون﴾[5]، فلا بدَّ أن تكون السُّنَّةُ داخلةً في اسم الذكر الذي تكفَّلَ الله بحفظه، فمن جعلها ظَنِّيَّةَ الثبوتِ أجازَ أن تكونَ في نفس الأمر كذباً مع نسبتها إلىٰ شرع

---

(١) في كتابه «أخبار الآحاد في الحديث النبوي» ص ٦١ ـ ٧٥/ ط دار طيبة ـ الرياض.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٤/ ١٣١/ وأبو داود في سننه في كتاب السُّنَّة، باب: لزوم السنّة / ٤٦٠٤/ ، والترمذي في سننه في كتاب العلم / ٢٦٦٦/ وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه/ وابن ماجه في المقدمة / ١٢/ . قال الشيخ ناصر في المشكاة: صحيح ج ١/ ٥٨/ رقم ١٦٣/ وذكره في صحيح أبي داود / رقم ٣٨٤٨/ .

(٥) سورة الحجر، الآية ٩.

الله، وأجاز أن يكون قد دخلَها التَّغييرُ والتَّبديلُ والتَّحويلُ عمَّا كانت عليه، والزيادة، والنَّقص والنِّسيان والإهمال ونحو ذلك، ولا شكَّ أنَّ في هذا تكذيباً لله في خبره بحفظها، ثم هو وصفٌ له بما لا يليق بحكمته وعدله من إضاعة دينه، وتضليل عباده، وغير ذلك مما يتعالىٰ عنه جلالُهُ وكبرياؤُهُ سبحانه[1].

إنَّ أغلب أحاديث السُّنَّة جاءتْ مكمِّلةً ومبيِّنَةً للأصول المذكورة في القرآن الذي أجملَ الله فيه أغلبَ الأحكام، ووكَّلَ إيضاحَها وتمثيلَها إلىٰ نبيِّه ﷺ بل كلَّفه بذلك حيث قال: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾[2]، وكذلك أمره بتعليم النَّاس والحكم بينهم حيث قال: ﴿ولتحكُمَ بينَ النَّاسِ بما أرَاكَ الله﴾[3]. كما أمره بإبلاغ ما أنزله إليه بما فيه السنة بقوله: ﴿بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ﴾[4].

ولقد امتثل ﷺ هذه الأوامر من ربه حيث بلَّغ الرسالة وأوضح الأحكام المجملة في القرآن، ثم تقبَّل صحابته بعده جميع ما بيَّنَ وبلَّغَ إليهم، فعملوا به ونقلوه لمن بعدهم كما هو.

فلو جاز أن يتطرق إلىٰ ذلك البيان شيءٌ من الوهم والخطأ لبقي المسلمون في حيرة من مراد الله بتلك الأحكام، ولم يعلموا علىٰ أي وجه يوقعونها، ولم يتحققوا أن ما بيَّنه نبيهم ﷺ وصل إليهم كما هو.

وكل هذا ممَّا يُنافي مقتضىٰ حكمة الله وشرعه ودينه، فلا بُدَّ أن تكون

---

(١) انظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للإمام ابن حزم /ت ٤٥٦هـ/ ج ١/١٠٧/ قال رحمه الله تعالى: «إنَّ خبر الواحد العدل المتصل إلى رسول الله ﷺ في أحكام الشريعةُ يوجب العلم، ولا يجوز فيه ألبتة الكذب ولا الوهم» ثم قال: «صحَّ أنَّ كلام رسول الله ﷺ في الدِّين وحي من عند الله عزَّ وجلَّ لا شكَّ في ذلك.. والوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون أنْ لا يضيع منه، وأن لا يُحرَّف منه شيء أبداً تحريفاً لا يأتي البيان ببطلانه» ثم قال: «وإذا صح هذا فقد ثبت يقيناً أن خبر الواحد العدل عن مثله مبلغاً إلى رسول الله ﷺ حق مقطوع به، موجب للعمل والعلم معاً» ج ١/١٠٧ و ١٠٩/.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٣) سورة النساء، الآية ١٠٥.

(٤) سورة المائدة، الآية ٦٧.

هذه السُّنَّةُ محفوظةً علىٰ الأمَّة، مَصُونةً عن تطرُّق الخطأ إليها، ليحصلَ لهم الانتفاع بهذه الأصول عن يقين، ولتقوم عليهم حجة الله تعالى.

إنَّ الذين جعلوه مَظْنوناً ـ ولو مع القرائن[1] ـ يُجوِّزُونَ أن يكون في نفس الأمر كذباً أو خطأً، ثم هم مع ذلك يُوجبون العمل به مع ما يخالج نفوسهم من احتمال كونه باطلاً، والعمل به ضلالاً وأمراً مبتدعاً.

ولا شك أنَّ هذا التَّوقف في ثبوته مع كونه خلاف الظاهر يدفع الثِّقَةَ بأصول الدِّين وفروعه التي تُلُقِّيَ أغلبُها عن طريق الآحاد[2]، ويفتح الباب علىٰ مصراعيه لكل من أراد الطعن في شعائر الإسلام وتعاليمه بكون أدلته متوهمة مشكوكاً فيها، ويجلب لنا سُوْءَ الظَّنِّ بسلفنا الصالح الذين تقبلوا هذه الأخبار وحكموا بها، واستباحوا بها الحرام، وسفكوا بها الدماء، وتصرفوا بها في

---

(١) إنّ من أعظم القرائن على ثبوت الاحتجاج بالأحاديث النبوية الثابتة، الدَّاحضة لدعوَى الظَّنّ هو انعقاد الإجماع المتيقين على قبول هذه الأحاديث وإثبات صفات الرَّبِّ تعالى بها، فهذا لا يشك فيه من له أقلُّ خبره بالمنقول؛ فإنَّ الصحابة هم الذين رَوَوْا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحدِ منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أوَّلهم إلى آخرهم، ومَنْ سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومَنْ لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين.

هذا أمرٌ يعلمه ضرورةً أهلُ الحديث كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم ونقلهم ذلك عن نبيِّهم ﷺ. /الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: للإمام ابن قيم الجوزية / ت ٧٥١هـ/ ج ٢/ ٦٣٠/ ط مصر.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية /ت ٧٢٨هـ/ : «إنَّ العلم يحصل بكثرة المخبرين تارةً، وقد يحصل بصفاتهم لدينهم وضبطهم، وقد يحصل بقرائن تحتفُّ بالخير، يحصل العلم بمجموع ذلك، وقد يحصل العلم بطائفة دون طائفة [أي بطائفة أهل السنة دون طائفة أهل البدعة والريب]، وأيضاً فالخبر الذي تلقاه الأئمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً بموجبه: يُفيد العلم عند جماهير الخلف والسلف، وهذا في معنى المتواتر، لكن من الناس من يسميه المشهور والمستفيض، ويُقسمون الخبرَ إلى متواتر مشهور وخبر واحد».

قال: «وإذا كان كذلك فأكثر متون الصحيحين معلومة متقنة، تلقاها أهل العلم بالحديث بالقبول والتصديق، وأجمعوا على صحتها، وإجماعهم معصوم عن الخطأ؛ كما أنَّ إجماع الفقهاء على الأحكام معصوم عن الخطأ. ولو أجمع الفقهاء على حكم كان إجماعهم حُجَّةً، وإن كان مُسْتندُهم خبرَ واحد أو قياس أو عموم، فكذلك أهل العلم بالحديث إذا أجمعوا على صحة خبر، أفادَ العلم، وإن كان الواحد منهم يجوز عليه الخطأ، لكنَّ إجماعهم معصومٌ عن الخطأ»!!/ مجموع الفتاوى ج ١٨/ ٤١ و ٤٨ و ٤٩/ ط السعودية.

سائر الأحكام، حيث اعتمدوا أدلة غير متحققة الثبوت، فيتسلط من هاهنا الأعداء عليهم بثلبهم وعيبهم بالتَّخرُّص والظَّنِّ في الدِّين، ويكون هؤلاء العلماء هم الذين سلطوهم عليهم وعلىٰ أنفسهم من حيث لا يشعرون. فنحن نتحقق أنَّ أولئك الأئمة من السَّلف يرجعون إلىٰ هذه الأخبار لصحتها عندهم، فلهذا يدعون لها سائر الآراء والإستحسانات، ولم يكونوا يقابلونها بشيء من الأقيسة أو القواعد أو أقوال المشايخ، وكل هذا ممَّا يُحقِّقُ لنا أنْ قد تبيَّنوا ثبوتها، واستفادوا منها العلم اليقيني الذي لا تردُّدَ فيه ألبتَّة، وأمثلة قبولهم لها تأتي إن شاء الله في أدلة العمل بالآحاد.

إنَّ هؤلاء المخالفين لمَّا رأوا شهرة قبولها، والرجوع إليها عن السلف في مؤلفات أئمتهم الذين قلَّدوهم في الفروع، لم يجدوا بُدّاً من الحكم بقبولها في الأعمال، وهذا تناقض ومخالفة لما اعتقدوه من كونها ظنِّيَّة الثبوت، وما ذاك إلاَّ لأنَّ الأصل براءة الذِّمَّة، فلا تثبت التكاليف بخبر يمكن أن يكون موضوعاً مختلقاً.

وقد اعتقدوا أن السَّلف إنَّما عملوا بها وإن كانت مظنونة لأنَّ أدلَّة العمل يجوز أن تكون ظنِّيَّة[1]، وهذا خطأ علىٰ السَّلف فإنَّهم لو لم يكونوا يقطعون بصحتها لم يَقْدِمُوا علىٰ العمل بموجبها، وإثبات الأحكام بها أصولاً وفروعاً كما سيجيء إن شاء الله. وما أدري ما حال عبادات هؤلاء التي فعلوها وقد قارنَ أنفسَهُمْ مِنَ الشَّكِّ والرَّيب في صحة أدلتها ما لا بدَّ لهم منه بموجب مذهبهم[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وخبر الواحد المُتَلَقَّى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء.. فإنَّه وإنْ كان في نفسه لا يفيد إلاَّ الظن [على حدِّ زعم المتكلمين] لكن لمَّا اقترن به إجماع أهل العلم بالحديث على تلقيه بالتصديق كان بمنزلة إجماع أهل العلم بالفقه على حكم مستندين في ذلك إلى ظاهر أو قياس أو خبر واحد، فإنَّ ذلك الحكم يصير قطعياً عند الجمهور، وإن كان بدون الإجماع ليس بقطعي؛ لأنَّ الإجماع معصوم، فأهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام ولا تحريم حلال، وكذلك أهل العلم بالحديث لا يجمعون على التصديق بكذب، ولا التكذيب بصدق!» [مجموع الفتاوى ج ١٨/٤٨ و ٤٩].

(٢) وهؤلاء: كلُّ مَنْ فرَّقَ بين قبول أحاديث الآحاد في الأحكام، ورَدَّها في الاعتقاد، وهم متأخرو الفقهاء الذين تعصَّبوا لأئمتهم، والذين يقبلونها في الأحكام منهم ينظرون إليها من منظار الظَّنِّ أيضاً.

ولا شك أن من كان بهذا الاعتقاد لن ينفك من الوساوس في كل قربة يأتي بها أو أمر يتمثّله، من كون ذلك بدعة أو مغيراً عن وضعه الأصلي.

ولا بدَّ أيضاً أن يعتقد أن شريعة الله قد اختلط بها ما ليس منها، وامتزجت بما هو كذب، وأنَّه ليس في الإمكان تخليص دين الله من تلك البدع التي دخلت فيه بموجب تلك الأخبار التي يمكن كونها مكذوبة، ومن ظنَّ شيئاً من ذلك فقد أجاز علىٰ المؤمنين أن تكون قرباتُهم صادرةً عن جهل، ومبعدة لهم عن الله، وجوَّز علىٰ الدِّين أن يكون قد تُنوسِيَ منه الكثير، وتغيَّر ما فيه عمَّا كان عليه، وعبثتْ به الأيدي. وكلُّ هذا خلاف ما تقتضيه حكمةُ الله، وخلافُ اعتقاد المسلمين جميعاً، وهو من لازم قول هؤلاء شاؤوا أم أبوا.

إنَّهم مع توقفهم في صحة أخبار أولئك الثقات من السَّلف يصدقون بما تلقوه عن رؤوس الجهمية والمعتزلة، من تلك الأدلَّة التي يزعمونها براهين عقلية، وهي في الحقيقة خَيَالاَتٌ وتمويهاتٌ، ولكنَّها مع ذلك تفيد العلم عندهم[1]، وما ذاك إلاَّ لثقتهم بمشايخهم الذين علموهم تلك القواعد، مع أنَّ المرجع فيها غالباً إلىٰ الفلاسفة، وضُلاَّل الصَّابئة والمجوس واليونان[2]، ونحوهم من الكفرة، فلم يعطوها حكم الآحاد الذي جعلوه للأخبار النَّبويَّة، وهو كونها مظنونةً متوقَّفاً في ثبوتها.

إنَّهم يتحققون نسبة أقوال أئمتهم إليهم، ويجزمُون بكونها مذاهب لهم ويجادلون عنها ويتفانون في نصرتها، ولو شك فيها أحد لأنكروا عليه واستجهلوه، مع أنَّ نقلها عن أولئك الأئمة إنَّما كان عن طريق الآحاد، ومع ما يوجد بينها من التضارب والتناقض أحياناً ممَّا يُوضّح أن قد دخلها الوهم

---

(١) إنَّ الظَّنَّ المستفاد من أحاديث الآحاد على زعمهم أقوى من الجزم المستند إلى تلك القضايا الكلامية الوهمية، فقد ظنُّوا حصول الخطأ والوهم في ثقات الرواة وعدولهم وحفَّاظهم، وقطعوا باليقين في قضايا المتكلمين الذين تكلموا في صفات الله تعالى وذاته العظيمة بمحض آرائهم وتخيُّلاتهم؛ انظر مباحث علم الكلام في الإلهيات ترى العجب العجاب في ذلك!!؟.

(٢) انظر كتاب «مسألة القضاء والقدر» تأليف عبد الحليم قنبس ـ خالد عبد الرحمن العك/ ط دار الكتاب العربي ـ حلب/ ص ١١ ـ ٧٨/ فسترى كيف تأثّر المتكلمون بمباحث الفلاسفة اليونان في مسائل القضاء والقدر.

والتغيير، ولم يكن شيء من ذلك سبباً لتوقفهم فيها، ولم يُعطوها حكم الآحاد في أنّها مظنونة لا تفيد اليقين.

إنَّ من المتيقَّن عندهم أيضاً نسبة المؤلفات التي بأيديهم في سائر العلوم إلىٰ أهلها، وإضافة ما نقلوه منها إلىٰ من اشتهرت باسمه علىٰ طريق الجزم، ومع استمرار العزو إليها وإلىٰ مؤلفيها، مع أنَّها لم تُرْوَ في الغالب عن أربابها إلاّ بأسانيد محصورة لا تخرج عن كونها آحاداً.

ولم يوجد من ينكر صحة نسبتها أو يعطيها حكم الآحاد من المتكلّمين، بل إنَّهم يتحققون نسبة مؤلفات من قبل الإسلام بزمن طويل، ككتب أرسطو ونحوه[1] مع ما تعرَّضتْ له من العَبَثِ بها والتصرُّف فيها، وكل هذا لم يمنع كونها صحيحة عمن نسبت إليه، مقطوعاً بها عند الفلاسفة والمتكلّمين.

وما هو متداول بين المسلمين وغيرهم من نسبة كل قول إلىٰ قائله، وقبوله ممن نقله وإن كان واحداً، ومعاملة قائله بموجبه مدحاً أو ذماً، وهذا ما لا يمكن إنكاره، ولم يسمع أن أحداً قال: إنَّه لا يفيد العلم، أو لا يُصدَّق باطناً، كما جعلوا ذلك لخبر الآحاد في الحديث النبوي.

واعتماد كل تلميذ علىٰ أنواع العلوم التي يتلقاها عن شيخه، واعتقادها،

---

(١) الفيلسوف «أرسطوطاليس» يُعرف عند الفلاسفة بالمعلِّم الأول، وله مؤلفات متداولة، ذكر بعضها صاحب «المنجد» في ترجمته، ونقل الشهرستاني في الملل والنحل ج ٢/ ١١٩/ ط مصر/ جملاً من أفكاره وفلسفته وحكمته، ونهج ابن سينا منهجه، حتى عُرف بالمعلم الثاني.

وكان أرسطو أبعدَ الفلاسفة عن الحقائق الدينية وعلم النبوَّات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بأثارة الأنبياء ما عند سلفه «كسقراط وأفلاطون». وكان عنده قدر يسير من الصابئية»/ نقض المنطق ص ١١٣/ ط مصر/، وقال: «وكان قدماء اليونان مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً؛ يعبدون الكواكب والأصنام، ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها، وكانوا يبنون لها الهياكل»/ تفسير سورة الإخلاص/ ص ٣٦٠/ ط مصر/، وقال ابن تيمية أيضاً: «ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون بالشرك، فالأولون يسمون الكواكب «الآلهة الصغرى» ويعبدونها بأصناف العبادات، وكذلك كانوا في مِلَّة الإسلام لا ينهون عن الشرك»/ نقض المنطق ص ١٧٧/ ط مصر.

ومن سوء حظ فلاسفة المسلمين أن بضاعتهم من فلسفة أرسطو/ انظر الرَّدَّ على البكري: لابن تيمية ص ٢٠٦/ ط مصر.

والتفريع عليها، والذبِّ عنها، مع أنَّ أستاذه فيها واحد، نقلها عمَّن فوقه، وقد يكون أيضاً واحداً، ولكن لثقته بشيخه، ومعرفته منه الصدق والعدالة، لم يوجد منه التوقف فيها، ولا قال أحد إنَّها لا تفيد إلاَّ الظَّنَّ.

فلو أعطاها هؤلاء حكم الآحاد الذي زعموه للأخبار النبوية لَمَا كانوا علىٰ يقين من علومهم العقلية والنقلية، ولا محيص لم من أحد أمرين:

١ ـ الاعتراف بأن جميع ما تعلموه وما يعتقدونه كله ظن.

٢ ـ القول بأن علماءهم امتازوا عن سلف الأمة ونقلة الحديث وفضَّلوهم، بحيث صارَ خبرُ علمائهم يُفيد اليقين، وخبر المحدِّثين عن نبيِّهم ـ مهما بلغوا من الصِّدق والثِّقة، والحفظ والديانة ـ إنَّما يفيد الظَّنَّ، وهذا مباهتةٌ يردُّهُ العقلُ وواقعُ الأمر[(١)].

---

(١) وإنَّ ممَّا يُؤسف له أن بعض أهل زماننا ممّن نال حَظّاً وافراً من الانفتاح الثقافي والعلمي لا يزال يغلق تفكيره على تصديق هذه المزاعم التي ابتدعها أصحاب الفتن من لدى ظهور «الأزارقة» المعروفين بـ «الحرورية»، و «الخوارج»[الذين كانوا أول من تكلم بردِّ أحاديث الآحاد]، ثم إلى ظهور الجهمية: ثم المعتزلة، إلى أن انتقلت إلى الأشاعرة والماتريدية، ثم إلى يومنا هذا، فحمل لواءها «محمد الغزالي» والدكتور «سعيد رمضان البوطي» ومن نهج على طريقتهما: من أن أحاديث الآحاد الواردة عن طريق الأثبات العدول الثقات الذين تلقت مرويَّاتهم الأمة وعلى رأسها الأئمة بالقبول علماً وعملاً؛ «تفيد الظنَّ، وإن العقل يظلُّ يُجيز احتمالَ أن يكون قد تسلل إلى الخبر شائبةُ وَهْم، من جهة نسيان أو خطأ أو ذهولٍ وَقَعَ من بعض رواته، ومهما كان هذا الاحتمال بعيداً، نظراً لتوافر شروط الصحة فيه، فإنه يظلُّ احتمالاً وارداً ولا ينسجم معنى الإمكان فيه ليصبح مستحيلاً. ومن هنا، فإنَّ الخبر الصحيح من شأنه أن يقف عند أعلى درجة الظَّنِّ، دون أن يعلو فوقه إلى درجة الجزم والقطع»، هكذا ينظر الدكتور البوطي إلى أحاديث رسول الله ﷺ التي أجمع المحدِّثون والحفاظ على ثبوت صحيحها وقبولها عن رسول الله ﷺ في العقيدة والشريعة، أنها تقف عند أعلى درجة الظن، دون أن تعلو فوقه إلى درجة الجزم والقطع/ انظر «السلفية مرحلة زمنية» للبوطي ص ٦٥ ـ ٦٧/ ط دار الفكر ـ دمشق/ ، فهل يلزم الأمة تصديق البوطي أو الغزالي «أصحاب الظن»؟ أم يلزمها تصديق أئمة الهدى المجتهدين كالشافعي والثوري والبخاري، ومَنْ على منهجهم من الحفاظ والمحدِّثين والعلماء العاملين، الذين تلقوا أحاديث رسول الله ﷺ بالقبول والتصديق الجازم في العقيدة والشريعة؟؟ نعم!! هل يلزم الأمة الظن ومن ورائه القلق؟ أم يلزمها التصديق الجازم ومن ورائه الإيمان واليقين بما نطق به الرسول الأمين ﷺ؟؟!!.

إنَّ كل عاقل يضطر إلىٰ الجزم بخبر العدل بعقله، وإن أنكر ذلك بلسانه عناداً، وشاهد الحال أوضح برهان علىٰ ذلك، فإنَّ الإنسان يسمع خبراً بقدوم صاحبه أو قريبه فيتلقاه من بعيد، أو يزوره، مع ما يناله في ذلك من المشقة أحياناً أو الانقطاع عن العمل. ويعمل بخبر رسول صاحبه إليه فيعطيه ما طلبه ولو نفيساً، وقد يذهب معه تاركاً أعماله وأمواله، ولو خالجه شكٌّ أو توهم في صدق هذا الخبر لَمَا أقدم علىٰ إنهاك بدنه، أو إضاعة وقته، فلا بدَّ أنَّه جازم بصحة الخبر الذي نقله فردٌ من عامَّة النَّاس. وممَّا لا يستطاع إنكاره عمل العوام بخبر الواحد، وهم لا يعرفون هذا الاصطلاح، فترىٰ أحدهم يقدم علىٰ تجشُّم المشاق، وركوب الأخطار لمجرد خبر قد يكون بكتاب أو بهاتف ونحو ذلك فيبني عليه أسفاراً ونفقات وإضاعة أوقات، لجزمه بصدق ذلك القائل.

وهكذا تقوم حركات الناس في أسواقهم علىٰ خبر الواحد، فتراهم يزيدون في قيم السلع أو ينقصون، أو يجلبونها إلىٰ البلاد النائية ونحو ذلك بناء علىٰ نشرة أو إذاعة أو مكالمة وما ذاك إلا لاعتقادهم صحة الخبر، وتجربتهم صدقه مرة بعد مرة.

والذي تواتر عن السلف والمحدثين وغيرهم من جزمهم بالأحاديث النبوية كثيراً، وإضافتها إلىٰ النبي ﷺ تصريحاً، وحكمهم بصحة ما ثبت عندهم منها، وهكذا تفريقهم عند نسبتها إلىٰ النبي ﷺ بين الصحيح والضعيف والمشكوك فيه، بحيث يذكرون الأول بصيغة الجزم، والثاني بصيغة التمريض، مما هو صريح في قطعهم بالصحيح، وعلمهم بصدوره عمَّن نُسب إليه، ولو كان الجميع سواء في إفادة الظَّنِّ لما فرقوا بينهما بما ذكر.

فأنت تراهم دائماً يقولون: صح عنه ﷺ كذا، وأمر بكذا، أو قال كذا، أو فعل كذا، فعند شكهم في صحة الخبر يعدلون عن الجزم إلىٰ عبارة تفيد توقفهم في صحته، كقولهم: يُذكر عنه كذا، أو يُروىٰ، أو رُوي أو حُكي، أو نحو ذلك، فجزمهم بنسبة الأول الصريح في قطعهم بصحته، وعلمهم بما تضمَّنَهُ، وعدولهم في الثاني عن صيغة الجزم إلى صيغة التمريض، كما مُثِّلَ دليل أنَّه إنَّما يفيد الظَّنَّ عندهم أو الوَهْم، وهذا عملٌ مستمر بين المحدثين وعلماء السنَّة من غير نكير، وليس مرادهم الحكمة بصحة السَّند فقط، كما

توهمه بعض أهل الظن[1]؛ فقد اشتهر عنهم التفريق في التصحيح بين صحة السند وصحة المتن، حيث يقولون للأول: إسناده صحيح، أو صحيح الإسناد، وللثاني: حديث صحيح ونحوه[2].

وإن وجد بين الأمَّة مَنْ أعلنَ ردَّ شيء منها بدون تأويل لم يكن مُعْتَبَراً، ولا خارقاً للإجماع لشُذُوذِهِ ونَكَارَةِ صنيعه.

فقبول علماء الأمة ومجتهديها لهذه الأخبار بدون توقف ولا معارضة لها بأصول أو مذاهب يحقق أن قد اطمأنوا إلىٰ صحتها، وتيقَّنُوا ثبوتها، وذلك كحديث: (لا وصيَّةَ لوارث)، وحديث أخذ الجزية من المجوس، وأحاديث إثبات الشفعة، وزكاة الفطر، وتحريم بيع الولاء وهبته، وأن الولاء لمن أعتق[3]، وأمثالها كثير، مما لم يتوقف أحد من علماء الأمة

---

(١) قارِنْ بين هذه الحُجَّة البيِّنة وبين حُجَّة القائلين بالظَّنّ، فإنَّك ستقف على سبب ظنِّهم الذي يكمن تحت جهلهم بتاريخ السُّنَّة النبوية، وتاريخ رجالها، وتاريخ مراحلها، وبمقدار ما يقف الدارس أو الباحث على ذلك يكون لديه من التصديق واليقين الذي هو عند الحفاظ والمحدِّثين!! فإن الجاهلَ بالشيء عدوٌّ له.

(٢) لقد ضرب الحاكم المثل على هذا بالشواهد الواقعية عند النوع التاسع عشر من علوم الحديث «وهو معرفة الصحيح والسقيم» ص ٥٨ ـ ٥٩/ ثم قال: «وهذا حديث تداوله الثقات هكذا، وهو في الأصل معلولٌ واهٍ. ففي هذه الأحاديث الثلاثة قياس على ثلاث مائة، أو ثلاثة آلاف، أو أكثر من ذلك»، ثم قال: «إن الصحيح لا يعرف بروايات فقط، وإنّما يُعرف بالفهم والحفظ وكثرة السماع، وليس لهذا النوع من العلم عون أكثر من مذاكرة أهل الفهم والمعرفة ليظهر ما يخفى من علَّة الحديث. فإذا وجد مثل هذه الأحاديث بالأسانيد الصحيحة غير مخرَّجة في كتابيْ الإمامين البخاري ومسلم لزم صاحب الحديث التنقير عن علَّته ومذاكرة أهل المعرفة به لتظهر علَّته»/ معرفة علوم الحديث: للحاكم ص ٥٧ ـ ٦٠/ ط الهند تصوير دار إحياء العلوم ـ بيروت.

(٣) حديث: (لاوصية لوارث) رواه أبو داود / ٢٨٧٠/ والترمذي / ٢٢١٤/ وابن ماجه / ٢٧١٣/ وأحمد ج ٥ / ٢٦٧/ عن أبي أمامة / ورواه الترمذي / ٢٢١٥/ والنسائي ج ٦ / ٢٤٧/ والدارمي ج ٢ / ٤١٩/ وأحمد ج ٤ / ١٨٦ و ٢٣٨/ عن عمرو بن خارجة/ ، وحديث أخذ الجزية من المجوس: رواه البخاري / ٢١٥٧/ وأبو داود / ٣٠٤٣/ وغيرهما عن عبد الرحمن ابن عوف/ ، وحديث إثبات الشفعة: رواه البخاري / ٢٢١٣/ وغيره عن جابر/ ، وحديث زكاة الفطر رواه البخاري / ١٥٠٣/ وغيره عن ابن عمر/ ، وحديث النهي عن بيع الولاء وهبته: رواه البخاري / ٣٥٣٩/ وغيره/ ، وحديث الولاء لمن أعتق: رواه البخاري / ٢٥٦٠/ عن عائشة رضى الله عنها، ورواه غيره أيضاً.

المعتبرين في العمل به أو تصديقه بيقين.

بل إن جمهور أحاديث الصحيحين قد تقبلتها الأمة وعملت بموجبها، وذلك تصديق لها يقيناً، كما احتج بذلك بعض أجلاَّء العلماء علىٰ ما اختاروه من إفادتها العلم اليقيني، كابن الصلاح، وأبي طاهر النسفي وغيرهما كما سبق وليس المراد إجماع أفراد من ينتسب إلىٰ الأمة من كل الفرق وفي جميع الأزمنة، فإن أهل البدع المخالفين لبعضها في الإعتقاد لا يحصل لهم العلم بما تواتر منها فضلاً عن الآحاد، فقد رَدَّ الروافض أحاديث فضائل الصحابة رضي الله عنهم مع تنوعها، وكذا أحاديث المسح علىٰ الخفين، وهي من التواتر المعنوي، ورد المعتزلة أحاديث الشفاعة ونحوها[1].

فخلاف مثل هؤلاء لا يعتبر، حيث إنَّهم لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، فقد قبلوا أحاديث كثيرة ممَّا في الصحيحين أو غيرهما دون هذه في الصحة، واعتبروها أدلَّةً يقينيَّةً مع أنَّها آحاد.

ثم إنَّ الاعتبار في الإجماع علىٰ كل فن بأهله المشتغلين به، فلا تضرُّ مخالفة من أعرض عنه واشتغل بغيره، كما لا تضر مخالفة أهل الطب والعربية وأهل الكلام في هذا الباب، لعدم أهليتهم لمعرفة طرقه ومتونه ونقلته ونحو ذلك، ثم إنَّه لا يراد أيضاً بالإجماع اتفاق كل فرد من الأمة علىٰ العمل بكل فرد من أحاديث الصحيحين، فقد استثنىٰ ابن حجر وغيره ما تعقبهما عليه أحد الحفاظ أو وقع التجاذب بين مدلوليه[2].

ولقد أتىٰ علىٰ هذين الصحيحين أكثر من أحد عشر قرناً انتشر فيها ذكرهما في أقطار البلاد، وبين طبقات المسلمين، في شرق البلاد وغربها، وما زال علماء المسلمين ينقلون منهما، ويستدلون بأحاديثهما، ويرجعون

(١) ما من فرقة من الفرق الضالة المبتدعة إلاَّ شاركت في إثم هجر السنَّة النبوية وتعطيل العمل بها، وعدم الاعتقاد فيها، بزعم أنها آحاد، وهذا الزعم لم يقل به أحدٌ من الصحابه ولا التابعين وتابعيهم، ولا الأئمة المجتهدين، ثم تسرَّبت إلى المتكلمين والمنتسبين لأهل السنة، فحملوا لواء تعطيل الاعتقاد بالسنة، وزعموا كما زعم أولئك أنها آحاد، فلا هم اتبعوا الأئمة المهتدين، ولا خالفوا المبتدعين الضالين.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر /ت ٨٥٢هـ/ في كتابه «نزهة النظر» ص ١٠/ ط مصر.

إليهما عند التنازع، وقلَّ أن يوجد مؤلَّفٌ في العبادات أو الاعتقادات لعالم مُعْتَبَر إلاَّ وفيه ذكر للصحيحين أو مؤلِّفَيْهما، أو النقل منهما أو من أحدهما.

ولم يذكر عن أحد من العلماء المعتبرين طوال هذه القرون الطعن علىٰ الشيخين بعدم الحفظ، أو أنَّ ما في الكتابَيْنِ غير ثابت أو نحو ذلك. ولقد نشرت مجلة العربي الصادرة في الكويت في عدد فبراير ١٩٦٦م مقالاً للأستاذ عبد الوارث كبير، يفيد الطعن علىٰ أحاديث في البخاري، فأثار هذا المقال حفائظ العلماء الغيورينِ علىٰ الدِّين، وأظهروا الاستياءَ والتَّسَخُّطَ، وأعلنوا ذلك بمقالاتهم التي نشروها في أغلب المجلات والصحف، في أكثر البلاد الإسلامية. ثم بتأمل ذلك المقال الشنيع يتضح اتصاف قائله بالجهل المركَّب، سيما في باب علم الحديث روايةً ودرايةً.

فتعظيم الأمة لهذين الكتابين[1]، والرجوع إلىٰ أحاديثهما عند الاختلاف، والتشنيع علىٰ مَنْ تركَ شيئاً ممَّا فيهما ولو بتأويل، والنقل المستمر منهما عند أفراد العلماء، هذا وغيره ممَّا حمل ابن الصلاح وغيره علىٰ الجزم بصحة ما فيهما[2].

وعلى كل حال فقد حصل الإجماع من الصحابة والتابعين، وسلف الأمة علىٰ قبول مثل هذه الآحاد، والعمل بها، وترك الاجتهاد لأجلها، ممَّا يُؤكد يقينهم بصحتها، وصدورها عمَّن نُسِبَتْ إليه.

مخالفة أصحاب البدعة لا تضرُّ بإجماع أهل السُّنَّة:

لا تعتبر مخالفة من تأخَّر عنهم، أو من ليس من أهل صناعتهم؛ ذلك أنَّ الاعتبار في كل علم بأهله، لا بمن أعرض عنه إلىٰ سواه.

فلا تعتبر مخالفة الخوارج، والمعتزلة، والشيعة ونحوهم، كما لا تعتبر مخالفة الأطباء والنحاة، والمتكلمين ونحوهم، ممَّن ليس لهم اشتغال بطرق

---

(١) قال الإمام النووي /ت ٦٧٦هـ/، والإمام السيوطي /ت ٩١١هـ/: «وهما أصحُّ الكتب بعد القرآن العزيز»/ تدريب الرواي ج١/ ٩١ ط مصر.

(٢) مقدمة علوم الحديث: للإمام ابن الصلاح /ت ٦٤٣هـ/.

الحديث ورجاله، وتتبع رواياته ومتابعاته، ونحو ذلك ممّا هو عمل أهل الحديث.

وإذا تحقق هذا الإجماع من مجتهدي الأمة وأتباعهم، فإنَّ الأمَّةَ معصومةٌ أن تجتمع علىٰ خطأ أو ضلالة، فإذا حصل الإجماع علىٰ اعتبار قياس أو ترجيح أحد الاحتمالين في النص، أو العمل بالحديث الحسن، دلَّ ذلك علىٰ صحة ما أجمعوا عليه.

وقد كان النبي ﷺ يعتبر توافقهم حتىٰ في الرؤيا كما قال: (أرىٰ رُؤْيَاكُم قَدْ تَوَاطَأَتْ في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فمَنْ كان متحريهَا فليتحرَّهَا في السَّبعِ الأَوَاخِر)[1] يعني ليلة القدر.

وإذا قدر جواز الخطأ علىٰ الواحد من أفراد الأمة فوقوعه من الجميع ممتنع، كما أنَّ الواحد من نقلة التواتر يجوز عليه الخطأ، ولا يجوز علىٰ المجموع[2].

فخبر الواحد إن قيل: إنَّه بمجّرده ظني، فإنَّ تَقَبُّلَ الأمَّة له وعملها بموجبه يُوجب أن يكون قطعياً، فإنَّ عمل الأمة بما هو كذب في الباطن لا يجوز، لأنَّه خلاف ما ضَمِنَ الله لها من العصمة والحفظ لدينها وعقيدتها.

---

(١) أخرجه البخاري /١١٥٨/ ومسلم ج ٧/ ٥٧/ عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية /ت ٧٢٨هـ/ رحمه الله تعالى: «أكثر متون الصحيحين معلومةٌ متقنةٌ، تلقاها أهلُ العلم بالحديث بالقبول والتصديق، وأجمعوا على صحتها، وإجماعهم معصوم عن الخطأ. كما أنَّ إجماع الفقهاء على الأحكام معصوم عن الخطأ، ولو أجمعَ الفقهاء على حكم كان إجماعهم حُجَّةً، وإن كان مستند أحدهم خبر واحد، أوقياساً أو عموماً، فكذلك أهَل العلم بالحديث إذا أجمعوا على صحة خبر أفاد العلمَ، وإن كان الواحد منهم يجوز عليه الخطأ، لكنَّ إجماعهم معصومٌ عن الخطأ»!!.

ثم قال: «فإنه وإن كان [الحديث الصحيح الآحاد] في نفسه لا يُفيد إلاَّ الظَّنَّ [على زعم المتكلمين] لكن لمَّا اقترن به إجماع أهل العلم بالحديث على تلقيه بالتصديق؛ كان بمنزلة إجماع أهل العلم بالفقه على حكم مستنديه في ذلك إلى ظاهر أو قياس، أو خبر واحد، فإن ذلك الحكم يصير قطعياً عند الجمهور، وإن كان بدون الإجماع ليس بقطعي، لأن الإجماع معصوم، فأهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام، ولا يحرم الحلال، وكذلك أهل العلم بالحديث لا يجمعون على التصديق بكذب، ولا التكذيب بصدق»/ مجموع الفتاوى ج ١٨ /٤٨ ـ ٤٩/ ط السعودية.

فإذا روي في السنة خبر ليس بصحيح، فلا بدَّ أن يوجد في الأمة من ينكره، ويُبيِّن بطلانه، ممَّن تقوم ببيانه الحجة، وهذا ما كان ولله الحمد!!.

وقد حصل الإجماع علىٰ العمل بأغلب أحاديث الصحيحين وغيرهما؛ فدلَّ علىٰ أنَّه صدقٌ وحقٌّ في نفس الأمر، وإلاَّ كان الإجماع منعقداً علىٰ العمل بما هو كذب، وهو ممَّا يُعلم بطلانُهُ قطعاً.

وأيضاً فإنَّه لا يجوز في الشريعة التباس الحق بالباطل، دون دليل يتميَّز به كلٌّ من الآخر، فقد جعل الله علىٰ الحق من النّور والضياء ما يعرفه به أهلُ المعرفة بالله وبدينه وبشرعه[1].

أما أهل التقليد الأعمىٰ، والإعراض عن شعائر الدِّين، فلا يستبعد أن يخفىٰ عليهم الحقُّ الواضحُ، لفقدهم البصر النافذ في دين الله، كما يشتبه الليل والنهار علىٰ مَنْ فَقَدَ عينيه اللَّتين يبصر بهما المحسوسات، فهؤلاء لمَّا أظلمتْ قلوبُهم، لخلوِّها من نور الله المستمدِّ من شريعته، وإقبالها علىٰ زبالة الأذهان، ونَحَاتَةِ الأفكار، لا جَرَمَ كذَّبُوا بأحاديث نقَلَها خيارُ الأمَّة وأصدقها لهجة، وصدَّقُوا أقوالاً وتُرُّهاتٍ توافق عقولهم، مع أنَّه لا حقيقة لها[2].

---

(١) إنَّ وحي الله تعالى من الكتاب والسنَّة محفوظ كله بحفظ الله تعالى له بيقين، قال سبحانه: ﴿إنَّا نحنُ نزّلنَا الذكرَ وإنَّا لهُ لحافظون﴾ [سورة الحجر، الآية ٩]، وقال سبحانه: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكر لتبيِّن للنَّاس ما نُزل إليهم﴾ [سورة النحل، الآية ٤٤] فحفظ الله تعالى كتابه وبيانه، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون أن لا يضيع منه شيء، وإن لا يحُرَّف منه شيء، ولا سبيل ألبتة إلى أن يختلط بوحي الله تعالى باطل موضوع اختلاطاً لا يتميّز عن أحد من الأمّة بيقين، إذْ لو جاز ذلك لكان الذكر وبيانه غير محفوظين، ولكان وعد الله تعالى مخلفاً، وهذا لا يقوله مسلم.

فإذا صح هذا فقد ثبت يقيناً أن أحاديث رسول الله ﷺ التي نقلها إلينا الواحد العدل الثقة الحافظ عن مثله مبلغاً إلى رسول الله ﷺ حقٌّ مقطوع به، موجب للعلم معاً؛ وذلك لاعتقادنا بحفظ الله تبارك وتعالى لسنَّة رسول ﷺ، وهذا الذي كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة المجتهدون، ولم يرد عنهم خلاف ذلك ألبتة،/ انظر الإحكام في أصول الأحكام: لابن حزم ج ١ /١٠٧ ـ ١١٣/ والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن قيم الجوزية ج ٢ /٥٧٥ و ٦٣٠/.

(٢) وهذا ما عليه أكثر المتكلمين الذين خالفوا منهج السلف الصالح في ردّ الأخذ بالأحاديث الصحاح في العقيدة بزعم أنها آحاد، ثم صدقوا بما يُناقضها ويخالفها ـ نسأل الله تعالى العفو والعافية.

الدليل السمعي المتفق عليه، وهو ما في القرآن من ذم أهل التخرُّص والظَّنَّ والنّهي عن القول علىٰ الله بلا علم، كقوله تعالىٰ: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ ربِّي الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ منهَا ومَا بَطَنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ، وأنْ تُشْرِكُوا باللهِ ما لم يُنَزِّلْ بهِ سُلْطاناً، وأنْ تَقولُوا علىٰ الله ما لا تعلمُون﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هلْ عندكم مِنْ عِلْم فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟ إنْ تَتَّبعُون إلاَّ الظَّنَّ، وإنْ أنتُمْ إلاَّ تَخْرصُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللّهِ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ، وإنْ هم إلاَّ يَخْرصُون﴾[٤]، وقوله: ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ، وما تهوَىٰ الأنْفُسُ، ولقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الهُدَىٰ﴾[٥]، وقوله: ﴿ومَا لَهُمْ بهِ مِنْ علم إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شيئاً﴾[٦]، وقوله: ﴿وما يَتَّبعُ أكثرُهُمْ إلاَّ ظَنّاً، إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شيئاً، إنَّ الله عليمٌ بما يفعلُونَ﴾[٧]، وقوله، حكاية عن الذين كفروا، علىٰ وجه الذَّمِّ لهم: ﴿إنْ نَظُنَّ إلاّ ظنّاً وما نحنُ بِمُسْتَيْقِنين﴾[٨]، وأمثال هذه الآيات كثير.

لقد تضمنت هذه الآياتُ النهيَ عن القول علىٰ الله في دينهِ بلا علم، وعن اتباع الإنسان ما ليس له بهِ علمٌ، والنهيُ عن التَّعبُّد بموجب الظّنّ وما تهواه النَّفسُ، وأخبر أنَّ هذا الظَّنَّ ليس من الحقِّ في شيء.

وما زال المسلمون في كلِّ زمان ومكان يُفْتُون بموجب هذه النُّصوص، وإن كانت آحاداً، ويُحلُّون بها أشياءَ ويُحرِّمُونَ أشياء، ويُعاقِبُون علىٰ تركها، ولو كانت إنَّما تفيد الظَّنَّ عندهم لدخلوا تحت قوله تعالىٰ: ﴿ولا تَقُولُوا لما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هذا حَلالٌ وهذا حَرَامٌ، لِتَفْتَرُوا علىٰ الله الكَذِبَ﴾[٩].

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٤٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١١٦.
(٥) سورة النجم، الآية ٢٣.
(٦) سورة النجم، الآية ٢٨.
(٧) سورة يونس، الآية ٣٦.
(٨) سورة الجاثية، الآية ٣٢.
(٩) سورة النحل، الآية ١١٦.

فالقائلون بأنها ظنِّيَّة[1] ويجب العمل بها، يلزمهم القول بأنَّ الله أمر بما نهىٰ عنه، وما ذَمَّهُ في هذه الآيات، حيث أوجب أن نحكم في دينه وشرعه بأدلّةٍ مُتَوَهِمَةٍ، وقدْ نَهَانَا عن التَّخرُّص في الدِّين، وأخبر أنَّه خلاف الهدَىٰ الذي جاءَهم من ربِّهم، وإذاً فلا فرقَ بينَ أهلِ الظَّنِّ وبينَ أولئكَ المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[2]، وقد نهىٰ اللَّهُ نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام أن يقفوَ ما ليسَ له به علم، بل جعلَ القولَ عليه بلا علم في منزلة فوق الشرك، كما في آية المحرمات في سورة الأعراف، حيث ترقىٰ من الأسهل إلىٰ الأشد، فبدأ بالفواحش، ثم بالإثم وهو أشدّ، ثم بالبغي وهو أعظم من الإثم، وبعده الشرك أشدُّ منه، ثم القول علىٰ الله بلا علم، فأيُّ ذَمٍّ أبلغُ من هذا؟!!!.

وقد تكلَّف بعض المتكلِّمين الجواب علىٰ هذا الدليل، فذكر الآمدي[3] وجهين في ذلك وهما:

---

(١) الظنُّ سبيل الشك، والصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل الإسلام لم يشكُّوا فيما يُخْبَرُون به من أحاديث رسولهم ﷺ الواردة في العقيدة والشريعة، وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في الصفات تلقاه بالقبول، واعتقد به على القطع واليقين، كما اعتقد رؤية الرَّبِّ وتكليمه ونداءه يوم القيامة لعباده، وحسابه لهم يوم الفصل، وغير ذلك من أمور العقيدة، فمن سمع هذه الأحاديث ممّن حدَّث بها عن رسول الله ﷺ؛ اعتقد ثبوت مقتضاها بمجرَّد سماعها من العدل الصادق الضابط الحافظ، ولم يرتبْ فيها، ولم يردَّها بالظنِّ؛ فالقائلون بظنِّية الأحاديث الصحاح خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة، وإجماع التابعين، وإجماع الأئمة المتَّبِعين، ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة، وتبعهم بعض الأصوليين الفقهاء المتأخرين، وإلاّ فلا يُعْرَف لهم سلف من الأئمة بذلك، بل صرَّح الأئمة بخلاف قولهم، فممَّنْ نصَّ على أنَّ خبر الواحد [العدل الضابط الثقة] يفيد العلم: مالك، والشافعي، وأصحاب أبي حنيفة، وغيرهم، رضي الله عنهم/ انظر الصواعق المرسلة: لابن قيم الجوزية ج ٢ / ٥٧٢ ـ ٥٧٧/ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٤٨.

(٣) الآمدي: في الإحكام في أصول الأحكام ج ٢ /٣٦/ ط مصر/ والآمدي؛ هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الفقيه الأصولي، الملقب: سيف الدِّين الآمدي، كان في أول شغله حنبلي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، انحدر إلى بغداد، ثم انتقل إلى الشام، واشتغل بفنون المعقول، وصار أحفظ أهل زمانه لهذه العلوم، ثم انتقل إلى مصر، واشتهر فيها، وقد تعصب عليه أهلها ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل =

١ ـ أنَّ العمل بالآحاد عمدته الإجماع علىٰ وجوب العمل بها، لا خبر الواحد، وهذا الإجماع قطعي الدَّلاَلة لا ظنِّيَّ الدَّلاَلة.

٢ ـ حمل هذه الآيات علىٰ ذم الظن والتخرص في أمور الاعتقاد، وما لا بدَّ فيه من اليقين، والجواب عن الأول: أنَّه وافق علىٰ وقوع الإجماع، وقد بينَّا أنَّ الإجماع دليل القطع بالنَّصِّ المجمع علىٰ العمل به.

والجواب عن الثاني أنَّا نمنع التَّفريق بين الأصول والفروع، وسيأتي إن شاء الله أنَّ الأصول ممَّا تثبت بالآحاد، فالنَّهي عن الظَّنِّ علىٰ عمومه في الجميع ويُراد به ما لم يكن مبنيًّا علىٰ دلائلَ وأمارَاتٍ تُوْجِبُهُ، بل هو مجرَّدُ وهمٍ وتخمين.

وما اشتهر عن الصحابة رضي الله عنهم من قولهم للآحاد وتصديقهم بها، كما اشتهر عن أهل قباء من تحولهم إلىٰ جهة الكعبة وهم في الصلاة، اعتماداً علىٰ خبر واحد[1]، وهو من أوضح البراهين علىٰ حصول العلم لهم بصدقه، وإلاَّ لما انصرفوا عن قبلة قد تحققوها اعتماداً علىٰ خبر لا يُوجب إلاَّ الظن.

وكذا ما اشتهر عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه من بنائه علىٰ خبر الذي أفادهم بتحريم الخمر، حيث أتلفها، وكسر جرارها، وفي ذلك إضاعة

= ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا فيه بما يُستباح به الدم، فترك البلاد، وخرج مستخفياً، وتوصل إلى الشام، واستوطن مدينة حماه. وصنّف في أصول الفقه والدِّين والمنطق والحكمة والخلاف. وانتقل إلى دمشق، وبها توفي سنة ٦٣١هـ/ ودفن بسفح جبل قاسيون/ وفيات الأعيان: لابن خلكان /ت ٦٨١هـ/ج ٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤/ ط دار صادر بيروت.

(١) حديث تحويل القبلة: أخرجه البخاري ج ١ /١١٣ و ج ٣ /١٩٩ ـ ٢٠١ و ج ٤ /٤١٤/، و مسلم ج ٢ /٦٦/ وكذا أبو عوانة في صحيحه ج ١ /٣٩٤/ ، ومالك في الموطأ ج ١ / ١٩٥/ ، والشافعي في «الأم» ج ١ /٨١ ـ ٨٢/ ، وعنه البيهقي ج ٢ /٢/ ، والنسائي ج ١ / ٨٥ و ١٢٢/ ، والدارمي ج ١ /٢٨١/ ، والدارقطني ص ١٠٢/ ، وأحمد ج ٢ /١٦، ٢٦، ١٠٥/ من حديث ابن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذْ جاءهم آتٍ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة؛ فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستدارو إلى الكعبة. قال أبو عوانة: وهذا الحديث مَّما يحتج به في إثبات الخبر الواحد. انظر إرواء الغليل: للألباني ج ١ /٣٢٢/ .

لمال محترم، ولو لم يكن متحققاً صدق ذلك الخبر لما أقدم علىٰ هذا الإتلاف، وأمثلة ذلك كثيرة.

وما اشتهر عن الصحابة والسلف من الشهادة علىٰ الله وعلىٰ رسوله بموجب هذه الأخبار، ولا شك أنهم لا يشهدون بما لا يعتقدون صحته وقد قال تعالىٰ: ﴿وكذلكَ جعلناكُم أمةً وسَطاً، لتكونوا شهداءَ علىٰ الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكُمْ شهيداً﴾[1]، فوصفهم بأنَّهم وَسَطٌ أي عُدُولٌ خِيَارٌ، وبأنَّهم يشهدون علىٰ النَّاس، أي: بأنَّ الله أمرهم بكذا، وفرضَ كذا، وبلَّغهم دينَهُ، وأزالَ عُذْرَهم.

ثم هم ينقلون آثار نبيِّهم التي أمرهم بإثباتها، ويشهدون بكونها من دينه، وقد قرأوا قوله تعالىٰ: ﴿إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهم يعلمُونَ﴾[2] وروي أن النبي ﷺ قال لرجل: (تَرىٰ الشمسَ)؟ قال نعم، قال: (علىٰ مثلِها فاشْهَدْ أوَ دَعْ)[3].

فشهادتهم بهذه الأخبار عن نبيِّهم تُوجب صدقهم واليقين بما قالوه لِمَا عُرف من عدالتهم، وتورعهم عمَّا فيه شك أو تردُّد.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا أهلَ الذّكرِ إنْ كنتُم لا تعلمُونَ﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿فلَولاَ نَفَر مِنْ كلِّ فِرْقَةٍ منهُمْ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين، ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهم لعلَّهُم يَحْذَرُون﴾[5]، ولولا أنَّ جواب أهل الذكر، وإنذار الطائفة قومها يفيد العلم لما أمرَ بهِ؛ فإنَّ أهل الذكر يعم ما لو كان واحداً، والطائفة تعم الواحد، والإنذار هو الإعلام بما يُفيد العلمَ ليحصلَ الحَذَرُ.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٨٦.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام برقم ١٤٣٣/ وقال: سنده ضعيف. وروى الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٩٨ عن ابن عباس قال: ذُكر عند رسول الله ﷺ الرجل يشهد بشهادة، فقال لي: (يا ابن عباس لا تشهدْ إلاّ على ما يضيء لك كضياء هذه الشمس) وأومأ رسول الله ﷺ إلى الشمس. قال الحاكم: هذا حديث صحيح. ولم يوافقه الذهبي.

(٤) سورة النحل، الآية ٤٣.

(٥) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

تواتر الأخبار عن النبي ﷺ بإرسال آحاد الصحابة لتبليغ القرآن لأهل الآفاق :

لقد تواتر عن النبي ﷺ من بعثه الآحاد إلىٰ أطراف البلاد، ليبلغوا عنه ما أمره الله بتبليغه من الدِّين، وليعلموهم كتابَ الله، وسنَّة رسوله ﷺ. ولولا أنَّ أخبارهم تفيد العلم لم يحصل البلاغ، ولحصل التوقف من المدعوين ولم يُنقل أن أحداً منهم قال لمن علَّمه شيئاً من الدين، أو طلب منه جزية، أو زكاة أو نحوها: إنَّ خبرك لا يفيد العلم، فأنا أتوقف حتىٰ يتواتر الخبر بما ذكرتَ.

وقد اكتفىٰ ﷺ بتبلغهم عنه، وتعليمهم ما أمر الله به. وقد حصل بذلك تبليغ الرسالة الذي كلَّفه الله به بقوله: ﴿بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّك﴾[1] ونحوها منه، ومن رسله وأتباعه بعده، وبذلك قامت حجة الله علىٰ الخلق، ومحال أن يحصل البلاغ بما فيه شك أو توهم[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتاب «السلفية مرحلة زمنية» ص ٦٧ في مسألة قبول أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها آحاد الصحابة: «فحيثما وَجَدَ حديثاً [أي الباحث] عن رسول الله ﷺ يتضمن حكماً في العبادات أو الأحكام الشرعية الأخرى، وكان الراجح والمظنون في ذلك الحديث هو الصدق لتوفر شرائط الصحة فيه، وجب عليه بالدليل اليقيني المتواتر التمسُّك بذلك الحديث والاهتِداء بهديه والالتزام بمقضاه. أمَّا الدليل اليقيني على ذلك، فهو ما تواتر عن رسول الله ﷺ من إرساله آحاد الصحابة إلى البلاد والقبائل المجاورة والبعيدة، ليعلِّموا أهل تلك البقاع أحكام الشرعية الإسلامية من عبادات ونحوها. وقد علمنا أنَّ العقل يظلُّ يفرض احتمال السهو والغلط والنسيان في حق أولئك الآحاد، ومع ذلك فإن النبي ﷺ كان يأمر أهل تلك البلاد باتباع ما يرشدهم إليه هؤلاء الآحاد الذين يبعثهم منتشرين في تلك الأصقاع، فكأنَّه يقول لهم: حيثما أخبركم هؤلاء الرسل بشيء من أمر دينكم، ممَّا يدخل في نطاق التطبيقات السلوكية، وظننتم الصدق في كلامهم، فواجبكم تطبيق ذلك والأخذ به».

ولنا حول كلام الدكتور البوطي هذا تساؤلات عدَّة منها:

١ ـ هل ثبت بالدليل اليقيني المتواتر الذي ذكره هنا قبول الحديث والاهتداء بهديه والالتزام بمقتضاه على أساس الظَّنِّ والرجحان، أم قبوله على أساس القطع واليقين؟.

فإن كان يزعم أنَّ الدليل اليقيني المتواتر في ذلك قد قام على قبول أخباره ﷺ على أساس الظن والرجحان، فإنا نقول له: إنَّ آحاد الصحابة كانوا يبلغون الناس في أصقاع الأرض في حياته ﷺ كلام الله تعالى، فهل كان الناس يقبلون كلام الله منهم على أساس الظنِّ والرجحان؟ أم كانوا يقبلونه على أساس القطع واليقين؟ فإن قال بالأول فقد أخطأ ولم =

ثم إنَّ الله أمر بردِّ ما يحصل فيه النزاع إليه وإلىٰ رسوله في قوله تعالىٰ: ﴿فإنْ تَنَازَعْتُم في شيءٍ فَرُدُّوهُ إلىٰ الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فليحذرِ الَّذينَ يُخَالِفُونَ عن أمرهِ أنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أو يُصيبَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾[2].

= يُصِبْ، وإن قال بالثاني قلنا له: لِمَ تفرّق بين تبليغ آحاد الصحابة للقرآن وبين تبليغهم لأخباره وأحاديثه ﷺ؟!.

٢ ـ كيف عرف الدكتور أنَّ قاعدته التي علَّمنا إياها: أنَّ العقل يظل يفرض احتمال السهو والغلط والنسيان في حق أولئك الآحاد [ويعني بهم الصحابة] أنها تنطبق على رُسُلِ رسولِ الله ﷺ؟ فهل خبَرَهُمْ واطلع على سهوهم وغلطهم ونسيانهم؟؟ أم أنه قاسهم على نفسه في سهوه وغلطه ونسيانه؟؟ وهل علمَ منهم ما لم يعلمه رسول الله ﷺ من أصحابه من سهو أو غلط أو نسيان؟؟ أم أنَّه يتقوّل في ذلك من تلقاء نفسه؟!.

٣ ـ من أين اقتبس الدكتور مقولته التي يُشبِّه فيها ـ فيما قاله ـ: كأنّه ﷺ يقول لهم [أي لأهل الأصقاع]: حيثما أخبركم هؤلاء الرسل بشيء من أمر دينكم، مّما يدخل في نطاق التطبيقات السلوكية، وظننتم الصدق في كلامهم، فواجبكم تطبيق ذلك والأخذ به؟؟! ولا أحدَ ممن صحب النبي ﷺ أو عاصره حَكَى ما يفيد التقوُّل؟؟! وإنَّا لنعجب من هذه المقولة كم حوت من المغالطات!!.

فمتى كان النبي ﷺ يطلب من الناس أنَّه إذا جاءهم رُسُلُه ممَّا يدخل في التطبيقات السلوكية وظنّوا الصدق في كلامهم، فواجبهم تطبيق ذلك والأخذ به؟؟!.

فهل حَصَرَ رسولُ الله ﷺ تبليغ أصحابه في نطاق التطبيقات السلوكية، ومنعهم من تبليغ أصول العقيدة؟.

وهل إذا ظنَّ الناس في رُسُلِهِ عدمَ صدقهم، كانوا معذورين في عدم الاستجابة للإسلام؟.

وإنَّا لنردُّ على هذا التكلّف الكلامي الذي يسلكه أهل الظنون بالسنَّة النبوية لردِّها أو تعطيل العمل بها، أو عدم التصديق الجازم فيما جاءنا فيها من عقائد نبوية، بما هو معروف في الدِّين بالضرورة من أن آحاد الصحابة كانوا يبلِّغون عن رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد، والقرآن الكريم، والسنَّةَ النبوية، كما كانوا يبَلغون الآدابَ الإسلامية والأخلاق النبوية، ولم يُؤثَرْ عن أحدٍ منهم قطعاً أنَّه ميَّز بين قبول ما يتعلق بالأحكام السلوكية، وبين الأحكام الاعتقادية، بل كانوا جميعاً، الداني منهم والقاصي، يقبل خبر الصحابي الواحد من غير تردُّد ولا ظنٍّ ولا ترجيح بين خبر صحابي واحد، وبين خبر أكثر من صحابي.

ولا أدلَّ على ذلك من إجماع الصحابة على قتال المرتدين الذين أسلموا على أيدي آحاد الصحابة، حيث اعتبروهم خارجين عن الإيمان والإسلام، ولم يدَّع أحدٌ منهم أن أولئك دخلوا في الإسلام بخبر آحاد الصحابة، وإن خبر الواحد منهم يفيد الظنَّ لا القطع، كما يزعم أصحاب الظنون من المتكلمين، ومن سلك منهجهم فلِمَ قاتلُوهم إذن؟!.

(١) سورة النساء، الآية ٥٩. (٢) سورة النور، الآية ٦٣.

والرَّدُّ إلىٰ الرسول هو الردُّ إليه في حياته، وإلىٰ سنته بعد موته، ولو كانت سنته إنَّما تفيد الظَّنَّ لم ينفصل النزاع بالرَّدِّ إليها.

ومن المعلوم أن أكثر أحاديث الرسول ﷺ إنَّما رويت آحاديَّة، ولم يزل سلف الأمة ومن تبعهم يتحاكمون إليها امتثالاً لهذا الأمر، ويجعلونها فاصلةً للنزاع بينهم، ويرضون بها حكماً، ويشتد إنكارهم علىٰ من امتنع عن قبولها، ويُخوِّفُونه بالفتنة والعذاب الأليم الذي تَوَعَّدَ الله به من خالف أمر رسول ﷺ، ولو كان أمره الوارد في هذه الأخبار لا يفيد يقيناً لكان المخالف له معذوراً عندهم، وهو خلاف الإجماع كما تقدم.

ولقد صحَّ عنه ﷺ من أمره ﷺ بالتبليغ عنه، وذمه لمن رَدَّ ما سمعه عنه، حيث قال: (لا ألفين أحدكم متكئاً علىٰ أريكته، يأتيه الأمر من أمري يقول: لا ندري ما هذا؟ بينَنَا وبينَكم كتابُ الله، ألاَ وإنِّي أُوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معه)[1]، وقال في الحديث الصحيح عنه: (نَضَرَ الله امرءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وأدَّاها كما سَمِعَها، فَرُبَّ مُبَلِّغ أوعىٰ مِنْ سَامِع)[2]، فانظر كيف أمر كل فرد سمع علماً عنه بالتبليغ، ولولاً أنَّه يفيد العلم لَم يأمر بقبوله، ولَمَا توعَّدَ علىٰ رَدِّهِ، حيث أنَّ في إمكان السامع أن يقولَ: خَبَرُكَ مظنونٌ فيه، فلا يلزمني قبوله.

فالنبي ﷺ لا يأمر من التبليغ إلاَّ بما تقوم به الحجة علىٰ السامع، ففي دعائه لمن حفظ عنه ثم بلغ ما حفظ ولو كان واحداً، ولو غير فقيه، وفي

(١) أخرجه أبو داود في سننه /رقم ٤٦٠٤/ وسكت عنه هو والمنذري، وهو تحسين منهما للحديث. وأخرجه أحمد في مسنده ج ٤ /١٣١/. والترمذي /رقم ٢٨٠٢/ وابن ماجه في أول سننه.
وذكر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح أبي داود /رقم ٣٨٤٩/ وفي صحيح سنن الترمذي /رقم ٢١٤٥/.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ /٨٠/ وابن ماجه /رقم ٢٣٠/ والدارمي في سننه ج ١ /٧٥/ وأبو داود في سننه /رقم ٣٦٦٠/ والترمذي /رقم ٢٧٩٥/ بنحوه.
وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح أبي داود /رقم ٣١٠٨/. وصحيح الترمذي /رقم ٢١٣٩و ٢١٤٠/.

تحذيره من رَدَّ خبره أوضح دليل علىٰ حصول العلم لمن وصل إليه هذا العلم عن هذا الثقة الحافظ.

وهذه صفة صحابته رضي اللَّهُ عنهم، وهكذا فعلوا، وقد تقبل عنهم جمهورُ الأمَّةِ جميعَ ما نقلوه عن نبيِّهم موقنين بصحته، من غير ظنٍّ في احتمالِ خطأٍ أو سهوٍ أو تقصيرٍ!..

البحث الخامس

الحُجَّة في أنّ خبر الواحد يُفيد العلم بالقَرائن وبيان أنواع القرائن

إنَّ من أقوى القرائن لإفادة خبر الواحد العلمَ؛ هو جزم أهل الحديث بصحته، وسائر النَّاس تبعٌ لهم في معرفة الحديث؛ فإجماع أهل العلم بالحديث على أنَّ هذا الخبر صدقٌ كإجماع الفقهاء على أنَّ هذا الفعل حلال أو حرام أو واجب، وإذا أجمعَ أهلُ العلم في الحديث على صحة خبر فسائر الأمة تبعٌ لهم، فإجماعهم معصوم لا يجوز أن يجمعوا على باطل[1]!!

إن القرائن تنقسم إلىٰ متصلة ومنفصلة.

١ ـ أمَّا **المتصلة** فيُراد بها أحوالُ الراوي أو المروي أو السامع:

أ ـ أمَّا أحوال الرواة، فمثل كونهم من أهل الصدق والأمانة إلىٰ آخر الشروط[2]، ومثل توافق العدد علىٰ نقل حديث واحد، أو توارد راويين علىٰ سياق متقارب، مع اختلاف الآراء، وتباعد الديار، مما يعلم به أنَّهما لم يتواطآ عليه، ويبعد في العادة اتفاقهما علىٰ الكذب[3].

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٨ /١٧و ٤١و ٤٨و ٤٩/.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج ١٨/ ٤١: «وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وهو قول أكثر أصحاب الأشعري كالإسفرائيني وابن فورك».

(٢) اشترط في الراوي العدالة؛ لنأمَنَ من تعمُّد الكذب، واشترط فيه الحفظ والتيقظ لنأمَنَ من السهو / مجموع الفتاوى: لابن تيمية ج ١٨ / ٤٥/.

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً ج ١٨ / ٢٢: «وعامَّة هذه المتون تكون مروية عن النبي ﷺ =

فهذه ونحوها قرائن يحصلُ العلمُ اليقيني بخبرهم.

ب ـ أمَّا أحوال المروي فإنَّ كلام النبي ﷺ عليه من النور والبهاء والقوة في الأسلوب ما يعرفه به المتبصر في الدِّين.

وكذا موافقته لما تهدف إليه الشريعة، وكذا تأيده بالنصوص الأخرىٰ بمعناه، كل هذه قرائن توجب العلم القطعي به، فلا يلتبس بالكذب والباطل علىٰ كل ذي عقل وفهم صحيح، فإنَّ علىٰ الحقِّ نوراً يُبْصِرُهُ ذو البصيرة السَّليمة الذي يُفرِّق بين الخبر الصادق والكاذب عن رسول الله ﷺ، كما يفرق بين الليل والنهار.

جـ ـ أمَّا أحوال السَّامع فإنَّ مَنْ كان مِنْ أهل الحديث المشتغلين بالسُّنَّة، والعالمين بمقاصد الشرع، وبأحوال الرجال، كانت معرفته بالحديث أتم، وتمييزه بين الصادق والكاذب أقوىٰ، بخلاف المعرضين عن ذلك الذين لا اشتغالَ لهم بعلم الحديث، وليس لهم خبرة بأحوال نقلته، فإنَّهم بمعزل عن معرفة الصحيح منه والسقيم، فلا يتأثَّرون بالقرائن ولا يُفرِّقون بين الأخبار كما هو مشاهد[1]. وقد يدخل في القرائن المتصلة تلقي الأمة للخبر بالقبول،

= من عدَّة وجوه، رواها هذا الصاحب وهذا الصاحب، من غير أن يتواطآ، ومثل هذا يوجب العلم القطعي، فإن المحدِّث إذا روى حديثاً طويلاً سمعه ورواه آخر، ذكر أنه سمعه وقد عُلِمَ أنهما لم يتواطآ على وضعه عُلِمَ أنَّه صدق؛ لأنَّه لو لم يكن صدقاً لكان كذباً.. ويمتنع في العادة أن يتفق الاثنان على الوضع من غير مواطأة منهما، وهذا يوجد كثيراً في الحديث، يرويه أبو هريرة، وأبو سعيد، أو أبو هريرة وعائشة، أو أبو هريرة وابن عمر، أو ابن عباس، وقد علم أنَّ أحدهما لم يأخذه من الآخر، مثل حديث التجلي يوم القيامة الطويل، حدَّث به أبو هريرة، وأبو سعيد ساكت لا ينكر منه حرفاً بل وافق أبا هريرة عليه جميعه إلاَّ على لفظ واحد في آخره».

وما ينطبق على الراويين من الصحابة، ينطبق على كل راويين من سائر الرواة أبداً، فهذا التوافق يعطي معنى الصدق قطعاً.

(١) فهذا الشيخ محمد الغزالي الذي يدعي أنه قضى أربعين عاماً في الدعوة الإسلامية، يقف من السُّنَّة النبوية موقف أهل البدع والضلالة، فينفي كل حديث آحاد ولو كان في الصحيحين أو أحدهما إذا كان يعارضه العقل، ويضيق صدره بأخبار رسول الله ﷺ إذا جاءت عن طريق الآحاد ولو كانت صحيحه الإسناد، بل ولو كانت في الصحيحين، ولا يقيم لها وزناً إذاً خالفت رأيه، حتى ولو تلقته الأمة بالقبول. =

وعملهم بموجبه أو اشتغالهم بتأويله، كما تقبلوا أحاديث الصحيحين في الجملة، وغيرهما مما ثبت كونه من الدين، بإطباق جمهور الأمة علىٰ العمل بما تضمنته.

قال الحافظ ابن حجر في شرح النخبة: والخبر المحتف بالقرائن أنواع:

١ ـ منها ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ممَّا لم يبلغ حدَّ التواتر، فإنه أحتف به قرائن.

أ ـ منها جلالتهما في هذا الشأن.

ب ـ وتقدمهما في تمييز الصحيح علىٰ غيرهما.

جـ ـ وتلقي العلماء لكتابيهما بالقبول.

وهذا التلقي وحده أقوىٰ في إفادة العلم من مجرد كثرة الطرق القاصرة عن حَدِّ التواتر.

إلا أنَّ هذا يختص بما لم ينتقده أحد من الحفاظ ممَّا في الكتابين، وبما لم يقع التجاذب بين مدلوليه، حيث لا ترجيح، لاستحالة أن يفيد المتناقضان العلم، من غير ترجيح لأحدهما علىٰ الآخر، وما عدىٰ ذلك فالإجماع حاصل علىٰ تسليم صحته.

= يقول الدكتور «ربيع بن هادي المدخلي» في كتابه «كشف مواقف الغزالي من السُّنَّة وأهلها» ص ٣٢: «الخبر المستفيض الوارد من وجوه كثيرة لا مطعن فيها؛ تفيد العلم النظري للمتبحر في هذا الشأن ـ أي في علوم الحديث ـ فهؤلاء جماهير العلماء من أصوليين، وفقهاء، ومتكلمين مع أهل الحديث في أنَّ خبر الآحاد إذا تلقته الأمَّة بالقبول، أو إذا احتفت به القرائن، أو كان مستفيضاً؛ أفاد العلم».

ثم قال: «ومن العجيب أننا لا نرى «الغزالي» يذكر هذه الأنواع في حملاته على أخبار الآحاد، ولا يعبأ بهذه المقاييس لدى علماء الأمَّة التي يخضع لها عُتاة المعتزلة ورؤوسهم، ولا يعبأ بأخبار الصحيحين الي تلقتها الأمة بالقبول، فأي حديث يخالف هواه يضربه ضرب غرائب الإبل، ويتبعه بسيل من التحقير والتسفيه لرواته ولأهل الحديث أو جمهورهم. وهذا أسلوب انفرد به «الغزالي» من بين مَنْ أنكر أخبار الآحاد من أصناف المبتدعين».

ولهذا فإننا يجب علينا أن نكون يقظين لمحاولات من يُشكك بالسُّنَّة النبوية أو يُضعف صلة المسلمين به.

وممَّن صرَّحَ بإفادة ما أخرجه الشيخان العلم النظري الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني[(١)]، ومن أئمة الحديث أبو عبد الله الحُمَيْدي[(٢)]، وأبو بكر الباقلاَّني[(٣)].

٢ ـ ومنها المشهور إذا كان له طرق متباينة، سالمة من ضعف الرواة والعلل، وممَّن صرَّح بإفادته العلم النظري الأستاذ أبو منصور البغدادي[(٤)]، والأستاذ أبو بكر بن فورك[(٥)]، وغيرهما.

٣ ـ ومنها المسلسل بالأئمة الحفاظ المتقنين، حيث لا يكون غريباً، كالحديث الذي يرويه أحمد بن حنبل مثلاً، ويُشاركه فيه غيره، عن الشافعي ويُشاركه فيه غيره، عن مالك بن أنس، فإنَّه يفيد العلم عندَ سامعه بالاستدلال من جهة جلالة رواته، وأنَّ فيهم من الصفات اللائقة الموجبة للقبول ما يقوم مقام العدد الكثير من غيرهم. ولا يتشكَّك من له أدنىٰ مُمَارَسة بالعلم وأخبار الناس، أنَّ مالكاً مثلاً لو شافهه بخبرٍ أنَّه صادق فيه، فإذا انضاف إليه مَنْ هو في تلك الدرجة ازْدَادَ قوّةً وبُعْداً عمّا يخشىٰ عليه من السهو. انتهى[(٦)].

---

(١) أبو إسحاق الإسفرائيني هو: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الفقيه الشافعي المتكلِّم الأصولي، بلغ حدَّ الاجتهاد من العلماء لتبحُّره في العلوم /ت ٤١٨هـ/ وفيات الأعيان ج ١ /٢٨/ وطبقات السبكي ج ٣ /١١١/.

(٢) أبو عبد الله الحميدي هو: محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله، الحميدي الأندلسي، الحافظ المشهور، له كتاب «الجمع بين الصحيحين» وله جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس /ت ٤٨٨هـ/ وفيات الأعيان ج ٤ /٢٨٢/ والمنتظم لابن الجوزي ج ٩ /٩٦/ وتذكره الحفاظ للذهبي /١٢١٨/.

(٣) أبو بكر الباقلاني هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر القاسم، المتكلِّم المشهور، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، وكان سمع الحديث /ت ٤٠٣هـ/ تاريخ بغداد ج ٥ /٣٧٩/ وفيات الأعيان ج ٤ /٢٦٩/.

(٤) أبو منصور البغدادي هو: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفقيه الشافعي، أحد الأئمة في الأصول والفروع، وكان ماهراً في فنون كثيرة من العلوم /ت ٤٢٩هـ/ البداية لابن كثير ج ١٢ /٤٤/ وفيات الأعيان ج ٣ /٢٠٣/.

(٥) أبو بكر بن فورك هو: محمد بن الحسن بن فورك، المتكلِّم الأصولي الأديب النحوي، بلغت مؤلفاته في أصول الفقة والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف /ت٤٠٦هـ/ طبقات السبكي ج ٣ /٥٢/ وفيات الأعيان ج ٤ /٢٧٢/.

(٦) نزهة النظر ص ١٠/.

وعلىٰ أن المراد بالقرائن هذا النوع يتلاقى هذا القول مع القول الأول، وهو أنه يفيد العلم، فإن الأولين لم يكونوا يقطعون بكل خبر سمعوه، ولا بكل ما قيل إنه حديث.

كيف وقد اشتهر تقسيمهم الأحاديث إلىٰ صحيح وحسن وضعيف، وحكمهم علىٰ كثير ممَّا يُسمَّىٰ حديثاً بأنه موضوع مكذوب، مع أنَّه خبر منقول بسند ورجال مسمِّين غالباً.

وسبق ذكر ما اشترطوه في قبول خبر الواحد، وإفادته العلم من كون رواته ثقات عدولاً . . . إلخ، ممَّا يدل علىٰ أن من لم يستوفِ تلك الصفات لا يقبل خبره، ولا يفيد العلم وإن أفاد الظن الغالب أحياناً.

٢ ـ وأمّا القرائن **المنفصلة** فأرادوا بها أموراً خارجة، غير ملازمة للخبر دائماً بل تقترن به أحياناً أو تحدث معه، فيعرف بها صدق الناقل وصحة خبره. وهذا النوع هو الذي قصده أكثر المتكلمين الذين اشترطوا في إفادة العلم؛ اقترانه بالقرائن غير اللاَّزمة، كالآمدي والغزالي والرازي وابن الحاجب[١] وغيرهم، حكىٰ ذلك عنهم ابن الهُمَام وغيره كما في شروح التحرير[٢]. وقد مثلوا للقرائن المنفصلة بمن أخبر عن عطشه أو مرضه،

---

(١) الآمدي: تقدمت ترجمته، هو أبو الحسن علي بن علي بن محمد التغلبي، الفقيه الأصولي / ت ٦٢١هـ/ وفيات الأعيان ج ٣ / ٢٩٣/ .

والغزالي: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد، الملقب «حجة الإسلام» فقيه شافعي أصولي متكلم، تقدمت ترجمته /ت ٥٠٥هـ/ وفيات الأعيان ج ٤ /٢١٦/ .

والرازي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين، الملقب «فخر الدِّين» الفقيه الشافعي، فريد عصره، كبير أهل الكلام، له التفسير الكبير، وغيره من المؤلفات الكثيرة / ت ٦٠٦هـ/ وفيات الأعيان ج ٤ /٢٤٨/ طبقات السبكي ج ٥ /٣٣/ وعبر الذهبي ج ٥ /١٨/ والشذرات ج ٥ /٢١/ .

وابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، الفقيه المالكي، صنف في أصول الفقه، وتبحر في الفنون، وكل مؤلفاته في نهاية الحسن والإفادة /ت ٦٤٦هـ/ وفيات الأعيان ج ٣ /٢٤٨/ العبر للذهبي ج ٥ /١٨٩/ الشذرات ج ٥ /٢٣٤/ .

(٢) ابن الهمام: هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد، الشهير بابن الهُمَام، كان أصولياً محدِّثاً حافظاً، له تصانيف معتبرة، منها شرح الهداية المسمى بفتح القدير، والتحرير في الأصول /ت ٨٦١هـ/ الفوائد البهية في تراجم الحنفية / ١٨٠ ـ ١٨١/ ط مصر ـ تصوير دار المعرفة ـ بيروت.

ورُؤيت عليه علامات ذلك ظاهرة، من يبس شفتيه أو تغير لونه، أو حرارة جسمه، أو نحو ذلك مما يقوّي صحة خبره.

وكذا لو أخبر بما عليه فيه ضرر، ولكن حملته خشية الله والخوف من عذابه علىٰ الإقرار بما فعله لقصد التطهير، كمن أخبر بأنه ارتكب ذنباً يوجب حَدًّاً أو قَوَداً، وليس هنالك ما يُلجئه إلىٰ الإقرار، وقد عُرِفَتْ منه محبتُهُ للحياة ورغد عيشه، وأخبر بذلك طوعاً واختياراً. وهكذا من أقرَّ بدَيْنٍ عنده له وقع في النفس، بدون بيِّنة من صاحب الحقّ، وبدون أن يُطلب منه يمينٌ، وبلا تهديد ولا تعزير.

وكما لو أقرَّ المفتي بطلاق أو عقد، أو بأنَّه وقع منه خلل في صلاته أو صومه أو نحو ذلك، وطلب بيان الحكم، فإنَّ المفتي يُصدِّق خبره في كل ذلك، إلىٰ أمثال هذه الصور ممَّا هو كثير.

وأنت تعرف أنّ هذه القرائن تقوّي صدق الخبر أيّاً كان نوع المخبر، بدون أن يُشترط له ما تقدَّم من الشروط كالضبط والعدالة[1] . . . إلخ.

---

(١) ومن فروع تقوية الحديث ما ذكره الحافظ السيوطي في «تدريب الراوي» ج ١ / ١٧٥ ـ ١٧٦: أنّه إذا كان راوي الحديث متأخراً عن درجة الحافظ الضابط، مع كونه مشهوراً بالصدق والسر، وقد علم أنَّ مَنْ هذا حاله فحديثه حسن، فرُوي حديثه من غير وجه، ولو وجهاً واحداً، قوي بالمتابعة وزال ما كنا نخشاه عليه من جهة سوء الحفظ، وانجبر بها ذلك النقص اليسير، وارتفع حديثه من درجة الحسن إلى درجة الصحيح.

قال ابن الصلاح: مثاله حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة). محمد بن عمرو بن علقمة من المشهورين بالصدق والصيانة لكن لم يكن من أهل الإتقان، حتى ضعَّفه بعضهم من جهة سوء حفظه، ووثقه بعضهم لصدقه وجلالته، فحديثه من هذه الجهة حسن، فلمَّا انضمَّ إلى ذلك كونه رُوي من طريقٍ آخر حكمنا بصحته، والمتابعة في هذا الحديث ليست لمحمد عن أبي سلمة، بل لأبي سلمة عن أبي هريرة، فقد رواه عنه أيضا الأعرج، وسعيد المقبري، وأبوه وغيرهم.

ومثّلَ غير ابن الصلاح بحديث البخاري عن أُبيّ بن العباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جدّه في ذكر خيل رسول الله ﷺ فإنَّ أبياً هذا ضعَّفه لسوء حفظه أحمد وابن معين والنسائي، وحديثه حسن، لكن تابعه عليه أخوه عبد المهيمن، فارتقى إلى درجة الصِّحَّة.

البحث السادس

حُجّة من زعم أنّ الأحاديث الصحيحة الآحاد لا تُفيد إلاّ الظّنّ ومناقشة شُبَهِهم

تتابع الأصوليُّون[1] غالباً في مؤلفاتهم علىٰ اختيار أن خبر الواحد لا يفيد العلم وإنَّما يجوز العملُ به، وإنْ كان ظنِّيّ الثُّبوت؛ لجوازِ العملِ بما يُفيدُ الظَّنَّ. وأعْتَقِدُ أنَّ عدمَ حصول العلم لهم من هذه الأخبارِ بِسَبَبِ أنَّ جُلَّ اشْتِغَالِهم بعلمِ الكلام ونحوه[2]، وهم في الجُمْلَة بمعزلٍ عن علم الحديث وطُرُقِهِ ورِجَالهِ.

وقد انخدَعَ بكثرتِهم وتَهافُتِهم علىٰ هذا القول كثيرٌ من أهلِ الحديثِ المتأخِّرين، كما فعلَ النَّوَوِيّ في التقريبِ[3]، وشرحِ مقدِّمةِ مسلم[4]، وكذا ابْنُ الأثيرِ في مقدِّمة جَامِعِ الأُصول[5] الذي نقلَ عبارةَ الغزاليِّ بالحرف.

---

(١) أخبار الآحاد في الحديث النبوي: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ص ٨٣ ـ ٨٨/ ط دار طيبة ـ الرياض.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمَّا الطريقة الفلسفية الكلامية فإنَّهم ابتدأوا بنفوسهم، فجعلوها هي الأصلَ الذي يُفرّعون عليه، والأساس الذي يبنُون عليه، فتكلموا في إدراكهم للعلم..» وقال أيضاً: «المتكلمون: وهم يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر» / مجموع الفتاوى ج ٢ / ٢٠و ٥٥/ ط الرياض.

(٣) انظر تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ج ١ / ١٣٢/ وقد خالفه السيوطي في ذلك ورجَّحَ ما اختاره ابن الصلاح وغيره من المحققين من أنَّه يُفيد العلم/.

(٤) شرح صحيح مسلم ج ١ / ٢٠/ فإنَّه ردَّ ما اتَّفق عليه المحقِّقُون على ثبوت ما في الصحيحين ثبوتاً قاطعاً، وهذه هفْوةٌ منه، جَارَى بها أهلَ الكلام الذين يشككون بثبوت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ بزعم أنَّها آحاد، وأنَّها لا تفيد إلاَّ الظَّنَّ.

(٥) جامع الأصول ج ١ / ١٢٤ ـ ١٢٥/ ط دمشق، وتابعه محققه بما نقله عن النووي، وتلك هفوة أيضاً ـ غفر الله لنا وله ـ والحقُّ في هذه المسألة: أنَّ الأحاديث التي احتفَّتْ بقرائن =

ومن العجيب تأويل الغزالي لقول مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّها تفيدُ العلم بأحدِ الأمرين:

١ ـ أنَّهم أرادُوا إفَادَتَها للعلم بوجوبِ العملِ.

٢ ـ أنَّ العلمَ بمعنىٰ الظَّنِّ[1].

ثم حكىٰ أنَّ بعضهم فَسَّرَهُ بالعلم الظَّاهر، لقوله تعالىٰ: ﴿فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[2] وردَّ هذا التفسير.

وكأنَّه لما استحكم في قلبه كونها ظَنِّيَّة اعتقد ذلك حجةً مُسَلَّمَةً من كلِّ ذِي عَقْلٍ، واستبعدَ أن يُخالفَهُ فيها أحدٌ.

ولمَّا كان هذا القول مشهوراً عن السَّلف أرادَ أن يصرِفَهُ عن ظاهرِهِ، حتَّىٰ لا يبقى عالمٌ مُعْتَبَرٌ يُخالفُ ما قالَهُ، فأوَّلَهُ إمَّا بجعل العلم مراداً به غير ما نحنُ فيه، وأنَّه العلم بوجوب قبول هذه الأخبار، والعمل بما تتضمنه، وإمَّا بأنَّ العلمَ مرادٌ به الظَّنَّ الذي يقول به جمهورهم.

ويتضح أنَّه لم يقرأ عباراتِ المُحدِّثين والأئمة في تصريحهم بالعلم اليقيني، واستدلالهم عليه بما هو معلومٌ من الأدلَّة الشرعيَّة والعقليَّة كما تقدم، ممَّا لا يحتملها التأويل الذي قاله، ولا أنَّهم أرادوا العلمَ الظاهرَ، كما نقله، ورده، ولهذا لمَّا نقل ابنُ الهمام في التحرير تأويلَهُ الأوَّل رَدَّهُ بتصريح ابن الصلاح بالقطع بمرويِّ الشَّيخين[3]، فأمَّا قول الآمدي[4] أنَّ فيهم من قال: يُفيد العلم بمعنىٰ الظَّنِّ، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[5]، أي ظننْتُمُوهُنَّ، فهذا قول لا حقيقة له، وإنْ وُجِدَ مَنْ يقوله، فلا فرق بينَهُ وبينَ قول الأكثرين منهم، بأنَّه لا يفيد العلم اليقيني مطلقاً، فإنَّهم لم ينفوا إفادتَهُ للظَّنِّ.

= الثبوت والقبول لدى أهل الحديث تفيد العلم، وتُوجب التصديق الجازمَ، لا الظني.

(١) ذكره في كتاب «المستصفى» ج ١ /٨٨/.

(٢) سورة الممتحنه، الآية ١٠.

(٣) كما في التحرير ص ١٣٣.

(٤) كما في الإحكام في أصول الأحكام ج ٢ /٣٢/.

(٥) سورة الممتحنة، الآية ١٠.

وقد علمت أنَّ هذا أحد التأويلين اللذين سلكهما الغزالي في صرف القول الأول عن ظاهره، ولو كان يعلمه قولاً لأحدٍ لحكاه، ولم يجعله احتمالاً، وعلمت أيضاً أنَّ الغزالي ذكر الآية في دليل مَنْ قال: المراد العلم الظاهر، لا العلم بمعنىٰ الظَّنِّ، ولمَّا كان أهل الأصول قد وضعوا لهم قواعدَ كُلِّيَّةً، حكموا بموجبها علىٰ كل خبر بحكم موافق لتلك القواعد التي لم يكن مُسْتَنَدُهُمْ فيها إلاَّ أدلةً عقليَّةً، بزعمهم يَقِيْنِيَّةٍ، وهي وهميَّةٌ؛ جعلُوها مطَّردةً، فحكموا لأجلها بأنَّ مفادَ أخبار الآحاد الظَّنّ، ثم إنَّهم تَنَاقَضُوا بعدَ ذلك بإيجابهم العمل بها، لمَّا رأوا أدلةَ وجوبِ العلم متواترةً، وقَبُولَ السَّلف لها مشهوراً، ورأوا هذا مُطَّرداً بين المسلمين سَلَفَاً وخَلَفَاً، فلم يجدوا بُدّاً من القولِ بأنَّها تُوجبُ العمل، ممَّا هو هَدْمٌ لقواعدهم من الأساس.

وذلك أنَّه ما من حديث صحيح وَجَبَ العَمَلُ به إلاَّ وكان مضمونُهُ اعتقادَ الثوابِ من الله تعالى على فعله، أو العقاب على تركه [وهذا أمر اعتقادي لا يصح وجوده إلاَّ بقطع ثبوته] وما من عملٍ من أعمال العبادات الواردة في أحاديث الآحاد الصحاح إلاَّ ومضمونُها اعتقادَ إرضاءِ الله تعالى بها، والتقرُّب بها إليه لكونها من هَدْي رسوله ﷺ وسنَّته النبويَّة؛ فإن لم يعتقد المسلم بذلك تَكُنْ عبادتُهُ عَبَثاً، وقيامُهُ بها أَجْوَفَ لا رَابطَ له بالله تعالى، وهذا ما لم يقلْ به أحدٌ من المسلمين، ولا يرضاه، والله تعالى تَعَبَّدَنا باتِّباع سُنَّة رسوله ﷺ سواء بلغتنا بالتواتر أو عن طريق الآحاد الثقات الضابطين، إذْ جميعه يفيدنا العلم بأنه من هدي رسول الله ﷺ ومن سنَّته!!.

مُنَاقَشَةُ شُبَهِ مَنْ يَقُولُ إنَّ خَبَرَ الوَاحِدِ لاَ يُفِيدُ العِلْمَ:

لا أعتقدُ وُجُودَ نَصٍّ من الأدلَّة السمعيَّة يُصرِّحُ بردِّ خبرِ الوَاحِدِ الثِّقَةِ، أو التَّوَقُّفِ فيه، أو عدم حصولِ العلم به، ولكنَّ أهلَ الظَّنِّ والشَّكِّ في الأخبار وَلَّدُوا شُبُهاً وخَيَالاَتٍ ظَنُّوها عقليةً، قطعيَّةَ الدَّلاَلَةِ علىٰ عدم إفادةِ خبرِ الوَاحِدِ العلمَ، وقد اعتَمَدُوها كبراهين علىٰ ما ذهبوا إليه:

١ ـ فمنها قولُهم: إنَّ الطبيعةَ البشريَّةَ تَقْتَضِي السَّهْوَ والنِّسْيَان من كلِّ إنسانٍ، وإنَّه يُوجد كثيراً تعمَّدَ الكذبَ لمصلحةٍ يعتقدُهَا الكَاذِبُ أو لغيرها،

وكل ذلك يَقْتَضِي التَّوَقُّفَ في خَبَرِ الوَاحد[1].

فيُقَالُ: نحن لا نقولُ باستحالةِ الخطأِ علىٰ جميع النَّقَلَةِ، ولا بعصمتِهم من تعمُّدِ الكذب، ولكن نقولُ بالجزمِ والتَّصديق للخبر عند ظهور أَمَارَاتِ تؤيد ذلك من تتبع أخبار الراوي حتىٰ يُوقَفَ علىٰ صحتِها، ومِنْ موافقتِهِ لمن هو مثله أو أفضل منه، وغير ذلك ممَّا يَعْرِفُ به أهلُ الفَنِّ صدقَ الروايةِ أو الخطأَ فيها.

وليس ببدع أن يجعلَ الله في خلقهِ مَنْ يَقْرُبُ القَوْلُ بعصمتِهِ مِنْ تَعَمُّدِ الكذبِ، ومِنَ السَّهْوِ الكثيرِ في التَّحَمُّلِ والأدَاءِ لواجباتِ الدِّين، كي تقومَ حُجَّةُ الله علىٰ خلقِهِ، ويحصل الأمنُ من التَّعَبُّدِ لله بخطأٍ.

فرواةُ الأخبار الَّتي تَلَقَّتْهَا الأُمَّةُ بالقَبُولِ، يلزمُ من تخطِئَتِهم عَدَمُ قيام حُجَّةِ الله علىٰ مَنْ لم يُشَاهِدِ الرَّسُولَ ﷺ، وذلك ممَّا يُنَافِي حِكْمَةَ اللَّهِ تعالى[2].

٢ ـ ومنها قَوْلُهمْ: إنَّنا نُشَاهِدُ اخْتِلاَفَ المُحَدِّثِينَ في الحديثِ الوَاحِدِ، ما بين مُصَحِّحٍ له ومُضَعِّفٍ، وطَاعِنٍ في رُوَاتِهِ وذَابٍّ عنهم، ونحو ذلك ممَّا

---

(١) هذه الشبهة توجد عند أهل الظَّنِّ بألفاظ متقاربة، ومَفَادها واحد؛ وهو الشَّكُّ، نعوذ بالله من سوء الظن في الأحاديث الصحاح.

(٢) فلو جاز للمسلمين الظَّنُّ بثبوتِ السّنّة الصّحيحة عن رسول الله ﷺ، لأصبحوا غيرَ واثقين بثبوت بيان القرآن الذي أوجبه اللَّهُ تعالى على رسوله ﷺ؛ لأنّه تعالى يقول: **﴿وأنزَلْنَا عليكَ الذكرَ لِتُبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾** [سورة النحل: ٤٤]، ويقول تعالى: **﴿وما أنزَلْنَا عليكَ الكتابَ إلاّ لِتُبيِّنَ لهُمُ الذي اختلفُوا فيهِ﴾** [سورة النحل: ٦٤]، فبيانُ الرسول ﷺ للقرآنِ واجبُ التّبليغ، وهو واجبُ الثّبوت، فلو لم يكنْ واجبَ الثبوتِ لذهب بيانُ القرآن الذي يجب اتباعُهُ ونقلُهُ وتبليغُهُ، وهذا ما كان عليه الصّدر الأول لهذه الأمّة قبل فشوّ فتنة علم الكلام الذي يقوم على منهج الظّنّ في ثبوت نقل الأحاديث النّبويّة، وذلك لعدم معرفتهم بحقيقة نقل السّنّة وما بذله الحفاظُ في سبيل حفظها ورعايتها وتدوينها ونقلها ونشرها بينَ الأمّة، فقد كان المتكلمون قليلي الحديث كثيري الجدل والأهواء، وهذا ما صرفهم عن الاشتغال بسنّة رسول الله ﷺ، فلم تفشُ هذه الفتنة الرّديّة إلاّ بين المتكلمين وأتباعهم ومقلّديهم إلى يومنا هذا، فكانوا ولا زالوا شدِيدِي الوقوع في أهل الحديث والسّنّة، والإنسانُ عدوٌّ لِما يجهل، فمَنْ عايشَ السّنّة وعلُومَها وروايتَها ودرايتَها، وتيقّنَ عظيم شأنها الكريم؛ كان أشدَّ النّاسِ دِفاعاً عن السّنّة وعن أهلها «أصحاب الحديث» وأقوىٰ إيماناً بها، وأكثرَ اتّباعاً لها.

يُسبِّبُ عدمَ اليَقِين بما قالُوه، والتَّوقُّفَ في مروياتهم مخافةَ الخطأ. فقد روىٰ البخاري ومسلم أحاديثَ حَكَمَا بصحتها، ثم تعقَّبَهُمَا بعضُ العلماءِ ـ كالدَّارقطني ـ وذكروا فيها مَطَاعِنَ[1].

وكذا الترمذي كثيراً ما يُصَحِّحُ أحاديثَ في جَامِعِهِ، ولا تكون صحيحةً، وهكذا ما اشتهر عن الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ[2].

ولو كانت أماراتُ الصِّحةِ ظاهرةً مُفِيدَةً للعلم لمَا وَقَعَ فيها هذا الاختلافُ الكثيرُ؟ فيُقَالُ: لقد اصْطَلَحَ أهلُ الحديث علىٰ تمييز الصحيح الثَّابت من الحديث النَّبوي في رجالِهِ ولفظِهِ ومعناه مما يعرفونه به من غيره.

ولم يكن العلماء بهذا الفَنِّ علىٰ استواءٍ في العلم بهذه المميِّزات، ممَّا كان سبباً لمثل هذا الاختلاف، ولا شك في تقدم أهل الصنعة في ذلك كالبخاري ومسلم، والإمام أحمد ويحيىٰ بن معين ونحوهم علىٰ غيرهم.

---

(١) وذلك كأن يكون الراوي ضعيفاً عند غيرهما ثقة عندهما. أو أن تلك الروايات واقعة في المتابعات والشواهد لا في الأصول، فيُذكر الحديث أولاً بالإسناد والنظيف ويُجعل أصلاً، ثم يُتْبَعُ بإسناد أو أسانيد فيها بعض الضعف على وجِه التوسُّع في التأكيد والمبالغة، أو لزيادة فيه تُنبّه على فائدة فيما قدمه، أو أن يكون ضعفُ الراوي قد طَرَأ بعدَ الأخذِ عنه / انظر تدريب الراوي ج ١ / ٩١ ـ ٩٨/ فإنَّ فيه بحثاً هاماً في هذا الخصوص.

(٢) قد يُحَسِّنُ الإمام الترمذي الحديث الضعيف الذي يكون ضعفه ظاهراً، لجهالة بعض رواته، أو لضعفه أو للانقطاع، أو لغير ذلك من وجوه الضعف، فأمَّا تحسينُهُ ما في إسناده مجهول فيُحتمل أنَّ الترمذي عرفَهُ، وأمَّا تحسينُهُ مافي إساده ضعيف أو انقطاع فلجيئه من وجه آخر، ولشواهد [مقدمة تحفة الأحوذي: للمبارك فوري ج ١ /٢٩١/ ط مصر].

وأمَّا ما يتعلق بتصحيح الحاكم في المستدرك وتساهله فيه، فقد بيّن سببه الحافظ ابن حجر فقال: «وإنَّما وقع للحاكم التساهل لأنّه سَوَّدَ الكتابَ لينقحه فأعجلته المنيّة»، وقال الحافظ الذهبي: «فيه ـ أي المستدرك ـ جملة وافرة على شرطهما ـ يعني البخاريَّ ومسلماً ـ وجملة كثيرة على شرط أحدهما، لعلَّ مجموع ذلك نحو نصف الكتاب، وفيه نحو الربع مِّما صحَّ سندُهُ وفيه بعض الشيء، أو له عِلَّةٌ، وما بقي وهو نحو الربع فهو مناكير أو واهيات لا تصح، وفي بعض ذلك موضوعات»/ تدريب الراوي: للسيوطي / ١ /١٠٦.

وهذا مثل حيٌّ على صحة القول بأنَّ الله تعالى لم يدع أحاديث رسوله من بيان صحيحها، أو ما طرأ على أسانيدها أو متونها من ضعف أو وهن أو نكارة أو نحو ذلك، إلاَّ وأقام لها أفذاذ العلماء العدول لتمييزها وبيان أنواعها وأقسامها، فللّه الحجة البالغة!!!

فنحن عند اختلافهم نعمل بالتَّرجيح الذي يكون بالأكثريّةِ، كما يكون بالقوَّةِ وتمام المعرفة، وهذا ما تميَّزَ به البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما.

وقد عرف أيضاً أنَّ الحُكْمَ بصحة الحديث لا يعتمد الإسناد دائماً، فقد يكونُ له طُرُقٌ أخرىٰ يعرفها مَنْ صَحَّحَهُ، أو يكونُ هناك قَرَائِنُ تُقَوِّي ثُبُوتَهُ لم يطَّلِعْ عليها مَنْ طَعَنَ فيهِ.

أمَّا التِّرمذي فقد عُرِفَ عنه نوعٌ من التساهل في التَّصحيح، ظهرَ ذلك بالتَّتَبُّع، فحكمُهُ بالصِّحَّةِ معتبرٌ في الغَالب، وقد يكون مقيَّداً بما ظهر له وإن خالفَهُ غيرُهُ.

وأمَّا الحاكم فهو وإن كان وَاسِعَ الحفظ كثيرَ الرواية، لكنَّه كثيرُ التَّسَاهل في التَّصحيح، ولهذا لا يُوْثَقُ غالباً بتصحيحهِ وحدَهُ.

وقد تتبَّعه في مستدركه بعضُ العلماء كالذهبي، فوافقوه علىٰ الكثير ممَّا حكمَ بصحتِهِ، وخَالَفُوه في كثيرٍ مع إيضاحِ وَجْهِ المُخَالَفَةِ، مع أنَّه غالباً إنَّما يجزم بصحَّة السَّنَدِ دُونَ المَتْنِ، وذلك مُقَيَّدٌ بما ظَهَرَ له من حال الرُّواة، وهذه سُنَّةُ الله في وُجُودِ هذا التَّفَاوُتِ بينَ خَلْقِهِ.

ولكن لا يلزم من الاختلاف في البعض التوقف في الجميع، فإنَّ الغالب من أحاديث الصَّحيحين وغيرهما مما ثبت لم يقعْ فيه اختلافٌ بينَ المُصَحِّحِين[1] والحمدُ لله.

٣ ـ ومنها قولهم: إنَّما يجبُ حُسْنُ الظَّنِّ بالرَّاوي من غير جَزْمٍ؛ لأنَّ الله يقولُ في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِيْ، فَلْيَظُنَّ بِيْ مَا شَاءَ)[2]،

---

(١) قال الإمام ابن الصلاح: «إن ما روياه أو أحدهما فهو مقطوع بصحته والعلم القطعي حاصل فيه، خلافاً لمن نفى ذلك، محتجّاً بأنّه لا يُفيد إلاّ الظَّنّ، وإنَّما تلقته الأمة بالقبول، لأنّه يجب عليهم العمل بالظَّنّ، والظَّنُّ قد يخطىء، قال: وقد كنتُ أميل إلى هذا أو أحسبه قويماً، ثم بانَ لي أنَّ الذي اخترناه أولاً هو الصحيح؛ لأنَّ ظنَّ من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء، والأمَّة في إجماعها معصومة من الخطأ، ولهذا كان الإجماع المبني على الاجتهاد حُجَّةً مقطوعاً بها، وقد قال إمام الحرمين: لو حلف إنسان بطلاق امرأته: أنَّ ما في الصحيحين ممَّا حكمَا بصحته من قول النبي ﷺ لمَا ألزمته الطلاق؛ لإجماع المسلمين على صحته»/ تدريب الراوي: للسيوطي ج ١/ ١٣١ ـ ١٣٢/ ط مصر/ ١/.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد/ ١٥، ٣٥/ ومسلم في كتاب التوبة/ ١/ والذكر/ ٢ و١٩/ =

ولقوله تعالىٰ: ﴿إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]، ولم يقل: كلَّ الظَّنِّ. فيُقالُ: هذا ممَّا لا صِلَةَ له بما نحنُ فيهِ.

أمَّا ظَنُّ العبد بربِّهِ، وأمرهُ بإحسان الظَّنِّ، فذلك فيما يُعامِلُهُ بهِ مِنَ الجزاءِ في الدَّارين، ولا شَكَّ أنَّ الله قد حَجَبَ عن العبدِ ما هو فاعلٌ بهِ في دَارِ الجَزَاءِ، فأمرَ بأنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بربِّهِ، ليحملَهُ ذلك علىٰ الرَّجاءِ الذي يستلزم الجِدَّ في الطَّاعَةِ، ليتحقَّق ما ظَنَّهُ بهِ.

أمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فَسِيَاقُ الآية في ظَنِّ المُسْلِم بأخيهِ أنَّه اغتابَهُ أو حَسَدَهُ، أو رَامَ لهُ شراً، ونحو ذلك ممَّا ينقلُهُ الوُشَاةُ لقصدِ إثَارَةِ العَداوَةِ والبَغْضَاءِ، مع أنَّ أكثرَهُ لا صحةَ له، ولكنَّه قد يُسَبِّبُ سُوْءَ الظَّنِّ من المسلم بأخيه، فأمرَ المؤمنين بتجنُّب كثيرٍ من هذا الظَّنِّ الذي يُثير الشَّحْنَاءَ والتَّقاطعَ بين المسلمين، وليس في الآية أمرٌ ببعض الظَّنِّ أصلاً.

٤ ـ ومنها قولهم: لو علم الله صدقَ خبر الواحد لم يُخْلِنَا من دليلٍ علىٰ ذلك. فيُقَالُ: لا شكَّ أنَّ الله ضَمِنَ بقاءَ دينهِ وشرعهِ لهذه الأُمَّةِ بعدَ أنْ أكملَ لهم الدِّينَ، وأتمَّ عليهم النِّعْمَةَ!!.

ولا شكَّ أنَّ أكثرَ تفاصيل هذا الدِّين إنَّما تُؤْخَذُ عن هذه الأخبار، فلو كانتْ كذباً في نفسِ الأمرِ لأقامَ الله علىٰ ذلك أدلَّةً وبراهين، كي لا يلتبسَ الحَقُّ بالبَاطِلِ، فتقعَ الأُمَّةُ في الزيغِ والضَّلاَلِ. وهنا أوضحُ دليلٍ على أنَّها صِدْقٌ وحَقٌّ!!!.

وهكذا من أوضحِ الأدلَّةِ وأكبرِ البراهين علىٰ صحتها إجماعُ الأُمَّةِ في الجملة علىٰ العملِ بها بَعدَ العلمِ بها[2].

فهذا الدَّلِيْلُ ينبغي أنْ يعكسَ عليهم فيُقَالُ: لو علمَ الله أنَّها كذبٌ مع عمل

= والترمذي في الزهد/ ٥١/ والدعوات/ ١٣١/ وابن ماجه في الأدب/ ٥٨/ والدارمي في الرقاق/ ٢٢/ وأحمد ج ٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١/ج ٣/ ٢١٠، ٢٧٧، ٤٩١ ج ٤/ ١٠٦/.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإجماع أهل العلم بالحديث على أنَّ هذا الخبرَ صِدْقٌ، كإجماع الفقهاء على أنَّ هذا الفعل حلال أو حرام أو واجب، وإذا أجمع أهل العلم على شيءٍ فسائرُ الأُمَّة تبعٌ لهم؛ فإجماعهم معصومٌ لا يجوز أن يُجمعوا على خطأ»/ مجموع الفتاوى ج ١٨/ ١٧/ ط الرياض/.

الأُمَّةِ بها لأَقَامَ برهاناً واضحاً علىٰ عدم صحتِهَا، فدلَّ علىٰ أنَّها صحيحةٌ ثابتةٌ!!.

٥ ـ ومنها قولهم: إنَّنَا لا نُصَدِّقُ كلَّ خبرٍ نسمعُهُ، فلو كان خبرُ الواحدِ يُفِيدُ العلمَ لصدقنا كلَّ ما سمعنَاهُ، وحصلَ به العلمُ كما يحصلُ بكلِّ متواترٍ، ولم يلزم اشتراط ضبط الرواة وعدالتهم في قبول الآحاد، كما لا يلزمُ ذلك في المتواتر. فيُقَالُ: حَقّاً أنَّنَا لا نُصَدِّقُ كلَّ خبرٍ، ولكنْ لا يلزمُ منه تكذيبُ كلِّ خبرٍ، ولا التَّوقُّفُ في جميع الأخبار، فنحن نُصَدِّقُ الثَّابتَ يقيناً، ونجزمُ بكذبِ كلِّ خبرٍ موضوعٍ، وقد يترجَّحُ لنا أحدُ الاحْتِمالَيْنِ من غيرِ جَزْمٍ[1]، وقد نتوقَّفُ في البعضِ، وقد يحصل التوقف للبعض منَّا دُونَ البعضِ، وهذه سنة الله في التَّفَاوتِ بينَ خلقه في الأفهام والمَدَارك، فلا يلزم من رَدِّ البعض رَدُّ الكلِّ، أمَّا حصول العلم بكل متواتر فإنَّما ذلك نظراً لتوفر شروطه التي صَدَقَ عليه لأجلها اسمُ التَّواتر، وحصلَ به العلمُ الضروري، بخلاف الآحاد فإن أفرادَهُ تختلف، فلا يحصل العلمُ بكلِّ آحاد إذا لم يَسْتَوْفِ شروطَ القبول في التَّحمُّلِ والأداء. أمَّا عدمُ اشتراط العدالة والضبط في رواة المتواتر فإنَّما كان ذلك لحصول إفادة العلم بالكثرة التي يؤمن معها التواطؤ علىٰ الكذب[2].

٦ ـ ومنها قولهم: لو أفادَ خبرُ الواحدِ العلمَ لَمَا تَعارضَ خبران، ونحنُ نرىٰ الكثيرَ من الأخبار تتعارضُ، فإنْ قيلَ بإفادة الجميع العلم حصل اجتماع الضِّدين، وهو مُحَالٌ، وإنْ قيل بإفادة أحدهما كان ترجيحاً بلا مُرَجِّحٍ. وهذا يُحقِّقُ أنَّ أحدَهما لا بعينه كذب، فيوجب التوقف في كلِّ خبر.

فيُقَالُ: إنَّ هذا مُجَرَّدَ فَرْضٍ لِما لا يمكنُ وُقُوعُهُ، كما لا يحصل ذلك

---

(١) وذلك في الأحاديث ذات الأسانيد، الضعيفة. قال الحافظ السيوطي في تدريب الراوي ج ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧: «إذا رُوي الحديث من وجوه ضعيفة لا يلزم أن يحصل من مجموعها أنّه حسن، بل ما كان ضعفه لضعف حفظ راويه الصدوق الأمين زال بمجيئه من وجه آخر، وعرفنا بذلك أنه قد حفظه، ولم يختلّ فيه ضبطه، وصار الحديث حَسَناً بذلك»، «وكذا إذا كان ضعفها لإرسال أو تدليس أو جهالة رجال؛ زال بمجيئه من وجه آخر، وكان دون الحسن لذاته»، «وأمّا الضعيف لفسق الراوي، أو كذبه، فلا يؤثر فيه موافقة غيره له إذا كان الآخَرُ مثلَهُ».

(٢) «الخبرُ المتواتر: ما بلغت رواته في الكثرة مبلغاً أحالت العادة تواطئهم على الكذب، ويدوم هذا، فيكون أوله كآخره، ووسطه كطرَفِيه»/ نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص ٥/ للكتاني ـ ط دار المعارف حلب/.

بين متواترين ولا بين خبرين تَحْتَفُّ بكلٍّ منهما القرائن المنفصلة.

ثم إذا حصلَ العلمُ اليقينيُّ بالخبر فلا بُدَّ من خطأ كلِّ خبرٍ يُعارضُهُ المعارضةَ التَّامَّة، ثم إنَّ ما يُوجَدُ من الحديثِ الصحيح ظاهره التعارض يمكن حملُ كلٍّ من المتعارضين علىٰ وجه صحيح، وبذلك يندَفعُ التعارض.

ولقد تكفَّلُ العلماءَ بالسُّنَّةِ بالجمع بين الأحاديث التي ظاهرها التَّناقض، فَخَرَّجُوا كلَّ حديثٍ علىٰ معنىً مُحْتَمَلٍ، كما فعل ابْنُ قتيبةَ في «تأويلِ مُخْتَلَفِ الحديثِ»[1] وكذا ابْنُ القيم[2]، وشيخُهُ ابْنُ تيمية[3] في مؤلفاتِهِمَا.

---

(١) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، فقيه الأدباء، وأديب الفقهاء، الإمام اللغوي الثقة، كان على مذهب الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه في الانتصار للسنَّة النبوية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «تفسير سورة الإخلاص» ص ٨٦ ط الخانجي: وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق، والمنتصرين لمذاهب السُّنَّة المشهورة. ويُقال: هو لأهل السُّنَّة، مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنَّه خطيب أهل السُّنَّة كما أنَّ الجاحظ خطيب المعتزلة/ توفي ابن قتيبة سنة ٢٧٦هـ.

وكتابه المشهور «تأويل مختلف الحديث» قد طبع في مصر بإشراف محمد زهري النجار، ونشر مكتبة الكليات الأزهرية/ وموضوع الكتاب دفع دعوى التناقض بين نصوص السنَّة النبوية، في بيان أوجه الاختلاف فيها.

(٢) ابن القيم: هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الشهير بابن قيم الجوزية، الإمام النابغة صاحب التصانيف المفيدة/ ت ٧٥١هـ.

(٣) ابن تيمية: هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الإمام المجتهد المجدِّد لهذه الأمة دينها وعلومها ودعوتها السلفية/ ت ٧٢٨هـ/.

المبحث السابع

أدلّة قبول الآحاد في العقائد إذا وردت عن طريق الثقات العدول الضابطين عن مثلهم إلى رسول الله ﷺ

لقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أُنزل عليه، وبدعوة النَّاس إلى ما خُلِقُوا له، وكان من أهمِّ ذلك تعريفهم بأصول الدِّين، من معرفة ربِّهم، وتوحيده، وأسمائِه، وصفاتِه، وجزائِه، وقضائِه، وقَدرَهِ، ونحو ذلك من قضايا الاعتقاد والإيمان[1]. وما ذاك إلاَّ أنَّ هذه العلوم تُعْتَبَرُ كالأساس الذي يقوم عليه البناء للإسلام، فلزم تقدم العلم بها علىٰ كل عمل؛ ليصحَّ اعتقادَ العبدِ، ولِتُعْتَبَرَ نِيَّتُهُ التي يدورُ عليها قبولُ العمل أو رَدُّهِ، لذلك بَدَأَ ﷺ بالدَّعْوَةِ إلىٰ معرفة هذه القواعد والأُسس، وأقام عليها الأدلة، وضربَ لها الأمثالَ، وما كان قصده إلاَّ رُسُوخُ الإيمانِ في قلوبِ مَنْ صَدَّقَهُ وآمَنَ بِرسالتهِ، لِما ينبعثُ من ذلك من المبادرة إلىٰ العمل، والقيام بسائر التَّكاليف.

ولقد لزمتْهُ الصحابةُ رضي الله عنهم، فتلقوا عنه أنواعَ العُلوم في الأُصولِ والفُروعِ، وتقبَّلُوها معتقدين لمفادها، وعاملين بمقتضاها.

وهكذا بلَّغوها لمن بعدهم، امتثالاً لأمره حيث قال: (بَلِّغُوا عَنِّي ولو آية)[2] فكان لزاماً علىٰ كل مسلم قبول ما بلغه عنهم، آثرين له عن نبيهم ﷺ

---

(١) أخبار الآحاد في الحديث النبوي: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين/ ٩٥ ـ ٩٨/ ط دار طيبة ـ الرياض.

(٢) رواه البخاري ج ٤/ ٢٠٧/ وفي نسخة أخرى ج ٦/ ٤٩٦، والترمذي/ رقم ٢٦٦٩/ والدارمي في سننه ج ١/ ١٣٦!/ وأحمد في مسنده ج ٢/ ١٥٩/ والبغوي في مصابيح السنة ج ٢/ ١٢٤.

وتصديقه، سواء كان متواتراً أو آحاداً، بعد ثبوته وتوفر أسباب قبوله، أياً كان متعلَّقُهُ أصولاً أو فروعاً[1].

ولقد تلقىٰ السَّلَفُ من جملة ما بلغهم عن نبيهم ﷺ أحاديث الصِّفات والعقائد ودوَّنُوها في مؤلفاتهم، مُوقِنين بصحتها، عالمين يقيناً بأنَّ رسول الله ﷺ جاءَ بها كما جاء بالصلاة والزكاة والتوحيد، وهذا مِثْلُ أحاديث الشفاعة، والحوض، والميزان، وعذاب القبر ونعيمه، ورؤية الله في الآخرة، وتكليمه لعباده كما يشاءُ، وعُلُوِّهُ علىٰ خلقهِ، وإثبات العرش، ونحو ذلك من أمور الإيمان والاعتقاد.

فإنَّ كلَّ مَنْ له معرفة بأحوال الرواة، وطرق الأحاديث، يَتَحقَّقُ ثبوتَ هذا النَّوع من السُّنَّة، ويُوقن بصدورهِ عن النَّبيِّ ﷺ، ولو كانت طرقه آحاداً، فإنَّ الذين نَقَلُوهُ لنا هُمُ الَّذينَ نقلوا جميعَ أنواع الشريعة؛ فيلزمُ مِنْ رَدِّ بعض أخبارهم وقبولِ البعضِ التفريقُ بين متماثلين، وإلحاقُ الطَّعْنِ بالصَّحابة والسَّلَف، وعدمُ الثقة بأخبارهم مع ما عُرِفَ مِنْ وَرَعِهِمْ وتَثَبُّتِهِمْ، وتحرِّيهم للصِّدْقِ، إلىٰ غير ذلك ممَّا ينافي سُوْءَ الظَّنِّ بهم. وإليك بعض الأدلة القاطعة علىٰ قبول هذا النوع من الأخبار في هذا الباب.

١ ـ فمن ذلك ما ثبتَ من تناقل السَّلف لهذا النوع من الأخبار، وتداولها بينهم، والحرص علىٰ تلقيها وتحصيلها، ثم الاشتغال بمذاكرتها، وإثباتها في المؤلفات. وإنَّ في هذا لأوضح دليل علىٰ أن قد تَحقَّقُوا صحتَها، واسْتَفَادُوا منها العلمَ اليقينيَّ، وإلاَّ لذهبَ عملهم ضَيَاعاً، وحَاشَاهم أن يفنوا أعمارَهُمْ

(١) أخرج مسلم ج ٧/ ٢٩ عن أنس بن مالك: أنَّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلمنا السُّنَّةَ والإسلامَ. قال: فأخذَ بيَدِ أبي عُبيدةَ، فقال: (هذا أمينُ هذه الأُمَّة)!! فلو لم تكن الحجة قائمةً بخبر الواحد الثقة الأمين لم يفعله رسول الله ﷺ. ولقد تكرَّر فعل ذلك منه ﷺ، فأرسل علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري، وأخبارهم في ذلك في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث المعتبرة. وكان هؤلاء الآحاد يبلغون عن رسول الله ﷺ القرآن والعقيدة والشريعة وجميع فروع الدِّين بلا تمييز ولا تفريق/ انظر «الرسالة» للإمام الشافعي ص ٤١٢/ حيث يقول: «وهو ﷺ لا يبعث بأمره، إلاَّ والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله ﷺ، وقد كان قادراً على أن يُبْعَثَ إليهم فَيُشَافِهَهُمْ، أو يبعثَ إليهم عدداً، فبعث واحداً يعرفونه بالصدق»!!.

في تناقل ما لا يُفِيدُ علماً ولا يُوْجِبُ عملاً[1].

فإنَّه من المتفق عليه أن ما تحتوي عليه هذه الأخبار ليس من الأمور العَمَلِيَّةِ التي تُنقل لأجل أن يعمل بها وإن كانت ظَنِّيَّةً.

فما بقي إلاَّ أن يتحقق يقينهم بمعناها، واعتقادهم لمَا دَلَّتْ عليه على ما يليق بجلالِ الله، وهذا هو ما عليه الصحابة والتابعون، ومن اقتفى أثرهم من سَلَفِ الأُمَّة وأئمَّتِها[2].

٢ ـ ومن الأدلة ما اشتهر عن الأئمة من إدخال مدلول تلك الأخبار في معتقداتهم وتصريحِهِم بالقول بمقتضَاهَا، ورَدِّهِمْ لقولِ من جَحَدَهَا، وتحذيرِهِمْ منه، وما ذاك إلاَّ لتحقُّقِهِم صِدْقَها، وعدم الشُّبَهِ والشُّكوك في قلوبهم، ممَّا يسبب نُفْرَتَهُم عن الإصغاء إليها، بل إنَّ أحدهم يتقبَّلُ كلَّ ما

---

(١) إنَّ زعم عدم الاحتجاج بحديث الآحاد الصحيح الذي لا علَّةَ له ولا شذوذاً؛ بدعة ضالة يقصد منها تعطيل الأخذ بحديث رسول الله ﷺ في الاعتقاد، ولقد أفادت أدلة الكتاب والسنَّة وعمل الصحابة بوجوب الأخذ بأحاديث الآحاد الثقات العدول الضابطين في الاعتقاد والأحكام، بلا فرق أبداً، خلافاً لأهل الظن من المتكلمين الذين فرَّقوا بين أحاديث الاعتقاد وأحاديث الأحكام، قال الإمام ابن قيم الجوزية في الصواعق المرسلة ج ٢/ ٦١٣: «وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنَّها لم تزل تحتجُ بهذه الأحاديث في الخبريات العِلْمِيَّات «يعني الاعتقاد» كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما والأحكام العملية تتضمَّن الخبر عن الله بأنَّه شرع كذا، وأوجبه، ورضيه ديناً، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجُّون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم يُنقل عن أحد منهم ألبتة أنَّه جوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته» ثم يقول: «إنَّ المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله وأصحابه، بل يصدون القلوب عن الاهتداء في هذا الباب بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين وقواعد المتكلِّفين، فهم الذين يُعرف عنهم التفريق بين الأمرين..».

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أمَّا السلف فلم يكن بينهم في ذلك نزاع [أي في إفادة الأحاديث الصحاح الآحاد العلم اليقيني]، وأمَّا الخلف فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة، والمسألة منقولة في كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، مثل السرخسي وأبي بكر الرازي من الحنفية، والشيخ أبي حامد وأبي الطيب والشيخ أبي إسحاق من الشافعية، وابن فوّاز منداد وغيره من المالكية، ومثل القاضي أبي يعلى وابن أبي موسى وأبي الخطاب، وغيرهم من الحنبلية، ومثل أبي إسحاق الإسفرائيني، وابن فورك، وأبي إسحاق النظام من المتكلمين»/ الصواعق المرسلة: لابن قيم الجوزية ج٢/ ٥٨٢.

سمعَهُ من أخيه الذي يثق بصدقه ودينه، من غير توقُّفٍ في نوعٍ ما من أخباره.

بل إنَّ عظمة حديث النَّبيِّ ﷺ في قلوبهم أعظم من أن يردُّوه بمثل هذه التَّوَهُمَات.

وكذلك قَدْرُ الصَّحَابةِ ونَقَلَةِ الحديث وحُمَاتِهِ أجلُّ عندهم من أن يَتَطرَّقَ إليهم تهمةٌ، أو يُقالَ لأحدهم: خَبَرُكَ خَبَرُ واحدٍ، فلا يُفيدُ العلمَ، أو لا يُقبلُ إلاَّ في الفروع!!؟.

وقد رُوِيَ عنهم التَّثَبُّتُ، وطلبُ زيادةِ الرواة في بعض أحاديث الأحكام، كما طلب عمر من أبي موسىٰ أن يأتي بمن يتقوَّىٰ به في خبر الاستئذان، فأتىٰ بأبي سعيد، وكذا استظهر المغيرة بمحمد بن مسلمة ليشهد معه عند عمر علىٰ خبر دِيَةِ الجنين وميراث الجَدَّةِ[1]، وغير ذلك.

ولم ينقل عنهم التوقف في شيء من أخبار الصِّفَات، أو المعاد ونحوها، بل قد اشتهرَ عنهم إمْرَارُهَا كما جاءتْ بلا كيف، وعدم التَّعرُّضِ لتأويلها، وصرح الكثير منهم بالقول بمقتضاها علىٰ ما يليق بجلاَلِ الله تعالىٰ.

٣ ـ ومنها ما تواترت به الأخبار عن النَّبي ﷺ في بعثه الدعاة إلىٰ أطراف البلاد، وعهده إليهم تبليغ جميع الدِّين أصولاً وفروعاً، مع البداءة بالتوحيد كما في حديث معاذ المُتَّفق عليه، لمَّا بعثَهُ إلىٰ اليمن قال له: (إنَّكَ تأتي قوماً من أهلِ الكتابِ، فَلْيَكُنْ أوَّلُ ما تدعُوهُمْ إليهِ شهادةَ أنْ لا إلٰه إلا الله) ـ وفي رواية: (إلىٰ أنْ يُوَحِّدُوا الله ـ فإنْ هم أطاعُوكَ لذلك فأخبرهم أنَّ الله افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإنْ هم أطاعُوكَ لذلكَ فأخبرهم أنَّ الله افترضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ منَ أغنيائِهم فتُرَدُّ علىٰ فقرائِهِم)[2].

فانظرْ كيفَ أمرَهُ بتقديم الدعوة إلىٰ التوحيد، ثم بأركان الإسلام، ولم

---

(١) خبر أبي موسى، رواه البخاري/ رقم ٢٠٦٢/ في كتاب البيوع. وخبر المغيرة في دية الجنين رواه البخاري/ رقم ٦٩٠٥/ في كتاب الديات، وخبره في ميراث الجدَّة رواه مالك في الموطأ ج ٢/ ٥١٣/ وأبو داود/ رقم ٢٨٩٤/ والترمذي/ رقم ٢١٠١.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة/ ٨/ والزكاة/ ١، ٣، ٤١/ ومسلم في الإيمان/ ٢٩، ٣١/ ، والنسائي في الزكاة/ ١/ والصيام/ ١/ ، وابن ماجه في الزكاة/ ١/ ، والدارمي في الوضوء/ ١/ ، وأحمد في مسنده ج ٥/ ٣٦٩.

ينقل أنَّ أحداً من أولئك الرسل اقتصر علىٰ تبليغ الفروع، أو الأعمال الظاهرة؛ بل كانوا يدعون إلىٰ الإيمان بالله وثوابه وعقابه، والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة. وهكذا بلَّغوا عنه أيضاً العبادات الظاهرة المعلومة من الدِّين بالضرورة كالصلاة والزكاة، وكذا المحرَّمات المجمع علىٰ تحريمها كالزنا وقتل النفس، وكل ذلك ممَّا تقبَّله عنهم من استجاب لدعوتهم، وبقي معتقداً لِما تَلقَّاهُ من أصول أو فروع، وقامتْ عليه الحُجَّة بذلك، وهو دليل القبول.

وقد اعترض علىٰ هذا الدَّليل من قبل المنكرين بأنَّ بعث أولئك الرُّسُل لم يكن لتعليم الأصول[1]، وإنَّما هو لإخبارهم بالأدلة العقلية، والآيات الكونية التي يعرفونها بفطرهم.

---

(١) لقد ذكر بعض المتكلمين: أنَّ الأصول هي المسائل الاعتقادية، والفروع هي المسائل العملية، وعليها فرَّقوا بين الأدلة، فجعلوا المتواتر منها قطعياً، والآحاد منها ظنّيّاً مهما احتفَّتْ بها القرائن الدالة ثبوتها وقبولها؛ وهذا تفريق باطل لِما ترتَّب عليه من رَدِّ الأدلة النبوية الاعتقادية الواردة في الأحاديث الصحاح الآحاد؛ والمحقُّ أنه لا فرق بين الأدلة العلمية والأدلة العملية، أي: لا فرق بين العلم والعمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمطلوب من العِلْمِيَّات: العلم والعمل أيضاً، وهو حبُّ القلب وبغضه، وحبُّه للحقِّ الذي دلَّت عليه وتضمَّنته، وبغضه للباطل الذي يخالفها، فليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع، فكل مسألة علمية؛ فإنَّه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبُّه، وذلك عمل، بل هو أصل العمل. وهذا ممَّا غفلَ عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان، حيث ظنُّوا أنَّه مجرَّد التصديق دون الأعمال!؟ وهذا من أقبح الغلط وأعظمه؛ فإنَّ كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكِّين فيه، غير أنَّهم لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب، من حبِّ ما جاء به والرضا به وإرادته، والموالاة والمعاداة عليه، فلا تهملْ هذا الموضع فإنَّه مهم جدّاً، به تُعرف حقيقة الإيمان. فالمسائل العلمية عملية، والمسائل العملية علمية؛ فإنَّ الشارع لم يكتفِ من المكلَّفين في العمليات بمجرَّد العمل دون العلم، ولا في العلميات بمجرَّد العلم دون العمل»/ الصواعق المرسلة ج ٢/ ٦١٩ ـ ٦٢٠/.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّ تلقي الأُمَّة للخبر تصديقاً وعملاً؛ إجماعٌ منهم، والأُمَّة لا تجتمع على ضلالة، كما لو اجتمعت على موجب عموم، أو مطلق، أو اسم حقيقة، أو على موجب قياس، فإنَّها لا تجتمع على خطأ، وإن كان الواحد منهم لو جُرِّدَ النَّظَرُ إليه لم يؤمَن عليه الخطأ، فإنَّ العصمة تثبتُ بالنسبة الإجماعية، كما أنَّ خبر التواتر يجوز الخطأ والكذب على واحد من المخبرين بمفرده، ولا يجوز على المجموع، والأُمَّة معصومة من الخطأ في روايتها ورأيها». =

فيُقَالُ: هذا ليس بشيء فإن ما يعرفونه بعقولهم لا يكفي لقيام الحجة عليهم، وإلاَّ لم يكن هناك حاجة لبعثِ الرُّسُل، ويرد ذلك التصريح بتقديم الدعوة إلىٰ التوحيد، كما في حديث معاذ المذكور ولم ينقل أن أحداً من أولئك الصحابة بدأ بتعريف الدلائل العقلية، قبل الدعوة إلىٰ الشهادتين.

٤ ـ ومنها ما تضمنته كتب النبي ﷺ إلىٰ الملوك في زمانه، التي دعاهم فيها إلىٰ الإسلام أصلاً وفرعاً، وقد حصلَ بها تبليغهم الرسالةَ التي كلَّفَهُ الله بها، ولا شكَّ أنَّ كُتُبَهُ إذْ ذَاكَ بِطَاقَاتٌ صغيرةٌ في الغالب، يتولىٰ كتَابَتَها شخصٌ واحدٌ، ويحملها واحدٌ، ولو كان خبرُ الواحدِ لا يُقْبَلُ في الأصول لَلَزِمَهُ أنْ يبعثَ إلىٰ كلِّ قطرٍ جماعةً يَبْلُغُون حَدَّ التواتر، ليحصلَ العلمُ بخبرهم، ولو فعلَ ذلك لم يَبْقَ معَهُ في المدينة أحدٌ.

ولمَّا لَمْ يَقَعْ هذا؛ أفادَ اكتِفَاؤهُ بالواحدِ حُصُولَ العلم، وَوُجُوبَ الالتزامِ بخبرِ الواحدِ في الأصولِ والفُروعِ وهو المُرَادُ!! وغير هذا غَلَطٌ وضَلاَلٌ.

٥ ـ ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إليهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون﴾[1]. ووجه الدلالة منها أنَّه أمرٌ بسؤالِ أهلِ الذكر عن الرُّسُلِ ودعوتِهم، وماذا أوحَى إلىٰ كلٍّ منهم، وكونهم من جنس البشر، وهذا من أكبر الأصول!! فقد أمَرَ مَنْ لا يعلمُ ذلك أنْ يسألَ أهلَ الذكر، ولو لم يجِدْ إلاَّ واحداً منهم، ولا بُدَّ، أنَّ جواب المسؤول يُكْتَفَىٰ بهِ، ويلزمُ اعتقادُهُ!!! ولله الحجة البالغة!!.

= وقال: «فإنَّ ما تلقَّاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق، فهو محصِّلٌ للعلم، مفيد لليقين، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين، فإنَّ الاعتبار في الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به، دون غيرهم، كما لم يعتبر في الإجماع على الأحكام الشرعية إلاَّ العلماء بها، دون المتكلمين والنحاة والأطباء. وكذلك لا يُعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلاَّ أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله، وهم علماء الحديث، العَالِمُون بأحوال نبيِّهم ﷺ، الضابطون لأقواله وأفعاله، والمعتنون بها أشدَّ من عناية المقلِّدين بأقوال متبوعيهم.. فأهل الحديث لشدَّة عنايتهم بسنَّة نبيِّهم، وضبطهم لأقواله وأفعاله وأحواله؛ يعلمون من ذلك علماً لا يشكون فيه ممَّا لا شعور لغيرهم به ألبتَّة» فمن شاركهم في معرفة الحديث وعلومه وأنواعه وطرقه وشواهده وتوابعه، وغير ذلك فإنه يشاركهم في هذا الشعور أيضاً!!/ الصواعق المرسلة ج ٢/ ٥٨٣/.

(١) سورة النحل، الآية ٤٣.

البحث الثامن

شُبهُ المخالفين ومناقشتها

في أواخر عصر الصحابة ظهرت بِدَعٌ في الدِّين، وقد كثر معتنقوها في القرن الثاني وما بعده، وذلك مثل نفي القدر والشَّفاعة، وإنكار صفاتِ الله تعالىٰ التي وَرَدَتْ في النُّصوص، كالكلام والعلو والاستواء، والنزول والمجيء ونحوها[1]. وأكثر أهل تلك البدع ملاحدة تستروا بالإسلام، وما كان قصدهم إلا إفساد العقائد، وبلبلة الأفكار، وقد أنكر السَّلف بدعتهم، وحذَّرُوا من مجالستهم أو الإصغاء إليهم[2].

---

(١) أخبار الآحاد في الحديث النبوي: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ص ٩٩ ـ ١٠١/ وهذه البدع ظهرت على أيدي الخوارج الذين عرفوا بـ «الأزارقة» و«الحرورية» ثم انتقلت بعض شبهاتهم إلى القدرية ثم إلى الجهمية، ثم إلى المعتزلة، ثم انتقل بعضُها إلى الأشاعرة والماتريدية. فجعلوا الكلام معنىً قائماً في ذات الله وعبروا عنه بالكلام النفسي، وأوَّلوا الاستواء بالاستيلاء، والنزول بنزول رحمته، والمجيء بمجيء أمره إلى غير ذلك من التأويلات المتكلِّفة. ثم اتسع الخلاف في أصول البدع التي بسطوها على أوسع نطاق.

(٢) روى ابن وضاح القرطبي في كتابه «البدع والنهي عنها» ص ٤: عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: إنَّ لله عندَ كلِّ بدعة كِيْدَ بها الإسلام ولياً من أوليائه يذبُّ عنها وينطق بعلامتها فاغتنموا حضور تلك المواطن، وتوكلوا على الله!! قال ابن المبارك: «وكفَى بالله وكيلاً».
وروى عن الأوزاعي أنّه قال: كان بعض أهل العلم يقول: لا يقبل الله من ذي بدعة صلاةً ولا صياماً ولا صدقةً ولا جهاداً ولا حجاً ولا عمرةً ولا صَرْفاً ولا عَدْلاً، وكانت أسلافكم تَشْتَدُّ عليهم ألسنتهُم، وتشمئزُّ منهم قلوبهم ويُحذِّرون النّاس بدعتَهم.
وروى عن الحسن ص ٢٧ عن الحسن أنّه قال: صاحب البدعة لا يزداد اجتهاداً صياماً وصلاةً إلاَّ ازدادَ من الله بُعْداً.
وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود ص ١٠: أنّه قال: اتَّبِعُوا آثارَنَا ولا تبتَدِعوا، فقد كُفِيتُم.

=

ولقد مكثوا طوال القرن الثاني أذلاء مقموعين في الغالب، ثم تمكن بعضهم في أول القرن الثالث من الاتصال ببعض الولاة، ممَّا سَبَّبَ ارتفاع مناصبهم وشهرة ذكرهم، وانتشار عقائدهم الزائغة، وكثرة من قلَّدهم علىٰ غير هدي بل إحساناً للظَّنّ بهم. ولقد تظاهروا بتقديس الوَحْيَيْنِ، وأخذِ الدَّليلِ منهما، عندما رأوا عظمة قدرهما في قلوب عَوَامِّ المسلمين.

كما تظاهروا بقصد تعظيم الله، وتنزيهه عما لا يليق به بزعمهم من صفات الحوادث ومشابهة الخلق، وما ينكره العقل.

ولما كانت النُصوص في الكتاب والسُنَّة صريحة في معارضة ما قرروه، وإبطاله من الأساس، احتالوا لردِّها حتى تسلم لهم عقيدتهم، فسلَّطوا

= وروى ابن أبي حاتم الرازي في كتاب: «آداب الشافعي ومناقبه» ص ١٨٢ عن الإمام الشافعي أنه كان يقول: «لأن يُبْتَلى العبدُ بكلِّ ما نهى الله عنه ـ سِوَى الشرك ـ خيرٌ له من الكلام، ولقد اطلعتُ من أصحاب الكلام، على شيءٍ ما ظننتُ أنَّ مسلماً يقولُ ذلك».

وقال مَرَّةً أخرى لِيُونُسَ بنِ عبد الأعلى: «يَعْلَمُ اللَّهُ ـ يا أبا موسى! ـ لقد اطلعتُ من أصحاب الكلام، على شيء لم أظنَّه يكون؛ ولأن يُبْتَلى المَرْءُ بكلِّ ذنبٍ نهى الله عنه ـ ما عَدَا الشرك به ـ خيرٌ له من الكلام».

وروى أيضاً عن يونس بنِ عبد الأعلى أنَّه قال: قلتُ للشافعيِّ: تَزَوِي ـ يا أبا عبدِ الله ـ ما كان يقول فيه صاحِبُنَا ـ أُريدُ اللَّيث أو غيرَهُ، كان يقول: لو رأيتَهُ يمشي على الماء ـ يعني صاحب الكلام لا تثِقْ به، أو لا تغترَّ به، ولا تكلِّمْهُ؟!.

قال الشافعي: فإنَّه ـ والله ـ قد قَصَّرَ؛ إنْ رأيتَهُ يمشي في الهواء فلا تركُنْ إليه!!.

وروى عن الربيع بن سليمان قال: حضرتُ الشافعيَّ، وكلَّمَهُ رجل في المسجد الجامع، فطالتْ مناظرتُه إيَّاه، فخرج الرجلُ إلى شيء من الكلام، فقال له: دَعْ هذا، فإنَّ هذا من الكلام.

قال أبو محمد: قال الحسنُ بن عبد العزيز الجَرَوي: كان الشافعي ينهَى أشدَّ النهي عن الكلام في الأهواء؛ ويقول أحدُهُم إذا خالف صاحبه، قال: كفرتَ؛ والعلمُ إنَّما يُقال فيه: أخطأتَ.

وروى أيضاً ص ١٧٨: أنَّ الشافعي كلَّم بشر المَرِيسِي أن يكفَّ عن الكلام، قال: فدَعَاني إلى الكلام!!؟. فكان الشافعي يقول: لأن يلقى الله عزَّ وجلَّ المَرْءُ بكلِّ ذنبٍ ـ ما خلا الشرك بالله تبارك وتعالى ـ خيرٌ له من أن يلقاه بشيءٍ من الأهواء.

وقال المزني: كان مذهب الشافعي الكراهيةَ في الخوضِ في الكلام. وقال في رواية أخرى: كان الشافعي ينهانا عن الخَوْضِ في الكلام.

التأويلات علىٰ نصوص القرآن في هذا الباب، حتىٰ صرفوها عن المفهوم المتبادر منها، ثم رَدُّوا نُصوصَ السُّنَّةِ من أصلها ومنعوا الاستدلالَ بها في العقيدة، حيث اصطلحوا علىٰ تقسيمها إلىٰ متواتر وآحاد، فردوا المتواتر - مع ندرته عندهم - بأنَّه وإن كان قطعيَّ الثبوت لكنَّه غير قطعيِّ الدَّلاَلَة، لتطرق الاحتمالات إليه كنصوص القرآن.

أمَّا الآحاد فاصطلحوا على أنَّها لا تفيد إلاَّ الظَّنَّ، مهما بلغت من الكثرة والثقة برواتها، وأنَّ ما كان مظنوناً لا يعتمد في أدلة الأصول التي يجب أن تكون يقينية قطعية.

ولكنَّهم تناقضوا، حيث أثبتوا كثيراً من أصولهم وقواعدهم بأدلة ظَنِّيَّة أو وهمية، كما في كتب الأصول وإليك بعض شبههم في رَدِّ الآحاد في هذا الباب مع مناقشتها:

١ - أنَّ هذه الآحاد إنَّما تُفَيْدُ الظَّنَّ فلا تقبلُ في الأصول التي يجب أن تكون أدلتها يقينيَّة قطعيَّة.

فيُقالُ: تقدم في البحث الذي قبله من الأدلة علىٰ إفادة خبر الثقة العلم اليقيني ما فيه الكفاية، وبعد ثبوت ذلك لا يتصوَّر فرق في الاستدلال بها بين الأصول والفروع، ثم بتقدير أنَّها إنَّما تُفيدُ الظَّنَّ الغالب، وأن الأحكام والأوامر تثبتُ بمثلها، لا يمتنعُ إثباتِ الأسماء والصفات بها، فإنَّه لا فرقَ بين الطلب والخبر، بحيث يحتجُّ بهما في أحدهما دون الآخر، فالتِّفريق بينهما تفريقٌ بين مُتَمَاثِلَيْنِ، وذلك لأنَّ الطَّلب يتضمَّنُ القولَ علىٰ الله بأنَّه شرعَ كذا، ورضيَهُ ديناً، وشَرْعُ الله ودينُهُ هو بمقتضى أسمائهِ وصفاتهِ، فالطَّلب متضمِّنٌ للخبر وبالعكس كما هو واضح.

٢ - أنَّ مَنْ رَدَّ شيئاً من الأصول والعقائد يكفر، وأخبار الآحاد لا يكفرُ من رَدَّ منها شيئاً للاختلاف في ثبوتها.

فيُقَالُ: سبقَ أنَّ اسْتُدِلَّ بهذا علىٰ أنَّ الآحادَ لا تُفِيدُ العلمَ مطلقاً، وأُجِيْبَ هناك بأنَّ من اتضحت له السُّنَّةُ ولو آحاداً وتحقَّقَ ثبوتَها عن النَّبيِّ ﷺ، ثم رَدَّهَا بدونِ تأويلٍ ولا شُبْهَةٍ، وقامتْ عليه الحُجَّةُ فإنَّه يكفر - والعياذ بالله

تعالى ـ لتظاهره بردِّ شيءٍ ممَّا جاءَ بهِ الرَّسُول ﷺ عن ربِّهِ؛ ومَنْ رَدَّ شيئاً من دِيْنِ الرَّسولِ كمَنْ رَدَّ جميعَهُ.

وعلىٰ هذا فلا فرقَ بينَ الأُصولِ والفُروعِ في التفكير، فتخصيصُ الأصولِ لا دليلَ عليهِ.

٣ ـ قالوا: إنَّ الحقَّ وَاحِدٌ في بابِ الخَبَرِ اتِّفاقاً، فمَنْ رَدَّ شيئاً منه فهو كافرٌ أو فَاسِقٌ، بخلافِ الطَّلَبِ، فإنَّ الصَّوابَ مُتعَدِّدٌ، فالحقُّ يرجع إلىٰ ما حكَمَ بهِ المجتهِدُ، فإنَّ كلَّ مجتهدٍ مُصِيْبٌ، وبهذا رَدَّتِ المعتزلةُ جميعَ الآحادِ مطلقاً.

فيُقَالُ: هذا قولٌ مُخْتَرَعٌ، لم يُسْبَقُوا إليهِ، فإنَّ الحقَّ واحدٌ، منحصرٌ في أدلتهِ الشَّرعيَّةِ، إلاَّ أنَّ من أخطأه بعد بذلِ الجُهْدِ في طلبهِ معذورٌ في خطئِه، مأجورٌ علىٰ اجتهادهِ.

وما زالَ السَّلفُ يعترفون بخطأهم، ويرجعُون عنه إلىٰ الصَّواب إذا اتَّضَحَ لهم الدليلُ، وينقضون أحكامَهُمُ السَّابقة، وهذا واضحٌ في أنَّ الصَّوابَ منحصرٌ في قولٍ واحدٍ، سواء أكان في الأحكام أو في الأخبار، وأدلة ذلك مستوفاة في كتب الأصول.

ثم إنَّهم تَبَايَنُوا في تعريفاتهم لحقيقة كلٍّ من الأَصْلِ والفَرْعِ، وكلُّ تعريفاتِهم واضحةُ البُطْلاَن، كما بيَّن ذلك المُحَقِّقُون كابْنِ تيميةَ وابنِ القيِّم وغيرِهما[1].

قال ابن قيم الجوزية: قال الجويني: وقد تكلَّمُوا في الفرق بين الأصول والفروع، فقالوا: الأصل ما فيه دليل قطعيٌّ، والفرع بخلافه.

قلت: وهذا يلزم منه الدور، فإنَّه إذا قيل: لا تثبت الأصول إلاَّ بالدليل القطعي، ثم قيل: والأصل ما عليه دليل قطعي كان ذلك دوراً ظاهراً.

وأيضاً فإنَّ كثيراً من المسائل العملية بل أكثرها عليها أدلةٌ قطعيَّة، كوجوب الطهارة والصلاة والصيام والحج والزكاة، ونقض الوضوء بالبول

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٩/ ٢٠٣ ـ ٢٢٣/، والصواعق المرسلة ج ٢/ ٦١٣ ـ ٦٢٤/.

والغائط، ووجوب الغسل بالاحتلام، وهكذا أكثر الشريعة أدلَّتها قطعية، وكثير من المسائل التي هي عندهم أصول أدلَّتها ظَنِّيَّة.

وهكذا في أصول الدين وأصول الفقه أكثر من أن يذكر، كالقول بالمفهوم والقياس، وتقدُّمهما على العموم، والأمر بعد الحظر، ومسألة انقراض العصر، وقول الصحابيِّ، والاحتجاج بالمراسيل وشرع مَنْ قبلنا، وأضعاف ذلك.

وكذلك في أصول الدِّين كمسألة الحال وبقاء الرَّبِّ تعالى وقدمه؛ هل هما بِبَقَاءٍ وقِدَم زائدين على الذات والوجود الواجب [كما قرَّره المتكلمون]، وهل هو نفسُ الماهية أو زائد عليها، وإثبات المعنى القائم بالنفس، وغير ذلك، فعلى هذا الفرق تكون هذه المسائل [التي جعلوها من أصول الدِّين] ونحوها فرعية [لأنها قائمة على ظنون] وتلك المسائل العملية أصولية[1] [لأنَّها قائمةٌ على أدلَّةٍ قطعيةِ الثبوتِ والدَّلاَلَةِ].

وبهذا يظهر كيف يُقسِّمُ المتكلمون مسائل الدِّين كما يرغبون، فعلى قول الجويني تصبح أصول المتكلمين فروعاً لقيامها على أدلَّة ظَنِّيَّةٍ، بل بعضها على الظَّنِّ فحسب، كمسألة كلام الله تعالى حيث قرَّروا أنَّه كلام نفس لا يخرج عن ذات الله تعالى، مخالفين بذلك صريح نصوص القرآن القطعي الثبوت والدَّلاَلة، ونصوص الأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة، التي تثبت بأنَّ الله تعالى يتكلم بكلام يسمعه أهل السمٰوات، كما تكلم بالقرآن حقيقة، وكما كلَّم موسى حقيقة، بلا تكييف ولا تشبيه[2].

والحمدُ لله ربِّ العالمين

---

(١) الصواعق المرسلة: لابن قيم الجوزية ج ٢/ ٦١٨/ .

(٢) انظر بحث هذه المسألة بتفصيل موسَّع في كتاب الشيخ عبد الله بن يوسف الجُدَيع «العقيدة السلفية في كلام ربِّ البرية وكشف أباطيل المبتدعة الرَّديَّة» ص ٣٢٣ ـ ٤٣٢/ ط الكويت.

مصادر ومراجع أبحاث هذا الكتاب وتعليقاته

١ ـ **الإبانة عن أصول الديانة**: للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ت ٣٢٤/ ط المنيرية ـ القاهرة.

٢ ـ **الإبانة عن شريعة الفِرَق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**: لأبي عبد الله عُبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ت ٣٨٧ هـ/ ط دار الراية للنشر والتوزيع ـ الرياض.

٣ ـ **الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة**: للإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللَّكنوني الهندي ت ١٣٠٤ (هـ) تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة ـ ط مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.

٤ ـ **الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان**: لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت ٧٣٩/ تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط/ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: للإمام ابن حزم ت ٤٥٧ هـ وهو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم/ ط السعادة ـ بمصر.

٦ ـ **إحياء علوم الدين**: للإمام أبي حامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي ت ٥٠٥هـ/ ط مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

٧ ـ **أخبار الأحاد في الحديث النبوي**: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن خير بن معاصر/ ط دار طيبة ـ الرياض.

٨ ـ **اختلاف الحديث**: للإمام محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ/ ط دار

الكتب العلمية ـ بيروت وهو في ج ٥ من كتاب «الأم».

٩ ـ **أدب الدنيا والدين**: للإمام أبي الحسن عليّ بن محمد بن سعيد الماوردي ت ٤٥٠هـ ـ تحقيق مصطفى السقا/ ط مصورة دار الكتب العلمية بيروت.

١٠ ـ **الأربعون النووية**: للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ت ٦٧٦ هـ/ تحقيق محمود الأرناؤوط مراجعة الشيخ المحدّث عبد القادر الأرناؤوط/ ط دار العروبة للنّشر والتوزيع ـ الكويت.

١١ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: للإمام الشوكاني محمد بن علي ت ١٢٥٠ هـ/ ط البابي الحلبي ـ بمصر.

١٢ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: لابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ/ ط مصر.

١٣ ـ **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**: للقاري نور الدِّين عليّ بن محمد بن سلطان، المشهور بالمُلاّ عليّ القاري ت ١٠١٤ هـ/ ط دار الكتب العلمية تحقيق بسيوني زغلول.

١٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: للإمام ابن حجر شهاب الدِّين أحمد بن عليّ الكنّاني العسقلاني ت ٨٥٢ هـ/ ط مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة تحقيق طه محمد الزيني.

١٥ ـ **أصول التّفسير وقواعده**: للشيخ خالد عبد الرحمن العك/ ط دار النفائس ـ بيروت.

١٦ ـ **.أصول فقه السّنَّة**: للشيخ خالد عبد الرحمن العك/ مخطوط.

١٧ ـ **الاعتصام**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللّخمي، المعروف بالشاطبي ت ٧٩٠هـ/ ط دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

١٨ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: للإمام ابن قيم الجوزية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥٢ هـ/ ط مصر ـ تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد.

١٩ ـ **الأم**: للإمام الشافعي محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هـ/ ط مصر.

٢٠ ـ **الأمر بالاتباع والنّهي عن الابتداع**: للحافظ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدِّين الحضيري السيوطي ت ٩١٠ هـ/ ط بولاق ـ القاهرة.

٢١ ـ **الأنساب**: للسّمعاني أبي سعد عبد الكريم بن محمد ت ٥٦٢ هـ/ ط محمد أمين دمج ـ تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي اليماني ـ بيروت.

٢٢ ـ **أولو العزم من الرسل**: لعمر أحمد عمر/ معاصر/ ط دار حسان ـ دمشق.

٢٣ ـ **إيثار الحق على الخلق**: لابن الوزير أبي عبد الله محمد بن المرتضىٰ اليماني ت ٨٤٠ هـ/ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٤ ـ **البداية والنهاية**: للحافظ ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٥ ـ **البدع والنهي عنها**: لابن وضاح محمد بن وضاح القرطبي ت ٢٨٦ هـ/ ط دمشق تحقيق أحمد دهمان.

٢٦ ـ **تأويل مختلف الحديث**: للإمام ابن قتيبة عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦هـ/ ط مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة.

٢٧ ـ **تاريخ الرسل والملوك**: **تاريخ الطبري**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ/ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم/ ط دار المعارف ـ بمصر.

٢٨ ـ **تجريد أسماء الصحابة**: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ/ ط شرف الدين الكتبي وأولاده ـ الهند.

٢٩ ـ **تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي**: للحافظ أبي العلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ت ١٣٥٣ هـ/ ط مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع ـ بمصر.

٣٠ ـ **تذكرة الحفاظ**: للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ/ ط حيدرأباد الدكن ـ الهند ـ مصوّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣١ ـ **تذكرة الموضوعات**: لمحمد بن طاهر الهندي الفتني ت ٩٨٦ هـ/ ط مصر ـ تصوير محمد أمين دمج ـ بيروت.

٣٢ ـ **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**: لابن الوزير أبي عبد الله محمد المرتضى اليماني ت ٨٤٠ هـ/ ط إدارة الطباعة للجمعية العلمية الأزهرية ـ القاهرة.

٣٣ ـ **الترغيب والترهيب**: للحافظ المنذري عبد العظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦ هـ/ تعليق وضبط مصطفى محمد عمارة/ ط مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر.

٣٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للحافظ ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

٣٥ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**: لعليّ بن عراق الكناني ت ٩٦٣ هـ/ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف /ط مكتبة القاهرة ـ مصوّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٦ ـ **التوسل أنواعه وأحكامه**: جمع الشيخ محمد عيد العباسي حفظه الله تعالى ـ وهي بحوث للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني بارك الله في حياته/ ط المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٣٧ ـ **الثقات**: لابن حبان أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التميمي ت ٣٢٧ هـ/ ط حيدرأباد الدكن ـ الهند ـ مصوّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٨ ـ **جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ**: لابن الأثير أبي السعادات المبارك بن محمد ـ المعروف بابن الأثير الجزي ت ٦٠٦ هـ/ تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط/ ط دار الملاح ـ دار الحلواني ـ دار البيان ـ دمشق ـ مصوّرة دار الفكر ـ بيروت.

٣٩ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تفسير الطبري**: للإمام محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

٤٠ ـ **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**: للحافظ ابن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الفكر ـ بيروت.

٤١ ـ **الجامع لأحكام القرآن: تفسير القرطبي**: للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت ٦٧١ هـ/ ط دار الكتب المصرية.

٤٢ ـ **الجرح والتعديل**: لابن أبي حاتم، أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ت ٣٣٧ هـ/ ط الهند ـ مصوّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٣ ـ **جماع العلم**: للإمام محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ/ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٤ ـ **الحديث حُجَّة بنفسه في العقائد والأحكام**: للشيخ المحدّث محمد ناصر الدِّين الألباني/ معاصر/ سلسلة رسائل الدعوة السّلفية.

٤٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الكتاب العربي.

٤٦ ـ **دَرْءُ تعارض العقل والنقل**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ هـ/ تحقيق محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى/ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ بالرياض.

٤٧ ـ **الدّر المنثور في التفسير بالمأثور**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١ هـ/ ط الميمنية ـ بمصر.

٤٨ ـ **دلائل النبوة**: لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله بن إسحاق المهراني الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ/ ط دار النفائس ـ بيروت ـ تحقيق محمد رواس قلعه جي ـ عبد البر عباس.

٤٩ ـ **دلائل النبوة**: للحافظ البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي

ت ٤٥٨ هـ/ ط دار الكتب العلمية ـ تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ـ بيروت.

٥٠ ـ **دلائل التوحيد**: للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ت ١٣٣٢ هـ/ ضبط وتعليق وتخريج الشيخ خالد عبد الرحمن العك/ ط دار النفائس ـ بيروت.

٥١ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: للإمام الألوسي شهاب الدين محمود الألوسي ت ١٢٧٠ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٥٢ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: للإمام ابن قيم الجوزية أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ت ٧٥١ هـ/ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، حفظهما الله تعالى.

٥٣ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: للشيخ المحدث ناصر السنة محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي، ومكتبة المعارف ـ الرياض.

٥٤ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت.

٥٥ ـ **سنن البيهقي الكبرى**: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت ٤٥٨ هـ/ ط دائرة المعارف العثمانية ـ الهند/ مصوّرة دار الفكر بيروت.

٥٦ ـ **سنن الترمذي**: للإمام أبي عيسىٰ بن سورة الترمذي ت ٢٧٩ هـ/ تحقيق أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى/ ط مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر.

٥٧ ـ **سنن أبي داود**: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥ هـ/ تحقيق عزة عبيد الدعاس/ ط حمص.

٥٨ ـ **سنن الدارقطني**: للحافظ علي بن عمر الدارقطني ت ٣٠٦ هـ تخريج السيد عبد الله هاشم يماني المدني ـ بالمدينة المنوّرة/ ط دار المحاسن للطباعة ـ القاهرة.

٥٩ ـ **سنن الدارمي**: للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن

بهرام الدارمي ت ٢٥٥ هـ/ تخريج عبد الله هاشم يماني المدني بالمدينة المنوّرة/ ط دار المحاسن ـ القاهرة.

٦٠ ـ **سنن ابن ماجه**: للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالىٰ/ ط مصر ـ مصوّرة المكتبة العلمية ـ بيروت.

٦١ ـ **سنن سعيد بن منصور**: للحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخرساني المكي ت ٢٢٧ هـ/ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي/ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٢ ـ **سنن النسائي**: للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت ٣٠٣ هـ/ ط المطبعة المصرية ـ القاهرة.

٦٣ ـ **السنة**: لابن أبي عاصم أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني/ تحقيق الشيخ المحدث محمد ناصر الدّين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٦٤ ـ **السّنَّة ومكانتها في التّشريع الإسلامي**: للدكتور مصطفى السّباعي رحمه الله تعالى/ ت ١٣٨٤ هـ/ ط المكتب الإسلامي ـ دمشق.

٦٥ ـ **السّنَّة النبوية وبيانها للقرآن الكريم**: للدكتور محمود أحمد حسين عبد ربه/ معاصر/ ط دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدّة.

٦٦ ـ **سير أعلام النبلاء**: للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ/ ط مؤسسة الرسالة/ بيروت ـ تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وزملاؤه.

٦٧ ـ **السّيرة النّبوية**: للحافظ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير/ ت ٧٧٤ هـ/ وهي من أقسام تاريخه «البداية» وقد طبعت بمفردها في أربعة أجزاء بمصر.

٦٨ ـ **السّيرة النبويّة**: لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨ هـ/ ط مصر ـ تحقيق مصطفى السقا وزميليه ـ مصوّرة دار الكنوز الأدبية.

٦٩ ـ **السّيرة النّبوية في ضوء القرآن والسنّة**: محمد بن محمد أبو شهبة / معاصر/ ط دار القلم ـ دمشق.

٧٠ ـ **شذرات الذهب**: لابن العماد الحنبلي أبي الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الأمانة الجديدة ـ بيروت.

٧١ ـ **شرح العقيدة الأصفهانية**: لشيخ الإسلام ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ هـ/ تقديم حسنين مخلوف ـ بمصر.

٧٢ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: لابن أبي العز الحنفي الدمشقي صدر الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي العز الأذرعي الدمشقي ت ٧٩٢ هـ/ ط المكتب الإسلامي.

٧٣ ـ **صحيح ابن حبان**: **الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان**: للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي ت/ ٣٢٧ هـ/ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٧٤ ـ **صحيح ابن خزيمة**: للحافظ أبي بكر بن إسحاق بن خزيمة السّلمي النيسابوري ت ٣١١ هـ/ تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٧٥ ـ **صحيح البخاري**: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦ هـ ط استانبول.

٧٦ ـ **صحيح البخاري**: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦ هـ تحقيق د. مصطفى البغا/ ط دمشق.

٧٧ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٧٨ ـ **صحيح سنن أبي داود**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ معاصر/ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٧٩ ـ **صحيح سنن الترمذي**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ معاصر/ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٨٠ ـ **صحيح سنن النسائي**: للشيخ المحدث ناصر الدين الألباني/ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٨١ ـ **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ/ ط استانبول.

٨٢ ـ **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ/ ط مصر ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٨٣ ـ **صفة الصفوة**: للحافظ ابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ/ تحقيق فاخوري وقلعجي ـ حلب.

٨٤ ـ **الضعفاء الكبير**: للحافظ أبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي ت ٣٢٢ هـ/ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي/ ط دار الكتب العلمية.

٨٥ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزياداته**: للشيخ المحدث ناصر الدين الألباني / معاصر/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٨٦ ـ **ضعيف سنن ابن ماجه**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٨٧ ـ **ضعيف سنن أبي داود**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٨٨ ـ **ضعيف سنن الترمذي**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٨٩ ـ **ضعيف سنن النسائي**: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٩٠ ـ **طبقات الشافعية**: للسبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١ هـ/ ط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.

٩١ ـ **طبقات الشافعية**: لعبد الرحيم الأسنوي ت ٧٧٢ هـ/ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩٢ ـ **الطبقات الكبرىٰ**: لابن سعد أبي عبد الله محمد بن سعد الزهري ت ٢٣٠ هـ/ ط دار صادر ـ بيروت.

٩٣ ـ **عقائد السلف**: البخاري، الدارمي، أحمد بن حنبل، ابن قتيبة، تحقيق د. علي سامي النشار، وعمار جمعي الطالبي/ ط منشأة المعارف ـ الإسكندرية.

٩٤ ـ **العلل المتناهية**: لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ/ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩٥ ـ **فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه**: لأبي عمرو صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى المعروف بابن الصلاح ت ٦١٨ هـ/ دار المعرفة ـ بيروت.

٩٦ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: للحافظ ابن حجر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ/ ط المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة.

٩٧ ـ **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**: للإمام محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ/ ط مصر.

٩٨ ـ **فيض القدير تاج الجامع الصغير**: للمناوي محمد بن عبد الرؤوف المناوي ت ١٠٣١ هـ/ ط مصرية ـ مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

٩٩ ـ **كشف الخفاء**: للعجلوني إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ت ١١٦٢ هـ ـ تحقيق أحمد القلاش/ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٠٠ ـ **كنز العمال**: لعلاء الدين المتقي علي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري ت ٩٧٥ هـ/ ط مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب.

١٠١ ـ **اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**: للحافظ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطي ت ٩١١ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

١٠٢ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: للحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧ هـ ط مصر ـ مصوّرة دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٠٣ ـ **مجموعة الرسائل الكبرى**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ت ٧٢٨ هـ/ ط دار إحياء التراث العربي.

١٠٤ ـ **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام**: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله تعالى ت ٧٢٨ هـ/ جمع الشيخ عبد الرحمن بن القاسم وابن محمد/ ط الرياض.

١٠٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**: للحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ت ٤٠٥ هـ/ وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي/ ط حيدرأباد الدكن ـ الهند. مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

١٠٦ ـ **المسند**: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة المكتب الإسلامي.

١٠٧ ـ **مشكاة المصابيح**: لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ت ٧٣٧ هـ/ تحقيق وتخريج الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٠٨ ـ **مصابيح السنة**: للبغوي ركن الدين أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفرّاء البغوي ت ٥١٦ هـ/ تحقيق د. يوسف عبد الرحمن مرعشلي وزميليه/ ط دار المعرفة ـ بيروت.

١٠٩ ـ **المغازي**: للواقدي محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ/ تحقيق د. مارسدن جونس/ ط عالم المكتب ـ بيروت.

١١٠ ـ **المغني في الضعفاء**: للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ/ تحقيق د. نور الدين عتر ـ حلب.

١١١ ـ **المقاصد الحسنة**: للسخاوي محمد بن عبد الرحمن السّخاوي ت ٩٠٢ هـ/ ط مصر ـ بيروت تحقيق محمد عثمان الخشن/ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١١٢ ـ **مصنّف ابن أبي شيبة**: للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة ت ٢٣٥ هـ/ ط الدار السلفيّة ـ الهند.

١١٣ ـ **مصنّف عبد الرزاق**: للحافظ أبي بكر عبد الرزاق ابن همّام بن نافع الحميري الصنعاني ت ٢١١ هـ/ ط المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

١١٤ ـ **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنّة**: للحافظ السيوطي ت ٩١١ هـ/ في الرسائل المنيرية/ ط إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة.

١١٥ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**: للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١٦ ـ **منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان**: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي/ معاصر/ ط أولىٰ سنة ١٤٠٥ هـ/ بدون ذكر الناشر.

١١٧ ـ **منهاج السنّة النبوية**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ هـ/ تحقيق د. محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى/ ط القاهرة مطبعة مدني.

١١٨ ـ **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**: للحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧ هـ/ ط مصر ـ مصوّرة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١٩ ـ **موسوعة عظماء حول الرسول ﷺ**: للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك/ ط دار النفائس ـ بيروت.

١٢٠ ـ **موسوعة عقائد السّلف**: للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك/ ط دار الحكمة ـ بيروت، دمشق.

١٢١ ـ **الموضوعات**: لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ/ ط السلفية بالمدينة المنوّرة ـ تحقيق عبد الرحمن عثمان ـ مصوّرة دار الفكر ـ بيروت.

١٢٢ ـ **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس الأصبحي المدني. إمام دار الهجرة ت ١٧٩ هـ/ ط مصر ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ مصوّرة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٢٣ ـ **ميزان الاعتدال**: للحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ/ تحقيق علي محمد البخاري/ ط مصر ـ مصوّرة دار المعرفة ـ بيروت.

١٢٤ ـ **النبوات**: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ هـ/ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٢٥ ـ **وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين**: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رسائل الدعوة السلفية/ ط دمشق.

١٢٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ٦٠٦ هـ/ تحقيق الزاوي والطناحي/ ط مصر ـ مصوّرة المكتبة الإسلامية ـ بيروت.

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النّبوية

٣ ـ فهرس الآثار السّلفية

٤ ــ فهرس مسائل العلوم الشرعية

٥ ـ فهرس الأعلام والتّراجم

٦ ـ فهرس الكتب والمصنّفات

٧ ـ فهرس الفرق والملل

٨ ـ فهرس الأمم والشعوب والقبائل



٩ ـ فهرس الأماكن والبلدان



١٠ ــ فهرس الأشعار

١ ـ الفهرس العام لأبحاث الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الرّابع: رسالة النّبيّ ﷺ

الموضوع	الصفحة
الدليل: هو القرآن الكريم.. والمبيِّن هو الرسول ﷺ	١٤٤
حقيقة الاستدلال عند المتكلّمين	١٤٥
مذهب الأشاعرة في الاستدلال على وجود الله بحدوث العالم.. والجوهر والعَرَض	١٤٥
نقض دعوى وجوب النظر لصحة الإيمان	١٤٦
طريقة القرآن في تصحيح الإيمان	١٤٧
الفرق المبتدعة المختلفة قائمة على العصبيّة والشعوبية	١٤٨
الذين أعرضوا عن طريق الرسول ﷺ في العلم والعمل وقعوا في الضلال .	١٤٩
الإرادة الشرعية إرادة ما أمرَ الله تعالى به ورسوله ﷺ	١٥٠
البحث الثاني: : رسالة النبي ﷺ وما تتضمنه من بيان الحقّ في أصول الدِّين وفروعه	١٥٢
الهُدَى هو العلم النافع، والدِّين الحق هو العمل الصّالح الذي اشتمل على الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ	١٥٢
النبي ﷺ علّمَ أمته جميع ما تحتاج إليه من أمور الدين والدنيا	١٥٣
البحث الثالث: الحقُّ في اتّباع الرّسول ﷺ	١٥٥
لا تزال في هذه الأمّة طائفة ظاهرة على الحقّ إلى يوم القيامة	١٥٧
ردُّ ما تنازع الناس فيه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ	١٥٩
البحث الرابع: النبي ﷺ والمؤمنون المهتدون لا يُخبرون إلاّ بحق ولا يأمرون إلا بعدل	١٦١
أصحاب الحال الشيطاني تتمثل لهم الجنّ.. وأصحاب الكلام والمقال البُهتاني بنوا مذهبهم على مخالفة الحسّ والعقل.. وأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحسّ والعقل	١٦٢
المخالفون للأنبياء مخالفون للحسّ والعقل	١٦٣

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس: المعجزات ودلالات النبّوة والرسالة - والفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق العادة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السّابع: طرق إثبات أحاديث النّبوّة وأخبارها

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

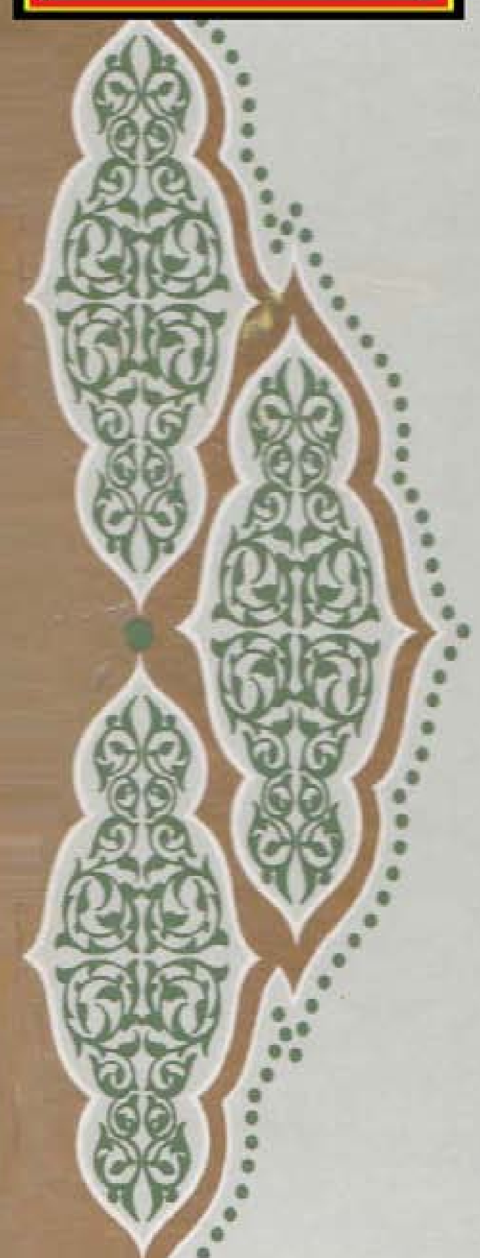
الفهارس العامة

رقم: 289 - 95



رَفعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





الماوردي علم من أعلام الفكر الإسلامي في أزهى عصوره وأبهاها، وله كتب عدة منها «أعلام النبوة» صدر محققاً عن دار النفائس في بيروت في مجلد مستقل.

وبما أن منهج الماوردي جدلي كلامي رغب المحقق الشيخ خالد عبد الرحمن العك، العالم السلفي، في أن يضع مقدمات تمهيدية لكتاب الماوردي هي في الواقع استكمال له، لأنها تشكل أبحاثاً مستقلة في النبوة ودلائلها، منها: منهج القرآن في إثبات النبوة والرسالة، والفرق بين النبوة والرسالة، والمعجزات والخوارق، والفرق بينها وبين الكرامات، وبينها وبين السحر والشعوذة، وطرائق الفلاسفة والمتكلمين في إثبات النبوة ونقدها، وقد فضلنا نشرها منفصلة عن كتاب الماوردي نظراً لأهمية هذه الأبحاث واستقلاليتها.